

شعر الحرب

حتى القرن الأول الهجري

الدكتور

نوري حمودي القيسي

مكتبة النهضة العربية   عالم الكتب

الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م



بيروت - المزرعة بناية الايمان - الطابق الاول - ص.ب. ٨٧٢٣
تلفون : ٣٠٦١٦٦ - ٣١٥١٤٢ - ٣١٣٨٥٩ - برقياً : نابعلبكي - تلكس : ٢٣٣٩٠

شعر الحرب عند العرب

تمهيد :

من الصور التي استهوت العرب، وتركت في نفوسهم الأثر الواضح صور الحرب، وما خلفته من ألوان تناثرت فوق مظاهرها المرعبة، وملامحها الملتهبة، ولم تكن الحرب بأشكالها المختلفة وجوانبها المؤلمة محببة إلى العربي على الرغم من قسوة الحياة وصعوبة البيئة واحتدام الصراع، لأنه كان يجد فيها جناية كبيرة ومآسي موجعة يتحملها الانسان، وتتحول في ظلها الحياة إلى صور مرعبة وأشكال مخيفة، وإذا قدر لهذا الإنسان أن يخوض غمارها ويقتحم دروبها فلأنه اضطر إليها، وأجبر على ركوبها بعد أن وجد نفسه يتعرض للتحدي ويقف أمام خيارين لا ثالث لهما، أما الحياة الكريمة أو الخضوع لإرادة القوى الباغية التي كانت تسعى لاستغلاله والسيطرة عليه وإستثمار ثروته وجهوده، وهذا ما كان يدفعه إلى أن يظل متوثباً ومتحفزاً، وهذا ما كان يحمله أيضاً على أن يظل محتفظاً بسلاحه، وكل الأسباب التي تحقق له الانتصار وتدفع عنه شبح السيطرة وتبعد عن أرضه نوازع الشر.

ومن هنا كان حديثه الشعري عن الحرب ملازماً للعناصر الأساسية التي تحسم الحرب لصالحه من خلال وقوفه على وصف هذا السلاح وتهيئته وتمجيده واعتباره بضعة من نفسه وجزءاً من حياته وعنصراً هاماً من عناصر وجوده، وأن هذا الإهتمام كان يدفعه إلى متابعة أنواعه وصناعته ومن عرف بصقله وتقويمه.. وقد شغل هذا الجانب مساحة عريضة من مساحات البيئة الشعرية التي كان يتحرك فوقها الشاعر.

والشاعر الذي وضعت القبيلة ثقتها فيه، وهيأت له أسباب الشهرة وبوأته المكانة المرموقة، كان الواجهة الإعلامية المعبرة، والصوت الشعري الرائد الذي ينطق بالمآثر ويحمل لواء الانتصار وهو يشيد بالأيام ويذكر الخوالد من المواقف ويؤدي مهمته الشعرية على الوجه الأكمل، وليضيف إلى مجد قومه أمجاداً جديدة، ويرفد روافدها الإنسانية بعطاء محمود، وقد استطاع توظيف شعره لهذه المهمة بجدارة وقدم لديوان الشعر العربي ما أغنى عطاءه، وترك آثاره البارزة، ولم تقف الحرب عند خصائصها القتالية وإنما كانت المدرسة التي يتدرب فيها الأبناء على ضروب الحياة ويمارسون الخصائص الكريمة التي كانت تفرض عليهم الوفاء بكل القيم الإجتماعية والتربوية الخيرة من مروءة وتضحية ونجدة وشجاعة وكرم، والمثل التي حافظوا عليها من خلال تجربتهم في الحفاظ على العهد والوفاء بالوعد وإعانة المحتاج ومساعدة الضعيف والإحسان إلى من يحسن إليهم، وقد بقيت هذه المعاني تصب في رافد الحماسة التي تلازمت فيه القيم الخيرة والمبادىء الإنسانية التي وجدت في الشعر طريقها، وعرفت في معانيه السامية دروبها الرفيعة.

أما الإنصاف الذي التزم به الفرسان فكان جانباً أخلاقياً آخر تميزت به الروح العربية، وتلمست خصائصه في سلوكهم مع أعدائهم، واعترافهم بقدرتهم على الرغم من كل الأسباب التي تفرض عليهم الظهور بغير هذا المظهر، ولكن التربية الأصيلة والوفاء الإنساني والثقة الكبيرة بالنفس كانت تفرض عليهم هذا السلوك الذي ظل علامة من علامات مجدهم وعزتهم ووفائهم.

وشعر الحرب الذي كتب عليه أن يظهر في هذه المرحلة يمثل قدرة (الأمة) العظيمة التي كانت صورة للمجد الإنساني العظيم، وقدرة خلاّقة من قدرات الإبداع الفذ وصوتاً مخلصاً من أصوات الحقيقة الرائعة التي قدمت وما تزال تقدم لكل الخيرين عطاءها الثر ومجدها البطولي الكبير وسيظل زهو هذه (الأمة) ينبوعاً ثراً من ينابيع الإقتدار، وملحمة من ملاحم الخلود الذي يعيش في كل نفس ويحيا مع كل خفقة ويتحرك في اتجاه كل عمل عظيم.

تقديم

أخذ شعر الحرب مساحته في القصيدة العربية، واتسعت مدلولاته في إطارها الشعري، وأُغنيت مفرداتها من خلال استخدام الشعراء للمفردة الشعرية التي كانت تتحرك في دائرة المعاني، وشحنت ألفاظها بقدرات المقاتلين الأشداء الذين كانوا يغنون عطاءهم بتضحيتهم، ويوقدون سعيرها باقتحامهم، ويمتلكون زمام المبادرة بجرأتهم النادرة، وبطولاتهم الفريدة... وكان الشعراء الذين يخوضون المعارك يسجلون لوحات المفاخر الخالدة، والمآثر التي يظل صداها في قلوب الرجال الذين يستذكرونها باعتزاز ويعيشونها بإباء ويتمثلون بها كل ما دعت الحاجة إليها.

ومن الطبيعي أن تتداخل فيها النزعات التي تشارك في استثارة الهمم وتتولد الأسباب التي تعطي لكل صورة من صورها ما يتناسب مع المرحلة التي كانت تجتازها، وهي في كل جانب كانت تتحرك وفق عناصر فاعلة، وتنطلق في ضوء عوامل مؤثرة، فالحرب لم تكن حركة عابرة في حياة الأمة. وإنما كانت تعني الحياة بعد أن أصبحت الأمة في وضع يدفعها إلى أن تدافع عن نفسها، وتحقق رسالتها، وتنشر مبادئها، وتشارك في كل عمل إنساني توجبه عليها ظروف الصراع المحتدم الذي كان يحيط بها.

وقد ظلت الصورة التي حملها شعر الحرب قبل الرسالة تتجسد في بعض مضامين الشعر في عصر الرسالة. ولكن تحولها إلى حرب تحرير ودخولها في إطار أوسع من الإطار الذي كانت فيه قد ترك لها سبلاً جديدة، وكشف لها عن

ميادين مختلفة، وأدخل عليها عنصراً جديداً ومتميزاً هو عنصر العقيدة التي كانت تأخذ بقلوب المجاهدين وتشد على سواعد المقاتلين، وتحرك فيهم كل نوازع التضحية وتثير كل أسباب الإقدام بعد أن توحدت الأمة واتجهت قلوب أبنائها إلى تخليص الإنسان من أسباب التخلف وإعادة الحياة الكريمة إليه، وإنقاذه من جبروت الطغيان والقهر، ومن الطبيعي أيضاً أن تتغير القيم، وتتبدل المثل وتستبدل قيم الحياة بقيم إنسانية مشرقة، وتتحول إلى واقع يجد فيه الإنسان الجديد صورة الحياة الحرة وتتفتح قدرته في إطار مجتمع يحفظ له حقه ويترك له مجال الإختيار الموجه.

لقد استطاع شعر الحرب في عصر الرسالة أن يستوعب هذه المضامين، ويعبر عن قيم الحرب الجديدة التي أخافتها قدرة الأبطال الذين تركوا قسمات أعمالهم فوق تراب الأرض المحرر، ونصبوا راياتهم الخفاقة فوق روابي الديار التي ظلت تئن تحت وطأة الجور الفارسي المقيت والظلم القيصري المستبد، وقد خلّد الشعراء في موضوعاتهم تلك البطولات النادرة التي ظلت ترفد الأمة بكل إنتصار خالد ومجد مؤثل وفكرة نبيلة.. وكما خلدوا فيها الأعمال الإنسانية التي كانت تصاحب الحرب لأنهم يمثلون حملة الرسالة السامية وحماة الكرامة والفضيلة، لأن معاني السمو كانت هي الأساس الذي حملهم على الإنسياح فحققوا المجد، وأكدوا الأصالة الحرة.

إن شعر الحرب في عصر الرسالة يشكل بداية جديدة للشعر العربي الذي جاء بعد هذا العصر، لأنه استطاع أن يفرد لمعاني الحرب صورتها الجديدة ويبرز في أتون سعيرها الألق البطولي المتميز وهذا ما حقق له الخلود وأكد لمسيرته الظفر الذي كان يعطي شعر الحماسة من دفقاته ما ترك لها ميدان الإتساع. وهو بذلك يؤكد وحدة الفكر الذي ظل يوحي للشعراء بمعاني التواصل ويمدهم بأسباب الشعور بمسؤوليتهم الكبيرة في بناء الحياة.

وشعر الحرب الذي ظل صورة الوجدان العربي، وبقيت ألوانه تمثل أنماط

القدرة القتالية الفذة التي عرفها العرب بقيت معانيه تعني استمرار المعاني الحية التي مارسها وهو يؤدي دوره الجديد في المرحلة الإسلامية وإذا كان شعر الحرب في العصر الجاهلي يشكل الاتجاهات العامة لبناء القصيدة الحربية من حيث التهيء والبناء، ومن حيث الإستعداد والمقاومة، فأن شعر الحرب في عصر الرسالة ظل يضخ في مضامين الشعر معاني العقيدة التي رسختها قدرة الدين الذي ملأ على العرب حياتهم، وجدد فيهم روح التضحية، ووحد في اندفاعهم قدرة الإندفاع وحرر في سلامة قيادتهم نفوس البشر التي ظلت تعاني من القهر والتسلط ما قتل فيها كل مطامح التطلع.. إن شعر الحرب في عصر الرسالة هو إمتداد طبيعي لقدرات هذا الأمة التي ظلت تدفع أبناءها باعتزاز ليعيدوا صفاء الحياة للإنسان، ويحققوا في وجوده، النفس البشرية الحرة التي كتب عليها أن تعود ثانية إلى ميدان العمل لتأخذ دورها الحقيقي.. وأن هذا الشعر الذي تمثلت في معانيه دلالات الشجاعة والبطولة كانت تتمثل فيه جوانب أخرى من المعاني الأخلاقية التي حملتها القيم العربية وكانت تتعامل بموجبها مع الناس الذين دخلوا في دين الله أفواجاً.

ومن الطبيعي أن يأخذ الجانب التاريخي مساحته في هذه الدراسة وصورته في الأحداث وبعده في التصور لأنه يمثل القاعدة التي ارتكز عليها والحالة التي ازدهر في سمائها والبنية التي استمد منها صوره واعتمد عليها في تحركه ووجد فيها مادته الأساسية تعبيراً واستجابة بعد أن أصبح الشعر وجهاً من وجوه التاريخ، وصوتاً متميزاً من أصواته ولوناً مشرقاً من ألوانه، وقد دفعني هذا الإحساس إلى أن أضع الأحداث مقترنة بالشعر لإيماني بعدم جدوى الدراسة التحليلية للشعر وهو بعيد عن الحالة التي قيل فيها، ولصعوبة التصور التي يمكن أن تخلقها العبارة الناقدة وهي تعتمد الخيال الأدبي وتستمد حقيقتها من ثقافة الناقد وقدرته البلاغية أو النقدية دون الركون إلى الينابيع الأصيلة التي وجد فيها الشاعر دوافق الإحساس وبواعث الاستشارة ونوازع المواجهة الحقيقية لكل معركة فاصلة أو

مجابهة حاسمة أو محاضرة تترك للشعراء فرص التعبير الحي ومجال الإبداع في تقدير الموقف الشعري المناسب.

الدكتور نوري حمودي القيسي
أستاذ في قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب
جامعة بغداد

بغداد ٤ / ٩ / ١٩٨٤

ثوابت معرفية في
أوليات شعر الحرب

وقفت وأنا أتابع البحوث والدراسات والمناقشات التي تناولت أدب الحرب موقف الاعتزاز والإكبار لما أثارته من موضوعات جديدة، وعبرت عنه من أحاسيس واعية، والتزمت به من تحليل موضوعي في بعض جوانب المناقشات، وأدركت أن أدب الحرب الذي تحدث عنه الباحثون والدارسون هو محاولة جديدة تختلف في جوهرها وأصولها عن الدراسات التقليديـة التي ظهرت أو كتب في ضوئها أدب الحرب، وأدركت أيضاً أن التحليل الذي شمل مفردات الأدب وفنونه، ووقف عند بعض تراكيبه واستعمالاته قد أخذ بنظر الاعتبار النصوص واعتمد المعايشة الحية، واستند إلى التصنيف الواقعي لما قدمه النص دون أن يحاول إخضاعه لمقاييس مسبقة أو نظريات أدبية جاهزة، أو مقولات نقدية يمكن إستخدامها في كل موضوع، واستعارتها بكل حالة..

إن المقالات التي كتبت في هذا الفن الأدبي تمثل إنتقالاً في الدراسة الأدبية، وتحولاً نحو الإتجاه الصائب في ميدان البحث النقدي والجمالي، ولا بد أن تكون مقوماتها وما عرضت له مجال مناقشات جادة في رحاب الجامعات العراقية حاضراً والجامعات العـربيـة وغيرهـا مستقبلاً لأن المفـروض أن أمثـال هـذه الدراسات أن تضيف إلى البحث عطاءً غنياً، ومادة ينتفع منها في حقول المعرفة.

ومن خلال المتابعة لهذا الضرب الأدبي وما قدمه أدبنا العربي القديم والمعاصر وجدت الأمر يحتاج إلى وقفة قصيرة لوضع بعض المسائل الأولية أمام الباحثين

ليكون التواصل بين الأدب مدركاً، واستمرار التجربة منظورة، وحقيقة التشابه في إطار الظروف المستجدة في كل عصر محسوبة لتأتي النتائج متقاربة.

في محاولة لدراسة النص الأدبي القديم وهو يقف عند ضرب من ضروب الحروب تبرز مجموعة من الملامح تتعلق بعضها بالمفردة (اللفظة) ويتعلق بعضها الآخر بالصورة مفردة أو مركبة، وينصرف القسم الآخر إلى الإلتزام بالجانب التقليدي الذي يمهد للقارىء حالة الإستدراج والتوطئة وصولاً إلى الحالة الراهنة التي يريد الشاعر أن يصل إليها، وأن انصرافه إلى هذا الإلتزام وخضوعه إلى هذا التمهيد وإقدامه على هذا التناول يضعه في إطار الشعراء الذين سبقوه وهم يمهدون لقصيدة الحرب بصيغ تقليدية وفنية، وصور أدبية وبلاغية، وقف عندها القدامى، وأفرغوا في محتواها قدراتهم وإبداعاتهم وعبروا من خلالها عن مشاعرهم وأحاسيسهم وتطلعاتهم، وربما ينصرف بهم التقليد إلى الإطالة في الجانب التمهيدي أكثر من المعالجة المطلوبة لظروف الحالة الحربية التي دفع إلى أن يقول فيها قصيدته، أو يؤرخ في حدودها نزوعه المشروع تلبية لمهمة قبلية أو قومية. والشاعر في هذه الحالة أمين على ما يقول، وصادق في التعبير، ملتزم في دائرة التوافق بين ما يبديه أبناء قبيلته، ويظهرونه من شجاعة، ويقدمونه من تضحية وبين ما يتعرضون له من هجوم، وما يسلكون من وسائل لرده. وكثيراً ما كان الشعراء ـ وهم يلجون هذه الأبواب ـ يؤمنون بأن الإحساس القبلي أو القومي يستثير في دواخلهم كل الأسباب التي تعطيهم هذه القوة، ليتخذوا منها فرصة لتوثيب العزائم، ودفعاً لرد الخصم، واستعداداً لتحمل الأعباء المفروضة والرمز في هذه القصائد بالنسبة للدارسين في العصور المتأخرة والوضوح بالنسبة لمن عرف المسلك الطبيعي للقصيدة، وأدرك النتائج المترتبة على البدايات والمقدمات فإن الحالة المنظورة في البناء الكامل للقصيدة وهي تبني أبياتها، وتعد مطلعها وتسلسل أفكارها، وتختار صورها وتمهد لكل حالة من حالاتها وتقف باعتزاز وإباء عند المواقف التي تراها جديرة بهذه الصفة، ولعل قصيدة عمرو بن كلثوم وبعض قصائد زهير بن أبي سلمى وبعض القصائد التي اختارها المفضل

الضبي في المفضليات تمثل الحالة الموافقة لهذا الجانب التقليدي وتعطي التصور الواضح لطبيعة بنائها وتوافق معانيها، وتشابه ألفاظها، وتسلسل صورها، وربما كانت الدراسات التقليدية القديمة بعيدة عن إدراك هذا النهج الشعري وهي تقف عند هذه القصائد أو تحاول دراستها أو تستشهد بأبياتها، ولكن الدراسة المقارنة والمحاولة الجادة في استقصاء المعاني وتحليل النوازع، وترتيب الأوليات التي تؤكد هذا الموضوع، وتكشف عن الخيوط الموصولة بين هذه القصائد وتوضح العلاقة المتينة بين كل مفردة وصورة وإشارة وإسلوب واستعمال.. وبقي هذا النهج في بعض القصائد الحربية واضحاً في قصائد العصور التي تلت العصر الجاهلي. ولكن بدأت تتضاءل دلالة الرمز، وربما لمسنا في بعض قصائد الشعراء في العصر الحديث والمعاصر هذا النفس الذي اتخذ من الحديث عن المرأة بداية لقصيدة الحرب وإشارة للوقوف عند معركة، ووجد في هذا التناول بداية لموضوعات كثيرة يستوحيها من هذا الموقف، بعد أن أصبح الدخول المباشر لموضوع قصيدة الحرب مسألة لا يلتفت إليها النقاد باعتبارها خارجة عن البناء الفني وبعيدة عن التقليد المرسوم، والشعراء في هذه الحالة لا يباشرون الحرب ولا يدخلون أوارها، لأن الشاعر المحارب لا يملك الوقت لمثل هذه البدايات وليس بحاجة إلى التمهيد بعد أن دخل المعركة دخولاً مباشراً، والتحم مع الخصم إلتحاماً لم يترك له فرصة استخدام الرمز، أو اللجوء إلى المقدمة أو التأمل في إختيار النهج التقليدي، والصورة المألوفة، واللفظة المستخدمة في هذا الضرب من ضروب الشعر.

وإذا كان الجانب التقليدي قد أخذ حجمه في دائرة القصيدة الحربية في شعرنا القديم، فإن القصيدة المباشرة قد ملأت حيزاً كبيراً، واتسعت استخداماتها لتتوزع على مجاميع من الشعراء وجدوا فيها صورة متقدمة، ولوحة حية، ومفردة معبرة، بعد أن أصبحوا وجهاً لوجه أمام الخصوم، إبتداءً من حركة (الردة) التي كانت البداية الأولى لإيقاف زحف الثورة الجديدة، والتوجه الإنساني الصائب لحمل الإنسان من واقع التفرق إلى واقع التوحد، ومن ضيق

التعامل إلى سعة الممارسة، ومن هذه الوثنية إلى سمو الوحدانية..

وقصيدة الحرب أصبحت تخضع لتقاليد فرضتها طبيعة القصيدة المقاتلة والتزمت بها إرادة المقاتل الذي حاول أن يباشر خصمه أو من يبلغه بقدرته على المعاولة، وعزمه على خوض المعركة، وهنا كان الشعراء يعلنون عن أنفسهم ويذكرون جرأتهم، ويعيدون على سماع خصومهم ما يبعث في نفوسهم الهلع، وينزل في قلوبهم الخوف، ثم يتدرج الشعراء إلى الإستشهاد ببعض الوقائع استلهاماً للمجد المسجل، وترسيخاً للقدرة المتمكنة، وتوثيقاً للإرادة الصلبة والعزيمة المشهودة. وفي كل حالة من هذه الحالات يستعير الشاعر صورة من صور المعركة أو حالة من حالات الإنتصار الماحق، أو المصاولة الحاسمة، وقصيدة الحرب هذه تعبر عن الحالة الراهنة، وتلامس الحدث ملامسة قريبة، وتنتزع المعاني التي ألِف المحاربون استخدامها، وتصوغ العبارة التي وجدوا في استخدامها رنيناً نغمياً ووقعاً لفظياً مقبولاً، وتشير إلى الحالة التي عاشت في نفوس المقاتلين وثابة ومتأهبة، واستقرت في تقاليد الشعر رائقة ومزهوة، وأوشك هذا الضرب من الشعر أن يجمع معجماً من الألفاظ، ويوحد ضرباً من الأساليب وينسق وحدة التعابير التي دارت على ألسن المقاتلين وهم يجابهون المعركة ويذوقون حر اللقاء، بعد أن أخذ طريقه إلى النفوس، وعرف دروبه بين قنوات الفنون الشعرية الأخرى، وقد توزع قطعات متناثرة يستشهد بها عند الحديث عن المعركة، أو الوقوف على موضوع أو الإشارة إلى حدث تاريخي، أما اللغة التي استخدمها الشعراء المقاتلون فكانت أقرب إلى لغة الحديث، وأكثر صلة بما يعرف في ساحة المعركة لأن الأغراض فيه تتداخل فهو يأخذ من المديح ما يعطي الشاعر قوة الدفاع، وشدة المقاومة، ويؤكد في ذاته إرادة الذود ووجاهة الحق، وسلامة المحاججة، ويأخذ من الهجاء ما يضعف فيه إرادة خصمه ويقتل في نفسه حدة التطلع، وينزع عنه أسباب المقاومة ويدخل إلى نفسه الروع ويضيق عليه دائرة الخناق، بعد أن يسلبه كل الخصال الحميدة، ويميت في ذاته عناصر الإقتدار، أما الفخر فهو غرض يتسرب إلى القصيدة خلال تضاعيف المديح،

وفي ظل سطور الإعتزاز وتعداد المفاخر، وذكر المحامد والأيام تتوارد المعاني التي عاشت في الوجدان العربي قيماً كريمة، وأهدافاً موروثة، وأنماطاً من السلوك المأثور في الكرم والشجاعة، والصلابة في القتال والثبات في المعركة، وغيرها من المعاني التي تمثل الحدود الفنية لهذا الفن الشعري المتداخل ولم يجد الشاعر ضيراً من إستذكار بطولة الرجال الذين أبلوا في الحرب البلاء الحسن، وكانوا نماذج متقدمة في تحقيق الذات ورواد مبدعين في التضحية وأشداء مؤمنين في مجابهة الموت، وتحدي الخصم، وانتزاع النصر، وإستعادة العز، ويتخذ الشاعر من هذه الأعمال الجليلة أسباباً من أسباب التوثيب، ومدعاة لتأجيج العزائم وعاملاً من عوامل المثابرة لتحقيق المكانة المرموقة التي سعى إليها هؤلاء الرجال وقدموا من أجل الوصول إليها أعز ما يملكون.

فالشعر هنا لم يعد غرضاً تقليدياً يتناوله الشاعر بعفوية الإحساس أو يقولوه تفريجاً عن هم، أو تعبيراً عن حالة طارئة، أو لذات مبهمة فهو الصورة التي امتلأت بها قنوات الحياة، وهو الحالة التي عاشت في الذهن والقلب وتألقت في العين وازدهرت في خوافق الواقع المنظور. ووجد فيه المقاتل صيحته المسموعة، وقرأ في مفرداته حياة الجهاد والإيمان، وتلمس في صفحات سفره الخالدة وقائع الأعمال العظيمة، وخوالد الزمن الحي، ووجد في مضامينه نبضات الحياة الحافلة بكل عز، المملوءة بكل فخر، فانسابت حركة الشعر العربي في دروب المقاتلين شرايين دافقة، وتحركت في أعماقهم نوازع المشاركة الوجدانية الصادقة لتلازم هذا الصوت الكبير الذي عرف مواطن الخلد فاندفع إلى جناتها مؤمناً لا تصده ملذات الدنيا، ولا تحول دون مطامحه شهوة البقاء بعد أن أيقن أن الخلود للمجاهدين، والبقاء للصالحين المؤمنين والفناء للمشركين الذين باعوا أسباب الحيادة بأبخس الأثمان فهانت الحياة في تصورهم وجاء الشعر ليعطي هذا المد الإنساني أبعاداً واسعة، وتحمل مضامينه لواعج الشوق القتالي والتواجد الذاتي وهو يتحول إلى قدرة غير محدودة. ويشق طريقه إلى قوافي الشعر قافلة زاهية تضج بألحان البطولة وتصدح بأناشيد النصر وتزخر بأهازيج النفوس المؤمنة..

وإذا كانت للحرب ظروفها الخاصة، وأسبابها الموجبة وأساليبها التي تتحرك في إطارها، فإن الشعر الذي عبر عن هذه الظاهرة وخضع لظروف خاصة تتناسب مع كل وجهة من هذه الوجوه، وتنسجم مع الأحوال التي مرت بها، فالسلاح كان له صداه في القصيدة، ومضاؤه وشدته وضروبه ولكل ضرب منه له خصائصه فالخيل لها رعايتها وإكرامها ونسبها والرجال لهم بلاؤهم وشجاعتهم وصبرهم والسيف له قوته وحدته، والرمح له صولته وقدرته والقسي والسهام لها فعلها ودقتها ولها رجالها الذين يحسنون التصويب فيها والدروع لها فرسانها. وقد احتفظ شعر الحرب بمفردات غنية من أسماء السلاح وصنّاعه، وأنواعه وخصائصه وجوهره وأقسامه بعد أن جربه المقاتل وعرف دوره في المعركة، وأدرك أهميته في ساعات الضيق واستوعب أحجامه في حالات الإحتدام، وقد اقترن هذا الحديث بالتعاطف والإستجابة، وتوثقت بين المقاتلين وأسلحتهم وشائج الإتصال واستدامت رفقة المصاحبة، واستحالت العلاقة بينهما إلى إحساس وجداني عميق، وتجلى للباحثين نمط سلوكي فريد في هذا الباب بعد أن توارث الشعراء هذه المعاني، وتواصلت في نفوسهم أسباب الإحساس بدورها الفاعل في حسم المعارك، ومثل ما ترك السلاح بصماته على وجه القصيدة الحربية، وشغل الجانب الكبير منها فإن خصائص الرجال وأدوارهم البارزة وصمودهم الراسخ قد مدّ الشعراء بوافر من المعاني، وفيض من الصفات، وجليل من الأعمال التي انعكست على الشعر، فازدانت بها القصائد، واستطالت عزاً بما أبداه المقاتلون، وأظهروه من مواقف جريئة، وتضحيات نادرة، وبطولات مشهودة.

وقد ألهب شعر الحرب قرائح الرجال، وأثار في دواخلهم رغبات التطلع إلى الخلود وهم يتسمون بصدق العقيدة وسلامة المبدأ، ورسوخ الإيمان، وصفاء النيّة، فازدحمت بشعرهم سوح المعارك، وتوالت على ألسنة الرواد قصائدهم ومقطعاتهم وهي ترسم وقائعها، وتحيط بأسباب النصر، وتقف عند المواقف الإنسانية الرائعة، وتشيد بالبطولات الخارقة التي يظهرها المقاتلون داخل المعارك بعبارة تستمد حركتها من الحدث المنظور، وصورة تعتمد ألوانها من الساحة

القريبة وحكاية تجمع تفاصيلها تركيبة المنظر المعاش. وقد أضفى هذا اللون على قصيدة الحرب بريقاً متميزاً، وحركة موحية، وإحساساً وجدانياً ظلت الأجيال تحمل أقباسه، وتروي روائعه، وتملأ جوانبها وحياتها بفرائد مجده وإبائه.. وعلى الرغم من أن أعداداً كبيرة من الشعراء قد دخلوا التاريخ وهم يروون أحداثه، ويسجلون وقائعه، فإن أسماء أخرى كثيرة شاركت في إحياء هذا الشعر، وقدمت من روائعه ما ظل حياً في ذاكرة التاريخ لكنها لم تقترن بما قالت فجاءت مقطعات كثيرة خلواً من الأسماء اكتفى الرواة والمحدثون بعبارة (قال أحدهم).. أو (قال الشاعر).. أو (قال) وهي ظاهرة ألمت بهذا الفن الشعري وأوشكنا أن نفقد مادة شعرية كبيرة بسبب جهل قائليها.

وقد ترتب على هذا الضياع إغفال جانب واسع من جوانب هذا الباب، لأن الباحثين لا يستشهدون بالشعر غير المنسوب لأسباب تتعلق بصعوبة تحديد المرحلة الشعرية، وبحراجة توثيق الشعر غير المنسوب، ولو أحصينا مجاميع الشعر التي قيلت وهي خالية من الأسماء لتوفرت لدينا مادة جديدة تصلح لتحليلها ودراستها وتوثيق روايتها. وقد أحسن القدامى من المؤرخين عندما وجدوا في هذا الشعر باباً واسعاً من أبواب الإستشهاد وطريقاً صالحاً لتوثيق الأحداث والمعارك بما وضعوه بين يد الباحثين وهم يعرضون لمسيرة معركة أو حركة فتح أو إنهاء ردة، أو إيقاف حركة مناوئة، وعلى النقيض من المؤرخين كان مؤرخو الأدب لا يقفون إلا على المشهور (في الغالب) ولا يعرضون لأمثال هؤلاء الشعراء، ولا يترجمون لحياتهم، أو يختارون لهم ضمن مجاميع الإختيار حتى أوشكنا أن نغفل كتب الأدب عند محاولتنا لدراسة واحد من هؤلاء، ولعل أوضح النماذج لأمثال هؤلاء الشعراء هم: (القعقاع بن عمرو التميمي) و (عاصم ابن عمرو التميمي) و (أبو نجيد) و (أبو مُفَزِّز الأسود بن قطبة) و (هاشم بن عتبة) الذين أرخوا لحروب العراق وخاضوا ميادين القتال، وكتبوا أعز الصفحات، وسجلوا أدق اللحظات الحاسمة لمعارك فاصلة وشاركوا بسيوفهم وجرأتهم وتضحيتهم وشعرهم في تخليد مآثر أيام (أليس) و (أمغيشيا) و (الحيرة)

و (عين التمر) و (دومة الجندل) و (الثني) و (الزميل) و (البويب) و (القادسية) بأيامها الثلاثة (أرماث) و (أغواث) و (عماس) وما تبعها من أيام (جلولاء) و (نهاوند) و (الري) و (جرجان) و (طبرستان) و (أذربيجان) .

إن شعر الفتوح الذي احتفظت به كتب التاريخ وبعض كتب البلدانيات والمغازي والسير يمثل النواة الأولى للشعر الحربي الذي عبر فيه الشعراء عن الحس الوجداني الصادق وهو يتردد على لسان المقاتلين ويعبر عن وجدانهم الحي ويعيش معهم لحظات المجابهة الصادقة ، وقد أبدى فيه الشعراء الفرسان أو المقاتلون ألواناً من المعاني التي تطورت مفاهيمها بتطور صناعة الحرب وتغيرت خصائصها بتغيير أساليب القتال ، بعد أن انتقل العرب من أرض إلى أرض واستبدلوا سلاحاً بسلاح ، وانتهجوا مناهج جديدة تتوافق مع طبيعة الظروف المستجدة ، وقد اكتسبوا خبرة الميدان ، وغيروا طرق المجابهة ، وتعاملوا مع طبيعة الحالة التي أوجبتها سياقات التطور ودواعي الصراع .

وقد إختلطت هذه الصور بوحي ملموس تجلى في حلاوة الإستشهاد واقترن بذكرى نعيم الجنة ، وانساب إلى نفوس المؤمنين قيمة إنسانية عظيمة ، وتضحية بطولية خالدة . فكان حب الموت أقوى من حب الحياة وقدرة الإندفاع للقتال أشد من نزعة التردد ، وعذوبة طعم الإنتصار أعذب من مرارة الهزيمة .

ومثل ما كانت أسباب الخلود تدفعهم إلى الإقدام الواعي وتستحثهم على إسقاط جبروت التسلط والشرك والوثنية ، فإن نزعة الشوق إلى الأرض واستجابة الحنين إلى الوطن والأهل كانت تعتلج في قلوبهم وهم يقفون فوق أرض محررة ، فينزعون عنها غشاء الكفر ، ويبعدون عن أهلها سيطرة الخنوع ، ويعيدون إليهم الوجه الإنساني المشرق . فكان لذكريات الأهل صوت حي في أدب الحرب وكانت لمراجع الصبايا أيام حلوة في قصائدهم وهم يذكرونها في أرض بعيدة فيستلهمون من وفائهم حق الدفاع ، ومن إخلاصهم وجه المقاومة ومن حرصهم قدرة التضحية .

إن هذه الأوليات التي أردت أن أضع الإشارة إليها تضع قاعدة للدراسات الأدبية التي يمكن أن تقدم مادة في هذا الفن الشعري الخالد، وإن هذه الصورة التي حاولت جمع شتاتها في هذه العجالة تعطي الدارسين وجوهاً للمقارنة وهي متشابهة وتحدد لهم الإتجاهات التي اعتمدها الشعراء المعاصرون وهم يقفون أمام المعركة الحاسمة التي امتد إليها التاريخ ليشد بين مفاصلها وقد تكررت بكثير من الوجوه، وتقاربت في العديد من النوازع، حتى أوشكنا أن نقرأ أيام القادسية الأولى في وجوه الرجال الأشداء الذين استلهموا العزيمة من أجدادهم الميامين ونتلمس نفحات الشعر في قصائد الشعراء المؤمنين الذين وقفوا على مقربة من الخطوط الأمامية أو الذين شاركوا في أشد الملاحم ضراوة وخرجوا وهم يحملون الراية كما حملها القدامى ويكتبون الملحمة كما كتبها الفرسان الغر.

الحرب ظاهرة لها خصائصها وانفعالاتها، ولها حوافزها وتطلعاتها تستثير في النفس عوامل التوثيب، وتبعث في أوصال الإنسان الإحساس بالخوف والرهبة من جهة وحب الإنتصار من جهة أخرى. وقد أدرك الإنسان هذه الظاهرة وتعامل معها وفق ما كانت تمليه إرادته، وتحدده ذاته، وهي في كل حالة تلازم لوناً من المشاعر، وتعبر عن جانب من جوانب التداخل النفسي، والشعر في حالاته المختلفة واجهة من هذه الواجهات، وصدى انفعالي حاد لما يعتور الإنسان من هذه الحالات، وقد أدرك الإنسان منذ مراحله الأولى هذا الإحساس فاستجاب له، وتأثر به، وخضع لعوامله الدافعة، وأسبابه الحادة. وقد قدم الشعراء وعند مختلف الأمم إنتاجاً أدبياً وفيراً عبروا فيه عن هذه المشاعر، وحددوا الأساليب الفنية التي اختاروا فيها ألفاظهم وصورهم وتراكيبهم وقوالبهم الدلالية، مستمدين المضامين المعنوية من وجدانهم القومي ومعبرين عن التطلع المشروع الذي تجسدت فيه نوازع الإنطلاق والتحرر والمقاومة والحرب في كل أشكالها ومنطلقاتها كانت عاملاً من عوامل إذكاء الشعر وتأجيج أواره، وخلق الإبداع المتمثل في تسجيل بطولات الرجال، وتقديم النماذج المتقدمة التي أظهرت في صولاتها مواقف مشهودة وأعمالاً جليلة، وتضحيات نادرة. فهي في حقيقتها

دافع مباشر من دوافع التحرك والإنبعاث، كما أنها ظلت عاملاً من عوامل الإستلهام المباشر للمواقف الجريئة التي سجلتها الأمة عبر تاريخها الطويل، وبهذه الخصيصة يحقق (شعر الحرب) مرحلة التواصل التاريخي الحي ويطوي مراحل التراخي التي عاشت في ضمير الأمة، وهي غير قادرة على تجاوزها وتبعث في نفوس الأبناء أسباب التوجه لاختراق حجب المواقف المتخاذلة التي علقت ببعض المفاصل، والأمة تشعر أن هذه المواقف هي ليست حالتها الطبيعية لأن المسار النضالي لها، والإهتداء الواعي بمبادئها ورسالتها كانت تتحقق في حالة الإستمرار وعندما تكون أسباب القيادة قد وضعت في أيادي أبنائها الحقيقيين. نشعر الحرب هنا كان حلقة من حلقات التواصل لاختزال الفترات التاريخية وهو ينقل الحالات الإنسانية الرائدة ويستمد أصوله من موحيات الإقتدار المتدفق في تراتيل الشعراء وأحاسيس المقاتلين منهم وقد حفلت أشعارهم بالصور النادرة والأحداث الفريدة والحالات الإنسانية الصادقة واقترنت كثرة فرائد هذا الضرب الشعري بكثرة التحديات التي كانت تتعرض إليها الأمم، أو تجابهها وهي في حالات النهوض والتقدم لأن فن الشعر الحربي وسيلة أخرى من وسائل الإشعاع، ووعاء نابض من أوعية القيم السامية التي تحملها هذه الأمم وهي تندفع لترد عنها أعباء الهموم التي حاولت أن تستبد بها وتحول دون استمرارها في مسيرة الحياة. وقد إلتفت العرب إلى هذا الجانب وخاصة من أرخ للشعر العربي ودرس أحوال الشعراء وقدم مجموعة من الضوابط والأحكام والمقاييس لتقويم الشعر وتوثيقه فقال ابن سلام في طبقات فحول الشعراء (القسم الأول ـ ٢٥٩) وبالطائف شعر وليس بالكثير وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء، نحو حرب الأوس والخزرج، أو قومٌ يُغيرون ويُغار عليهم والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة (ما يستثار من شرور بسبب العداوة) ولم يحاربوا. وذلك الذي قلل شعر عمان وأهل الطائف في طرَف.

فابن سلام وضع قاعدة لكثرة الشعر، واستخلص قاعدة لقوله، وسبباً لاستثارة دواعيه، وهي مسألة ظلت قائمة في العصور التي تلت، لأن شعر الحرب

لا يقف علي وصفها ، ولا ينتهي عند حدود مظاهرها الواضحة ، وإنما يتجاوزها للتعبير عن كل ملمح من ملامحها ، ويتسع ليشمل كل طرف من أطرافها ويبتعد ليصور كل حالة من حالاتها ، فشعر الحرب ساحة كبيرة يتحرك عليها الشعراء بحرية واسعة ويأخذون من دائرتها ما يغني عطاءهم الشعري ويثري مادتهم الأدبية ، ويضفي على معانيهم من الألوان والأحاسيس ما يجعلها زاهية وحادة في آن واحد . وتستلهم من الأيام ، وصور الأبطال وتضحيات الرجال وتوثيب العزائم ما يمنحهم قدرة الإمتداد والتوسع في ميادين رحبة ، تتعزز في صورة البطل الفذ ، وتتجسد في إرادة المقاتل الشجاع وتتمثل في مصاولة المؤمن المتمكن وهي حالات قائمة في الفنون الشعرية التي يستوعبها المحيط الشعري لأدب الحرب ، وقد زخر بالأيام الخالدة ، والمآثر المحمودة ، والمواقف المشهودة ، وكل ما تجاوز مرحلة ، أو غادر عصراً إستلهم منه مواقفه ، واستل من تراثه أيامه ، واستشهد على محامده بأعمال رجاله ، فكانت سير الأبطال تتداول في قصائد الشعراء ، وتضحياتهم تمر عبر القوافل الطويلة من الرجال وكان القوم يجدون في هذا الشعر هوية متميزة ، وتاريخاً قومياً يستأثر به ويفاخر بأمجاده كلما وجدوا في ذلك حاجة ، وكل ما تشابكت في سماء الزمن أصابع التردد والتخاذل والتناقض ولعل المجاميع الكبيرة التي اختارها الرواة الأوائل من قصائد الشعراء ومقطعاتهم كانت ترسم هذا الإتجاه ، وتسجل الحقبة التاريخية التي عبروا فيها عن القنوات الواعية التي تمر عبرها مشاعر الأمة وتقرأ في إطار حركتها وقائع الأحداث ، وتوجه في مسارها تطلعات المستقبل الحضاري والفكري والتربوي .

وقد اقترن شعر الحرب بالخصائص الذاتية التي عاشت في وجدان الأمة وهو يسجل ضروب الشجاعة ، وأصناف التضحية وصفات البسالة والجرأة والإقدام ومثل ما اقترن شعر الحرب بعوامل الإستثارة ، ونزعات التوثيب ، وأسباب التحدي ، فإن كتب الحماسة التي بقيت تشغل مساحات كبيرة في ديوان الأدب العربي كانت تقترن بفترات التراخي ، والتفكك ويجد فيها مؤلفوها عاملاً حاسماً من عوامل تقوية العزائم ، واستنهاض الهمم ، وتربية الأجيال تربية سليمة ليكونوا قادرين

على مواجهة الأحداث الكبيرة التي تلم بالأمة، وتحاول الأخذ بخناقها وهي تتعرض لحملات التحدي، وتضطر تحت ظروف التمزق أن تدافع عن وجودها وكيانها ووحدتها والذين انبروا لهذه المهمة من أصحاب الحماسات كانوا من المفكرين الذين شعروا بأهمية هذا الضرب التاريخي من التأليف، فأبو تمام الذي ظل يحمل في أعماقه جذوة الوحدة العربية الممتدة من الشام إلى بغداد والفسطاط وفي كل موضع من هذه المواضع أهله وأحباؤه، وأبو تمام الذي كانت مراثيه للقادة ومدائحه لهم تأتي من خلال أحاسيسه الأصيلة، وهي تتجسد في صور المديح وتتدفق في معاني الرثاء لأن الشاعر كان يستذكر أمجادهم ويستلهم من أيام العرب ما يؤكد إستثارة الهمم في نفوس المقاتلين، وغالباً ما كانت قصائده حافلة بذكر البطل والفتى كان أبو تمام يدرك أهمية شعر الحماسة وفي فترات بدأت حركات التمرد تشتد، وصيحات التمزق تعلو وجه الدولة العربية، وعناصر الشغب تمد نفوذها الواسع لتقليص رقعة الأمة وقهر إنسانها وتحجيم حركتها التاريخية وقد شهد عصره تمرد (بابك الخرمي) و (الافشين) وبداية حركات أخرى كان حقدها الشعوبي يستمر وأعمالها التخريبية تتسع وأمام الظواهر التي بدأ المجتمع العربي يواجهها مواجهة فعلية، وفي مجتمع تحركت في داخله أسباب التشكيك وعوامل التأويل الباطني، وانتشار الدعوات المضللة تحت أغطية الدين وفي حدود واجهات حب آل البيت (عليهم السلام).

كان أبو تمام الطائي يعد لوضع نهج تربوي، ويسعى من أجل إحداث نظرية أدبية، وإقامة سياج من التحصين الذاتي للحفاظ على الشخصية العربية والتمسك بالخصال الحميدة، والتوجه إلى غرس القيم العربية التي عاشت في الوجدان العربي خلقاً قويماً، وصفات كريمة، وإعداداً تربوياً رفيعاً. ويختار لكل حالة ما يوفق فيها بين الذوق العربي، والإستعداد الأدبي المناسب، ولم يقتصر أبو تمام على وضع كتاب واحد في هذا المجال وإنما جمع حماستين كانت الأولى حماسته الكبرى التي وصفت بهذه الصفة تمييزاً لها عن الحماسة الأخرى التي سميت الوحشيات وهي الحماسة الصغرى ونشرها وعلق عليها وحققها عبد العزيز الميمني

الراجكوتي (رحمه الله).

ويبدو أن توجه أبي تمام لهذا الفن الشعري، وإيمانه بالمعاني الكريمة التي حملها شعر الحرب، والفنون الشعرية التي صاحبته، قد حملته على وضع الكتاب الثاني (الحماسة الصغرى) إستكمالاً للمهمة القومية ومتابعة للفكرة التي آمن بها في حياته. وهذا يسقط الفكرة التي ظلت عالقة في أذهان الأجيال التي ربطت بين تأليف كتاب الحماسة وعودته من بلاد خراسان بعد أن قصد عبد الله بن طاهر وهو يريد العراق، وعند دخوله العراق اغتنمه أبو الوفاء بن سلمة فأنزله وأكرمه، وتستمر الرواية التي اقتصها التبريزي في شرح الحماسة وهو ينفرد بها، حتى يقول: فأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم قطع الطريق ومنع السابلة، فغم أبا تمام ذلك وأحرج صدره على حين سر ذلك مضيفه أبو الوفاء، فأقبل على أبي تمام وقال له: وطن نفسك على هذا المقام فإن هذا الثلج لا ينحسر إلا بعد زمان، وأحضره خزانة كتبه فطالعها واشتغل بها. وتظل هذه الرواية هي الحل المقبول عند النقاد القدامى والمحدثين ويبقى عنصر (الصدفة) هو الذي حرك (أبا تمام) وحمله على وضع هذين الكتابين اللذين ساهما في رسم منهج أدبي عريق في وضع كتب الإختيار.. وتموت في خضم هذا الحديث قدرة الشاعر الفذ وتتبدد صورة التطلع الفكري وتنتهي أفكاره الخيرة التي حاول التعبير عنها من خلال هذه التآليف الرائدة، لأنها جاءت عن طريق (الصدفة). والغريب أن مثل هذين الكتابين اللذين أرخا لأوسع مجموعة من شعر الحرب (الحماسة بما فيها من معان) يبرر تأليفهما بطريقة عفوية تبتعد عن المنهجية، ولا تتصل بأية فكرة مسبقة بمثل هذا العمل الموجه.

وأبو تمام لم يقف عند هذا الحد وإنما كان حريصاً على تجميع الشعر العربي الذي ما انتهى إلينا مما قالت العرب إلا أقلّه، ولو جاء وافراً لجاء علم وشعر كثير كما يقول ابن سلاّم نقلاً عن أبي عمرو بن العلاء، فالشعر عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون، ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لشعراء كثيرين عرفوا بكثرة

الشعر وشهدوا وقدموا.. وأبو تمام الذي حرص على اختيار قصائد الحماسة كان حريصاً على لم أشتات الشعر وتجميع أوصاله المتناثرة، فعمد إلى جمع (مختار أشعار القبائل) وقد وقف عليه صاحب الخزانة، وانصرف إلى وضع كتاب عن (فحول الشعراء) وهي محاولات لا تخرج عن الإتجاه الذي سار فيه أو حرص على أدائه، أو فكر في تخطيط مسالكه، وهذه مسألة لا يمكن تفصيلها في مثل هذا المجال لأن دراسة مضامين هذه التآليف وتحليل الدوافع التي تقف وراءها، والتأمل في إختيار الشعراء والأغراض والمعاني ووضع الضوابط والمعايير تحدد الطريق العلمي والمنهج الفكري الذي أخذ به هذا المفكر العربي.

وفي الربع الأخير من القرن الثالث الهجري يقتفي شاعر آخر من قبيلة (طي) هو البحتري خطوات الشاعر المبدع، والمخطط الرائد في وضع كتاب في الحماسة يتفق من حيث الفكرة مع كتاب حماسة أبي تمام ولكنه يختلف من حيث المنهج ويفترق من حيث التناول، فهو كتاب اختيارات اعتمدت المعاني الأخلاقية والجوانب السلوكية والخصال المحمودة، وما يناقضها، وقد غلب عليه جانب الزهد والتقوى، واندفع مستجيباً إلى معطيات العصر التي بدأت تتعاظم في عصر اشتدت به المطامع وتعالت صيحات الغدر، وحاولت القوى غير العربية أن تضغط بأصابعها على الوجه العربي لتمسح أصالته، وتزيح إشراقته وقد إستمر الصراع على أشده بين العرب وغيرهم، وقد شهد قذرة الدولة وهي تسحق جحافل الزنج وأتباع البابكية.

وتشهد بداية أرتال جديدة من أرتال القرامطة.. هنا كان لا بد للبحتري من اختيار الطريق الذي اختاره أبو تمام ليحفظ مسيرته من حيث الفكرة وليس من حيث المنهج، الدوام والإستمرار، وليترك للأجيال العربية مرشداً تظل ملتزمة به وحاملة لواءه، ومستمدة من نماذجه أسباب التقدم، وقيم المباهاة، ومثل الإلتزام التي يجد فيها طريق الحفاظ على رسالة الأمة وقد وجد في (شعر الحرب) بغيته وكانت شواهده في حماسته شواهد خلقية رائدة، ومعاني سلوكية رائعة، عاشت دلالته في وجدان الأجيال آماداً طويلة وهي ما تزال ينبوعاً ثراً

ويشق المؤلفون هذا الطريق الأدبي الرائد وهم يستقرئون شعر الحرب ويرجعون إلى دواوين الشعراء ليلتقطوا منها ما يتفق مع المعاني الكبيرة التي وضعها المبدع الأول (أبو تمام) ولكنها كانت تختلف من حيث الإختيار الذي ظلت شخصية (المختار) هي المقياس الحقيقي والمعيار الثقافي المناسب وينبري الخالديان (أبو بكر محمد المتوفي سنة ٣٨٠) و (أبو عثمان سعيد المتوفي ٣٩٠ - ٣٩١) إبنا هاشم ليضعا كتاباً في شعر المحدثين ومثلهما صنع أبو هلال العسكري المتوفي سنة ٣٩٥ وابن فارس وعبد الله بن محمد العبدلكاني المتوفي سنة ٤٣١، وابن الشجري المتوفي سنة ٥٤٢ وهي حماسة اقترنت بأحداث كبيرة تعرضت لها الأمة، فجاءت أبوابها مقترنة بباب الشدة والشجاعة واللوم والعتاب والمراثي والمديح والهجاء والأدب، وينهد صدر الدين بن أبي الفرج بن الحسين البصري المتوفي سنة ٦٥٩ أي بعد تعرض بغداد لأشرس هجمة، واغتيال عروبتها واستباحة محارمها ومحاولة إسقاط دورها التاريخي، ينهد هذا الرجل لوضع حماسة عدّت في حساب الحماسات المشهورة وتذهب بعض الأخبار إلى أن مؤلفها قتل على يد أتباع هولاكو مع من قتل مع الملك الناصر، وهي إشارة تحدد لنا الدور الذي قدمه هذا المؤلف وهو يرى جحافل هولاكو تقترب، وأرتاله الصفراء تحرق الأرض والإنسان، وأوشك أن يطبق بوبائه على المعالم الإنسانية التي قدمت للعالم أجل ما وصلت إليه.. وتبقى هذه المختارات الشعرية وهي تستمد أصولها من شعر الحرب تغني حركة الإحياء العربي بأسباب البقاء، وترفد مسيرة النضال والتقدم بعوامل الوفاء للقيم الإنسانية الكريمة التي عبر من خلالها الشعراء عن إحساسهم بالدور البطولي الذي اؤتمنوا عليه..

فالحرب منذ أن عرفها الإنسان، واتخذها وسيلة من وسائله للدفاع عن نفسه أو الإعتداء على الآخرين - كانت مثار حديث المشاركين فيها، وموضع استثارة لمن تهمهم نتائجها، لأن الحديث عنها لا يقتصر على جانب واحد، ولا يقف عند مسألة منفصلة عن ظروفها أو أسبابها أو نتائجها، أو ما تؤديه من

عوامل غير مباشرة تظل عناصرها ملازمة، وتبقى أواصرها مشدودة، وإذا كان العرب من الأمم التي وجدت في الحرب سبباً من أسباب بقائها والدفاع عن وجودها فإن حالتها بقيت قائمة، وتقاليدها ظلت معروفة في كثير من ضروب الحياة وانعكست آثارها سلباً أو إيجاباً في وجوه النشاط الاجتماعي والثقافي والفكري، ووجهت كثيراً من أنماط سلوك أبنائها الوجهة التي تتناسب مع المرحلة التاريخية التي تخوضها وتتفق مع المطامح المشروعة التي تتوق إليها وتسعى إلى تحقيقها عند مقطعات شعرية موثقة، كشفت عن الدقائق التي أغفلتها الرواية، وعبرت عن الحس الإنساني الذي كان يعتمل في نفوس المقاتلين، وصاغت نوازع الإيمان المطلق بالجهاد والتضحية، واستذكرت الأحاديث التي كان يتناولها المقاتلون، وطبيعة الروح القتالية التي يتمتعون بها، وأساليب المصاولة، وإعداد الجيوش، وتفاصيل الخطط الحربية وتوزيع القيادات وأشكال التوجيه والتوعية التي تبعث في النفوس الحماس وترسخ أسباب الإندفاع وتشد عوامل المقاومة إلى جانب ما كانوا يفخرون به من أيام، ويمدحون به من أوصاف، ويستخدمونه من وسائل لإسعاف قدرة الخصوم، ونزع مقومات الثقة، ومن الطبيعي أن يكون هذا الضرب الشعري لوناً غير مألوف، أو رافداً لم تتهيأ له الأساليب الفنية المألوفة في الهيكل الشعري، وربما كان هذا السبب من الأسباب التي دفعت رواة الأدب والمؤرخين لحركته إلى إبعادهم عن دائرة الإستشهاد، وقد أدى ذلك إلى إسقاط هذه المجاميع من الشعراء الذين مارسوا الحرب وعبروا عن دقائق أحداثها وتفاصيل مجرياتها، وفصل الإطار الفني أو التقليدي عن حلقة الشعر العربي الذي لازمت التعبير الذاتي لمسيرة الأمة، وما احتواه هذ الشعر من صور واقعية ولمسات إنسانية حية عاشت في وجدان المقاتلين وهم يقفون وجهاً لوجه مع الحدث، وينقلون الموقف البطولي من ميدان المعركة.. هذا الشعر كانت له لغته المستوحاة وكانت له أساليبه المستنبطة من الواقع الشعري الذي فرضته الأحداث الحادة والوقائع الحاسمة، ولم تفرد لهذا الشعر دراسة خاصة، على الرغم من أنه شعر جديد في صياغته وطريقته ومباشرته

ودلالات ألفاظه التي اكتسبها من النمط الجديد للحياة الإسلامية وقد اتسمت بالبساطة وعدم التعقيد والإبتعاد عن الغرابة وتناول الحدث بأقصر الأساليب والتأكيد على ذكر المواقع، والصدق في التعبير عن التضحية والجرأة في مجابهة الخصوم، والإشادة بمآثر المعارك ولم ينسى هؤلاء الشعراء وهم يتحدثون عن مفردات الحياة اليومية للمعركة عن الثقة العظيمة والنصر الكبير الذي يستمدونه من الله تعالى وقوته، والعزم الذي يعينهم على دحر هجمات المشركين والكافرين الذين لا يكون مصيرهم إلا النار وهنا كان شعر الحرب في هذا التوجه هو شعر العقيدة الراسخة التي اقترن بها والتزم بأداء رسالتها، فتواصلت في قنواته صور الجهاد، وامتدت في زهو قوافيه خفقات القلوب المؤمنة وهي تنتصر لقضية الحق، وتستذكر في دفقات إحساسه مآثر الرجال الميامين الذي طرزوا أسفار التاريخ بكل ما يدعو إلى الإعتزاز والإباء.. وهذا ما بقي واضحاً ومتميزاً في الشعر الحربي مهما تباينت دواعيه، واختلفت أسبابه لأن الإحساس بالتعبير عن الحالة الصعبة التي يمر بها المقاتل هي الحالة التي تظل ملازمة للإنسان في كل المراحل وأن الصورة التي يراها هذا المقاتل ـ على لسان الشاعر ـ هي الصورة التي تمر أمام عيون المقاتلين فوق ثرى كل معركة عادلة، وعند كل خندق من خنادق الصمود والمجابهة والإستعداد...

وللحرب عند العرب ـ كما عند غيرهم من الأمم ـ دواع تستثير هممهم وتوقد جذوة إحساسهم، وتدفعهم إلى الوقوف أمام كل محاولة من محاولات التحجيم أو الاحتواء التي تحيق بهم، وكانت دواعي الحرب هذه تأخذ أبعادها في صور شتى، وتتجسد في حالات مختلفة، يتصل بعضها بطبيعة الحياة، ويتجاوز بعضها الآخر حتى يصل إلى النظام القبلي والبناء الإجتماعي والتكوين الأسري وفي كل حالة من هذه الحالات تنبعث عوامل وتستثار أسباب وكثيراً ما كانت هذه الأسباب تتوحد لتصب في مجر المسببات الحادة في تأجيج نارها، وإيقاد عواملها وإلهاب ما يدعو إلى استمرارها.. وقد ساهمت (الموثبات) وهي القصائد التي قيلت لاستثارة الرجال في إذكاء نوازع الشعراء وإستثارة الدواعي والأسباب،

وكان لهذا الضرب الشعري الذي يعد من أكثر فنون الشعر توهجاً دواع توجبها حالات المواجهة، وتستديمها ظروف الإحتدام ويتحكم فيها الإحساس النفسي فيتحول إلى طاقة متحركة وتستجيب لها مشاعـر التـواصـل فتتـوجه الوجهـة المطلوبة، وتتهيء فرص الإستثارة وتنشط أسباب الإحساس بأهمية الحدث، وبقدر ما تكون الإستثارة متوافقة من حيث اختيار الجوانب العاطفية، أو التوجه إلى مخاطبة الدواعي المثيرة عند الإنسان تكون الإستجابة الحاصلة أقوى وأشد ويكون رد الفعل أقصى وأمد.. لأن أسلوب المخاطبة وانتقاء الألفاظ ودراسة الوضع النفسي وقدرة التحكم في طريقة المعالجة تؤدي أدوارها المثيرة في التحكم بقدرة التوجيه وانتزاع الإحساس المناسب وتحشيد القوى الكامنة في النفوس ووضعها في المسار المطلوب وتوظيفها في مجال الحدث المقرر، والإنسان الذي عرف أساليب الحياة، وخبر وطأة الظروف واستجاب لنوازع المفاضلة في كثير من الحالات، ووقف على القيم الأساسية التي تحدد موقعه في كل المجتمعات، كان على بصيرة تامة بهذا المسار الطويل الذي قدم له حصيلة غنية من التجارب وأغناه بأسباب كثيرة من أسباب التحرك.

والعرب الذين ساهموا مثل بقية الأمم في التكوين الحضاري وقدموا عبر مراحلهم التاريخية الطويلة ثمرات ناضجة لرحلة الإنسان.. وشاركوا في بناء أقدم الحضارات عراقة وأصولاً، واستوعبوا دورهم التاريخي والإنساني، ولمسوا ـ وهم يخوضون غمار الحياة ـ ألواناً من المواجهة وأشكالاً من التحدي، أهلتهم هذه التجربة الطويلة إلى أن يعرفوا نوازع الإنسان الحية، ويدركوا مقدار الإستجابة لكل قيمة من قيمه، ويستبطنوا دواخله التي لا يمكن أن تنفصل عن أي تكوين من تكويناته وإذا كان احتدام الصراع ظاهرة شهدها هذا الإنسان فإن الأسباب التي تكمن في داخله كانت خاضعة وبأي شكل من الأشكال لصور هذا الإحتدام، بعد أن تمكنت موضوعاتها في نفسه، وتحركت دواعيها في سلوكه، ولما كان الشعر وجهاً من وجوه التعبير، وحالة من حالات الإستجابة فقد استطاع هذا الإنسان أن يوفق في استخدامه لما يراه مناسباً ولما يتحقق في ذاته

من إحتدامات.

والتوثيب في الشعر العربي حالة حية أحسن استخدامها الشعراء العرب واستطاعوا الوصول إلى تهيئة الأجواء المناسبة عندما يجدون أنفسهم بحاجة إلى توحد، ويشعرون بالخطر يتهددهم، وبالإعتداء يقع عليهم، وكانت الموثبات من القصائد المصاحبة لكثير من الأحداث، والمواكب لإهتزاز المشاعر القومية، وقد وجدت فيها النساء إلهاباً حماسياً لدواخل الرجال، واستثارة واعية لعزائمهم وخاصة في حالات المواجهة وعند احتدام المعارك، وقد أخذت مساحتها الواسعة في ميدان الشعر، بعد أن وجدت الحماسة طريقها إلى كل نفس وتحققت في كل ذات، واستقطبت أغراضاً لها صلتها في الأحجام الوجدانية الواعية. وبقدر ما كان التوثيب حالة للإستثارة، ومدعاة للتحفز فإنه كان ينطلق من إيمان الموثبين بتفاهة الحياة بعد أن يذل الإنسان وبضآلة الإستمرار في الحياة في حالة التراجع والتخاذل والإنكسار، وعندها تفقد الحياة طعمها، وتموت في دواخل الإنسان أسباب التطلع، وتتيه في حشرجات اليأس بوارق المواجهة والتحدي، وفي كل لون من ألوان التوثيب ترتفع صيحات الإستهجان من مواقف التخاذل وتعلو نداءات التعبير عن حالات التردي في أوقات التردد أو الإحجام أو التنصل عن المشاركة الفاعلة في الدفاع عن الحق.

وتتوالى صور التعبير التي تجد فيها النساء مساحة كبيرة من الحديث وميداناً واسعاً من ميادين الإستخدام المناسب للألفاظ الموحية والصور المثيرة والعبارات الحادة، لأنهن يمثلن النقطة المتحركة في إطار الحماية، والبداية المطلوبة في استثارة الرعاية. وعلى ألسنتهن تتوارد دلالات الألفاظ التي تشد المقاتلين إلى الثبات، وفي الصور التي يقدمنها تتحكم إرادة المخاطبة والتهكم بعد أن أصبحت المرأة قريبة من الأحداث، موصولة بالإطار العام الذي يتحرك فيه وعنصراً حاسماً في بعضها، أو طرفاً مؤثراً في بعضها الآخر وقد استطاعت من خلال حسها المرهف، وتمكنها من معرفة النتائج أن تثير الحماس وتلهب المشاعر وكانت قصائد التوثيب من القصائد التي تركت أثراً متميزاً في شعر الحرب، لأنها حددت بإشارات

حادة طبيعة المواقف القتالية ووجهت بعبارات مؤثرة دفة القتال، وقد دفعتها هذه المواقف إلى أن تأخذ دورها الخطر ومشاركتها الفاعلة في بعض الأحداث التي ألمت بالأمة، وهي تعرض رأيها بشكل صائب وتقول كلمتها بهيئة قصيدة شعرية، أو قطعة قصيرة، أو أبيات مفردة، وقد امتلكت زمام المبادرة في تحفيز شعور المروءة، وبعث عناصر المقاومة، وتنشيط أسباب التواصل في القتال، وإيقاظ مظاهر الحس القومي الرافض لكل وصاية أو احتواء. وكانت أصداء هذه القصائد تمثل الأصوات الضخمة التي تدق في دروب استعادة الحق، واسترجاع الكرامة وإيقاف زحف القوى الغادرة، وترسم حدود الموقف الرافض لكل محاولة من محاولات تذويب القضايا المصيرية، وقد كشفت المرأة في هذا الجانب ـ عبر سلسلة نضالها الطويل ـ عن مشاركتها الفاعلة والمؤثرة في الوصول إلى مواطن الشعور عند الرجال، ومكامن التحرك في ذاتهم وبؤر الإستثارة في وجدانهم، لترفع في قصائدها أسباب الإعتزاز ودوافع الثأر للكرامة ونوازع الشجاعة عند المعارك، كما أكدت رفضها لكل صيغة من صيغ الخنوع أو محاولة من محاولات القهر لإرادتها، وهي في كل مرة من هذه المرات تتحمل أعباء التوجيه، وتسعى من أجل استعادة الحق المهدور والكرامة المستباحة وقد تركت لنا (الشموس) وهي تسجل رائعتها المشهورة أطيب الذكر وأخلد الأثر وقد افتتحتها ببعض الأبيات حتى قالت:

فموتوا كراماً أو أميتوا عدوكم ... ودبوا لنار الحرب بالحطب الجزل
ولو أننا كنا رجالاً وكنتم ... نساءً لكنا لا نقر بذا الفعل
ولا تجزعوا في الحرب يا قوم إنها ... تقوم بأقوام كرام على رجل

ومثلها صنعت (خويلة) عجوز بني رئام و (ليلى بنت لكيز) و (كبشة) أخت عمرو بن معد يكرب وغيرهن ممن شاركن في هذا الفن الحربي، فأصابت كلماتهن قلوب الرجال، وتركت آثارها الحاسمة في سلوكهم ومواقفهم فكانت انتفاضة الشرف وصورة استفزاز المشاعر وإلهاب حماس الرجولة، وبقيت هذه القصائد وما أثارته من مشاعر تمثل النموذج الملتهب الذي يملأ النفوس بكل ما

يدعو إلى الإندفاع دفاعاً عن الحمى وذوداً عن الحق واستبسالاً في إسترجاع المجد .

وبقي صوت الشاعر في التوثيب واستثارته في الحريض شاهداً متميزاً وصوتاً مرتفعاً ، وإذا كانت المرأة الشاعرة تؤدي دورها في قصائد التوثيب وتتحرك في مجال دائرة الإحساس التي عرفت خوافيه ، فإن الرجال قد طرقوا هذا الباب ودخلوا هذا الميدان بقصائد (موثبة) مستخدمين ما يتناسب مع دورهم الرجولي ومدركين لما يمكن أن يضع قصائدهم في الموضع الملائم، ولكنهم ظلوا غير قادرين على استيعاب الحالة القتالية التي توصلت إليها المرأة وهي تضرب بألفاظها أوتاراً صاخبة الرنين وتختار ألواناً شديدة التأثير في مجال المفاضلة .

وما يزال باب هذا الفن الشعري من الأبواب الجديدة التي لم يكتب عنها إلا القليل ، ولم تفرد لمجاميعها إلا الفصول اليسيرة بعد أن ظلت تأثيراتها في حركة الشعر تخترق الحجب ، وتستثير المواقف ، وتهيء العزائم حتى يومنا هذا وإذا كانت الدراسات قد أفردت لها (رسالة ماجستير) فإنني ما زلت أعتقد أن البحث متسع لتقديم تحليلات أخرى لهذا الغرض الذي ظل يوقد جذوة الحس القومي ، ويوزع في نفوس الناشئة أسباب الحرص على القيم الكريمة والمثل النبيلة لأنه يصيب جوهرها في معالجته ويستثير كوامنها في تعرضه ويتناول ما دق من أجزائها في تعبير دلالته.

وإذا كان الشعر العربي قد أعطى هذا الجانب مساحته في قصيدة الشعر فإن المضامين الإنسانية الأخرى كانت تأخذ مساحة أخرى من المساحات الفسيحة التي زخر بها هذا الضرب الفني فكانت قناعة الإستشهاد الراسخة والإستعداد للتضحية والاستمرار في دفع ضريبة الدم صوتاً للشرف واقتناعاً بتحقيق السيادة كانت من القيم الخيرة التي دافع عنها المقاتلون وعبر عنها الشعراء من أبناء هذه الأمة ، وحرصوا على تحقيقها في كل مجال من مجالات الحياة. وهي قيم أصيلة وموروثة ومثل إنسانية إستمدت قدرتها من نفوس الأبناء البررة وأكدت

حقيقتها في النماذج الشعرية التي امتلأت بها كتب الإختيار ودواوين الشعراء وعبر العصور الطويلة وخلال المعارك الطاحنة، وفي ظل المجابهات الحادة التي عاشت في نفوس الأجيال، وأصبح الإستشهاد مدعاة للفخر، ومثاراً للإعتزاز وموقفاً بطولياً من مواقف الشجاعة والإنتصار، وقد دفعهم هذا إلى حمل نفوسهم على المكاره فركبوا الموت خشية العار واستطابوا الموت عند المنازلة وكان شعارهم:

إذا ما رأينا الموت لم نلف عنده هجاجاً ولم نهرب ولم نتفرق
ولكننا لا نأتيه حتى نديثه بأسيافنا من بين ماش ومعنق

وفي التضحية التي عرفتها ساحات المعارك نماذج متقدمة تزاحمت في تقديمها قوافل الرجال وتسابقت إلى الوصول إليها مواكب المقاتلين وهم يردون مناهل الإستشهاد، ويدفعون النفوس رخيصة إرضاءً لعظمة المبادىء، ووفاءً لسماحة العقيدة الموحدة. وتبقى صور الرجال الأفذاذ الذين استرخصوا الحياة لواءً خفاقاً من ألوية العز والإباء وهي تتحرك في دواخل المضامين الشعرية وتزهو في نماذج الشعراء وهم يعلمون أن التضحية التي آمنوا بها وجه من وجوه المجد وأن صداها يخترق الزمن، ويتحدث إلى الأجيال، وإنهم يتركون مآثر تحمد، ومكارم تخلد، وأن حياتهم الكريمة التي قدموها قرباناً لتراب الأرض تسجل الخطوات المحمودة التي آمنوا بها وقدسوها وعاشوا من أجلها، وأنها بقيت في وجودهم حساً متميزاً ووجوداً إنسانياً حياً.. إن إيمانهم بهذه القيم ووفاءهم لهذه المبادىء جعلهم أكثر اندفاعاً في القتال، ويظل رمز عبد الله بن رواحة هو الإطار العام الذي تجاوبت في أعماقه نفوس المؤمنين، وانسابت في معانيه أحاديث الرجال وهم يجابهون الموت، ويقفون وجهاً لوجه أمام أحداثه الجسام.

يا نفس إن لم تقتلي تموتي إن تسلمي اليوم فلن تموتي
أو تبتلي فطال ما عوفيت هذي حياض الموت قد خليت
وما تمنيت فقد أعطيت

وهي أصداء لأحاديث الشعراء الفرسان الذين لا تخيفهم الحتوف لأنهم آمنوا

بالمنايا وأن للنفس حيناً تحين فيه، وأجلاً تنتهي عنده فتمادحوا في الموت في ظل الرماح، وتفاخروا بالقتل عند اشتداد المعارك، وبقيت جذوة هذه التضحية وهاجة في سجل الأمة وهي تمد الأجيال بعطائها الخير، وتواصل مسيرتها وقد حاول الشعراء أن يبدعوا في تصوير هذه الحالات ويقدموا وهم يقفون أمام تيارها تجاربهم وجرأتهم وثباتهم حتى أوشكنا أن نقرأ في صفحاتهم صوراً متراصة من التضحية، وأسفاراً متتالية من الصدق في العقيدة، وأوجهاً متتابعة من أوجه الإقتدار البطولي، وقد حفظت لنا أيام العرب بحروبها الطويلة والقصيرة أكداساً متراكمة من شعر السير ومجاميع حافلة من قصائد الشعراء الذين خلدوا هذه الأيام وتابعوا أحداثها وتمثلوا حقائقها المباشرة. وبقي هذا الشعر يطوي في حديث الأيام ويفسر في ضوء الوقائع وتنتزع منه بعض الظواهر لتكشف عن حالة من حالاته، وبقي معه الفن الشعري الأصيل الذي عاش في نواته، واستقر في ذاته وحامت حوله كثير من مستحدثات التحرك اليومي لكل حادثة أو واقعة.

وقد ظهرت في الفترة الأخيرة دراسات جادة في شعر الأيام وقفت عند تحليل كثير من جوانبها، وانسلخت هذه الدراسات على المواقف التقليدية الجامدة التي إنحصرت في إطار المألوف من الأحكام، والموروث من التفاسير، ولكن هذه الدراسات وإن كانت فاتحة عهد جديد في ميدان الشعر في هذا العصر - فإنها فتحت الآفاق، ووطدت السبل، وهيأت الوسائل التي يمكن استخدامها في إعادة التقويم. ولا بد أن تكون معبراً جديداً لتراث شعر حربي أصيل، وجسراً ممهداً لقراءة جادة لمفرداته التي حملت من المضامين ما يقدم تحليلاً للواقع العربي، ودراسة لأبعاد الحضارة التي اختزلتها هذه الموروثات وعاشت في أذهان الشعراء الذي استخدموها في صورهم أو أحاديثهم أو استشهاداتهم.

لقد توثقت في نفوس المقاتلين صورة المنايا وهي منهل لا بد أن يستقوا منه وأن الإنسان المقاتل لا يمكن أن يكون متقدماً وأن المواجهة تتم من خلال تفويت الفرصة على الخصم، ومطاردته واللحاق به، وأن فرصة الموت في الإقبال هي أقل

من فرصة الموت في الإدبار ، وأن حالة الهجوم والإنقضاض هي أكثر حكمة من حالات البقاء والإستخذاء ، وتضييع فرصة الهجوم على الخصوم وإرباكه أكثر توفيقاً من التراخي والإنتظار . وقد ظل هذا الإطار متواصلاً في الشعر ومحموداً عند الشعراء في ذكر المآثر ، والوقوف عند المحامد والإعتزاز عند المناجزة أو المناثرة حتى عدت أبيات الحصين بن الحمام المري من النماذج الشعرية الخالدة في تأكيد هذا المعنى :

تأخرت استبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

فالطعن في الصدور هو صفة الشجاعة ،ونزول الدم على الأقدام هو دليل الإقدام وهذا ما تعود عليه المقاتل العربي وهو يواصل ترسيخ قيمه الأصيلة ويفخر بوفائه لها ، ويعتز بوراثته لما حرص عليه الآباء ، فكان يستلهم من معانيه معاني الرجال الذين سبقوه فيها ، ويقاتل بروح الأمة التي ورث مجدها ويعبر عن الصورة العزيزة التي عاشت في وجدانه وانتقلت في موروثه الفكري والحضاري فكان كل شاعر من الشعراء يؤدي مهمة حمل (الصيغة الشعرية) بكل محتواها ، وينقل (الحالة التعبيرية) بمفرداتها إلى الجيل الذي يرى فيه وفاء الأمانة وسلامة الحفاظ وقدرة المسؤولية . فعاشت قيم التواصل في ضمير الرجال واستمرت صورة الإعتزاز في نضال المؤمنين ، واستفاقت صيحات النهوض في خفقات الشعراء الذين كتبوا شعر الحرب ، وعرضوا لأغراضه الفنية بما يتفق مع انسياب حركته الرائدة وتحقيق مطامحه المشروعة في أداء الرسالة الإنسانية التي كتب على هذه الأمة حملها ، وعلى قادتها رفع رايتها . . وظلت أسباب هذا التواصل واعتبارات الحالة الجماعية هي الصوت المرتفع في المحتوى القتالي وإرادة الإنسان وهو يشعر بقوة الآخرين من أبناء أمته هي الصيحة المرتفعة في خفقات المواقف القتالية الراهنة ، وتحديات القوى الباغية التي أرادت لهذه الأمة أن تقف عند حدود مرسومة ، فحاولت إسكات صوتها ، فضمير الجماعة في قصيدة الحرب كان لوناً شعرياً واضحاً والحس القومي المعبر في صورة الجماعة هو الأسلوب المعتاد ،

شعوراً بالقوة، وإحساساً بإيحاءات الإنتماء التي وضحت في حالات التعبير فكانت ألفاظ (أنا) و (أنفسنا) و (أموالنا) و (أيدينا) وكل الألفاظ التي تختتم بالضمير (نا) وقوافي الشعر التي تنتهي بضمير الجماعة كما هو الحال في قصيدة عمرو بن كلثوم وبشامة النهشلي وعبد الشارق بن عبد العزى الجهني وعشرات القصائد التي تحدثت بصيغة هذا الضمير، واستمدت قوتها من القدرة الجماعية التي وجدت في التعبير جانباً من جوانب الثقة، وصوتاً من أصوات الإحساس بمسؤولية الوقوف والمجابهة والتحدي، وقدرة متداخلة من قدرات التاريخ المشترك الذي يجمع الأبناء عند إشتداد المواقف، ويوحد أهدافهم عندما ترفع دواعي الخطر عقيرتها ولتجهز بحقدها لإطفاء شعلة التواصل التاريخي.

وصورة الحرب في القصيدة العربية القديمة متسعة تمتد أطرافها حتى تضم جوانب المعركة ويتحرك في مدارها الفارس حتى يلون قسماتها بأزهى الألوان وأكثرها إشراقاً، وتتعالى في فضائها لوامع الرماح وهي تشتجر، وبريق السيوف وهي تتقاطع، وسوابق الخيل وهي تكر تارة وتفر تارة أخرى، فهي صورة كبيرة تستوعب القصة الحربية بتفاصيلها وتنفرج لتترك ماسحة موزونة لما يريد أن يتحدث عنه الشاعر من ماض تليد وأخبار مأثورة وملاحم قبلية متراسخة في الذهن ونابتة في الحديث الموروث، وسعة الصورة تعطي السامع مجالاً للإصغاء، وتترك له فرصة الإنتباه والمتابعة، لأن الشعراء يحسون في هذا الإمتداد فسحة لقدرتهم الشعرية وميداناً لانطلاقهم ومسلكاً تتحرك فيه القوافي بلا جهد، وتنساب فيه الصور بلا تعب، وتنثال على دروبه العبارات وهي متكاملة دون انقطاع، ويجد الشاعر نفسه وقد انفتحت آفاق القصيدة أمام رغبته التعبيرية الجامحة، واتسعت رحاب الإختيارات لما حاول أن يعتمده في تقديم اللوحة الشعرية وكأن إيقاعات هذه الصورة وهي ترتكز عند كل (تفعيلتين) متناسقتين وقد تركتا للشعراء فرصة التوقف عندها لتقديم حكمة معقولة إذا كان الموقف يقتضي مثل هذه الحكمة، أو رأياً منطقياً تتوازن فيه العبارات المطروحة في مجال الفخر أو المديح، أو حجة تسقط حساب الآخرين عند المناثرة أو مآثر يعجز

الآخرون الوصول اليها أو الإدعاء بمثلها فكان لها أثرها في توثيق حالة التأمل من خلال النغم الشعري، والتحدث في حدود الوزن الملائم لنهاية العبارة.. فإن هذه الحركة النغمية الهادئة، والصورة الشعرية المتسعة قد أهلت الشعراء للوقوف عند البحر الطويل وقفة طويلة، والتأثر بحركته الممتدة تأثيراً واضحاً لأنهم وجدوا فيه المجال الطبيعي للمقولة الشعرية المناسبة، والصيغة المقبولة، والزاوية المفتوحة التي يمكن إدخال الألوان المختلفة لتسلطها على كل وجه من وجوه المعركة، وتحديد النضارة اللونية المتميزة لكل لون وفي الحدود المتفق عليها في البناء والإستعمال، أو التقطيع المستمر الذي يأخذ بوحدة اللفظة والتنغيم المضطرد الذي يسبغ على القصيدة صفة الامتداد والعقلانية ويفسح لمعانيها سمة البروز والتعبير فإنه ظل يعطي هذا البحر رجاحة القوة وحكمة الهيبة النغمية المعتمدة على جلالة الحروف وحسن تآلفها وتناسق تكرارها.

فلغة الحرب لغة واضحة، يتسرب من خلالها الصدق التعبيري، ويزهو الق تراكيبها في خضم الأحداث التي تناولها الشاعر، وربما كانت هذه الخصائص من الدوافع الحقيقية التي حملت الشعراء على خوض هذا البحر والوقوف عند حركته التقطيعية والمتكاملة التي أصبحت تستوعب الأحداث التاريخية الكبيرة والتزموا به وهم يقتفون أثر البناء التقليدي...

وإذا تجاوزنا القصيدة التفصيلية، وتجاوزنا البحر الطويل الذي عمد إليه الشعراء وهم يعرضون لصور البطولة الموروثة، ويقفون عند الأمجاد العربية العريقة التي وجدت في صورته إنفاساً واتساعاً، وعرفت في أبعاد حركته اهتزازاً نغمياً متميزاً فإن البحر الوافر كان استجابة واجبة وسريعة ومتلاحقة لقصيدة الحرب المباشرة والمعبرة عن التأثر الآني والحماسة الثائرة والمخاطبة القوية التي تحملها نغمات هذا البحر السريعة، ورنة ألفاظه الموجبة، وقد اصطبغت بالألفاظ المكررة وعبارات التخاطب التي توجب المواجهة، أو أشعار المخاطب وإبلاغه بما يريد أن يقوله المقاتل واندفاعه وراء الحركات الإيقاعية الرتيبة التي يضخها هذا البحر وهو يتحرك في إطار نغمتين متناسقتين (مفاعلتن). ثم

يتوقف عند نغمة أخرى تقطع على هذا الانسياب إمتداده، وتوقف تدفقه لتستقر عند (فعولن) التي تغير المجرى النغمي، وتصد جموحه المتدفق وقد تراءت في كل لفظة أصداء الصورة المتحركة. وهي صورة المحاجة والمواجهة والمقابلة وقد اتسمت كثير من قصائد الفتوح بهذه السمة، وتحركت كثير من مقطعات المحاربين والمقاتلين من الشعراء صوب هذا الإتجاه الفني المقبول. ولعل في قصائد القعقاع بن عمرو وعاصم بن عمرو ونافع بن الأسود وأبو مفرز الأسود بن قطبة خير نموذج لهذه الظاهرة الفنية التي أوشكت أن تكون أشعارهم مقتصرة على هذين البحرين (الطويل والوافر) بعد أن أصبح شعر هؤلاء المجاهدين صورة من صور الجهاد البطولي، ولوحة من لوحات المجد الأصيل الذي ترسخ في كيان البناء الشعري لهذا الفن وعد واجهة زاهية من وجوه التفاعل الحي الذي خلفته تجربة المقاتل وعطرته سيرة الجهاد النبيلة وخلدته قدرة الإستشهاد الصادق، وأكدته بطولة الرجال العظام وهم يقفسون على أعتاب المجد، وينشرون رايات الجهاد، ويدافعون عن ثغور الدولة الرائدة، فكانت لهم أسباب الخلود قائمة، وبقيت مآثرهم في صفحات التاريخ تنبض بالعز والسؤدد وتستذكر بإباء عندما يجد الناس أنفسهم بحاجة إلى مثل حالة الإستذكار هذه.

وإذا كان الوزن الشعري لقصيدة الحرب قد خضع لأنغام بطولية متشابهة أو عاش في ظل إطار عروض معين للأسباب التي وقفنا عندها أو عند بعضها على الأقل، فإن هذه القصائد قد اختزنت معجماً واسعاً من معاجم الألفاظ الحربية والمواقع التي دارت فوقها والأماكن التي شهدت بطولة الرجال وعرفت قدرة الشجعان البواسل وهم يعطون الحياة حقها، ويواصلون مسيرة التاريخ الحي بكل أبعاده، وينشرون قيم الحياة بكل معانيها، فألفاظ (البيض الخفاف) و (الصوارم) و (السيوف الهندية) و (القنا السمر) و (الرماح) كلها دلالات حية في بناء القصيدة، ومعان بارقة في وجوه القصائد وهي تكسب حدتها من شدة المعركة وقوة الاندفاع، وصلابة العقيدة، وروعة الانتصار الذي كان يتيح للمقاتلين والشعراء منهم مجال الإبداع، وانتزاع الصور الفريدة، والإستشهاد البطولي الفذ،

ويضفي على القصيدة وجاهة الصدق التعبيري، وصفاء القصيدة التي تموج معانيها، وتعلو بنصاعة فوق تراكيبها اللفظية، وإذا كانت أشكال السلاح الذي تعاطف معه المقاتل العربي وعرف في إبائه إباءة وفي عزه عزة فإن مواكب (الكتائب) و (دفعات الخيل) و (المجالدة) و (الجراح) و (الموت) و (اللقاء) و (الثغر المخوف) وغيرها من الكلمات التي كانت توحي بدلالات الحرب أو تذكر في حالة الحديث عنها، كانت تأخذ مساحة مناسبة من حجم القصيدة وتنشر على سطور واسعة من سطور الأبيات لتشد بين أجزائها المتباعدة وتوحد بين المعاني المنثورة في ثنايا الأبيات، وكان الشعراء يحسمون فيها مواقف حادة تتعرض لها بعض الأبيات، لأن توفير الخزين الشعري من هذه المعاني يعطي القصيدة زهاء حربياً، وإشراقاً لا يبعد عن الوجه الحماسي ولا يزيل عن قسماتها أرج العطر القتالي وعبق الجهاد العقيدي المتميز، فالصورة تبقى شامخة وهي تتحد في دفقات المعاني المختارة، والألفاظ المنتقاة، والحديث عن السلاح عند شعراء الحرب يعد جزءاً من أجزاء المعركة، وعنصراً من عناصرها التي تستكمل لها أدوات النصر، وتحسم بواسطتها أسباب المعركة (فالقناة لدنه) و (السيف أبيض) و (القوس صفراء من نبع) والشعراء لا يكتفون بتجديد نوع السلاح وإنما يستذكرون أقسامها وأجزاءها ومضاءها وقوتها وخصائصها وأسماءها في كل حالة من هذه الحالات يستذكرون أداؤها في المعركة، وبلاءها في حالات الضيق، ونعوتها عند أوقات الشدة، وهم في كل جانب من هذه الجوانب يضيفون إليها حالة، ويؤكدون فيها صفة جديدة، لأنهم يستمدون من هذا الوصف ثقة ويزدادون به قدرة تذهل عدوهم فسيوفهم ليست كسيوف الآخرين لأنها بأياد مؤمنة تعرف كيف تستخدمها، وعند رجال أشداء يحسنون الضرب بها وضرباتهم تفلق هامات الرجال. ونبالهم تخرق أجساد الخصوم، وتزيل الرؤوس عن الأجساد وتنزل بهم أفدح الخسائر، وقد حاول الشعراء أن يمنحوا السيوف ألواناً ناصعة والرماح حركة لدنة، والأقواس أصواتاً مرنة، لتترك أثرها في العين والأذن والتصور ولتبق قدرتها في المصاولة أشد وأقوى، وربما

كان الشعراء يحذفون الموصوف من الصورة لتظل الصفة قائمة ودالة على حالة الموصوف بعد أن اقترن بها وعرف بمتابعتها. (فالأبيض) هو (السيف) و (الصفراء) هي (القوس) و (الرديني) هو (الرمح) و (المشرفي) هو (السيف) واليثربية هي (النبال) و (نسج داود) هي (الدروع). وقد امتلأت قصائد الحرب بصور الحشود وهي تتزاحم ويحرص الشعراء على تحديد حركتها، وأعداد القتلى وقد تناثروا على أرض المعركة جثثاً هامدة، أو لاذوا بالفرار متسترين تحت جنح الظلام، أو متخذين من التلول مخابيء ومن الوديان مواضع اختفاء، أو استسلموا طائعين، أو وقعوا بالأسر وهنا كانت تتجلى أهمية النص الشعري وهو يجدد حركة الفتوح، ويسوق أخبار المعارك ويذكر أسماء المحاربين والقادة، ويحصي أعداد المشاركين في كل معركة، وفي إضافة هذه الأخبار - التي كانت تبدو غريبة أو بعيدة عن التصور - تتوضح صور التاريخ البطولي وهو يشهد باقتدار المقاتلين الذين تدفعهم صلابة الإيمان إلى الصمود والمصاولة وتحملهم على أن يظلوا رافعين راية الجهاد والمقاومة دون أن يعرفوا للتراجع مكاناً أو للتردد والإحجام صورة، وحتى في حالة التراجع التي تفرضها طبيعة المعارك كانت أسبابها ودواعيها تحقق في ذاتهم مواصلة المعركة، وترسم لهم حدود الانتصار المرتقب في حساب المعارك الطويلة الأمد، لأن معاركهم لا تقف عند حدود موقعة ولا تنتهي في إطار يوم، فالفكرة التي آمنوا بها حملتهم أمانة المواصلة في نشر الرسالة، والدعوة إلى تحرير الإنسان، والذود عن كرامة المجاميع البشرية التي عرفت فيهم دعاة فضيلة، وهدأة أمجاد، وقناديل رسالة سماوية سمحة وهنا كانت تتجلى عبقرية الشعراء الذين يختارون الزاوية الحادة في الوصف والشرائح الملتهبة في اختيار الحديث ويركزون على الجوانب التي تفقد الخصم قدرته على الدفاع، وتبعده عن تناول الحدث الذي يجد فيه لنفسه مأمناً أو موقع دفاع، وتظهر براعتهم في استخدام الأفعال التي تؤدي إلى إذلال الخصوم ونزع الثقة عنهم والتقليل من شأنهم وإضعاف قدرتهم القتالية، وكانت هذه الأفعال تتوالى وهي تجدع الأنوف وتهتك البيوت وتحبس الركاب وتهدم الهامات.

إن لغة الشعر التي أحسن الشعراء اختيارها كانت مستمدة من واقع الحياة اليومي لمفردات الحرب ومعبرة عن الإحساس الغامر الذي يحكم هذه المفردات وهي لغة مباشرة لا يتكلف فيها الشاعر ما يريد أن يعبر عنه ولا يفتش عن اللفظة التي يسعى إلى وضعها لتبدو الصورة متكاملة، لأنه في موقف يقتضي منه الحديث السريع، واللقطة العابرة والموقف الذي تستدعيه المعركة، والرد الذي يجابه به الخصم، وقد جرت هذه المحاولات التي حرص الشعراء على الوفاء بها والإلتزام بأدائها، حرصاً منهم على تثبيت واقعية الحدث وتسجيل الخواطر المقترنة بهذا التسجيل، والإحساس المرافق له، والتأثر الصادق الذي يثيره في نفس الشاعر، وجرت هذ التأثيرات على هذا الضرب الشعري ألواناً من العنت والنسيان وأفقدته الخصائص الفنية التي تمسك بأدائها النقاد، واعتبروها مقاييس ثابتة باختيار النص الجيد أو تصنيف الشاعر في حدود الطبقة المطلوبة فأغفلت دراستهم، وضاعت نصوصهم وحرمنا من مواقف شاعرية حية كانت تحمل اقباساً من الشاعرية الحقة وهي تقف وجهاً لوجه أمام التجربة، وتتفاعل مع الإحساس الحي، وتتحرك في دائرة الموقف الصادق. لأن كتب الطبقات ومعاجم الشعراء حاولت أن تؤرخ لحركة الشعر العربي وفق ضوابط نقدية تحددت في إطار المعطيات التي حاول أن يلتزم بها (ابن سلام) أو يأخذ بها (ابن قتيبة) أو يعبر عنها (المرزباني) و (الآمدي). وفي طوايا حديث ابن سلام الذي اقتصر في طبقاته بعد الفحص والنظر والرواية عمن مضى من أهل العلم إلى رهط أربعة اجتمعوا على أنهم أشعر العرب طبقة ثم اختلفوا فيهم بعد. أقول في طوايا هذا التحديد وفي مقاييس ابن قتيبة تضاءلت صور هؤلاء الشعراء الذين لم يكتب لشعرهم أن يجد محله في مراتب تلك الطبقات أو لأسباب أخرى يمكن أن تدخل في إطار وقوعها في كتب المغازي أو السير أو كتب التاريخ مما لم يدخل في حدود الشعر الذي دخل في مجال الرواية عندما بادر الرواة إلى تجميع بعض القصائد المشهورة كما فعل حماد والمفضل والأصمعي في المطولات والمفضليات والأصمعيات وتابعهم الأخفش في كتاب الإختيارين، فهؤلاء الرواة عمدوا إلى

قصائد لشعراء عاشوا قبل الإسلام وفي صدره أو تأخروا عن هذا العصر. وهم يختارون وفق ضوابط مرسومة، واتجاهات محددة وأهداف تتناسب مع الهدف المرسوم من هذا الجمع.. فاقتصروا على ما جاء منهم في إطار هذه الموازين، واختاروا لمن وقع في ظل المقولات الراسخة في أذهانهم.. فتجاوزوهم في الإختيار، وانصرفوا عنهم في سورة الإستقصاء عن النموذج الفني المطلوب، والشاعر المختار بسبب أنهم لم يكونوا من أشعر العرب في مذهب من مذاهب الشعر، أو منهج من مناهجه، أو في ضرب من ضروبه، وهي قاعدة اعتمدها ابن سلام إلى جانب اعتماده قاعدة من تشابه شعره منهم إلى نظرائه منطلقاً منها إلى إيجاد عشر طبقات، أربعة رهط كل طبقة، متكافئين، معتدلين، وشعراء الحرب الذين تفتقت شاعريتهم في ميادين الجهاد وتوثبت قرائحهم في ميادين المعارك والتهبت مشاعرهم وهم يواجهون الحياة بكل أقدارها ويتدافعون لتحقيق أمانيهم السامية في الخلود والوفاء، ولم يكونوا من الشعراء التقليديين الذين ملكت صنعتهم القوافي، وقعدت بهم عن مطالب الحياة أسباب الشعر، فانصرفوا إليه يحكمون صنعته ويبذلون في نظمه أوقاتهم، فهم يحملون رسالة الجهاد ويرفعون راية الحق وقد تسلحوا بالعقيدة، وجاهروا بالمبادىء السمحاء واستمدوا من قيادة الرسول صلوات الله عليه أسباب الإندفاع والتضحية، وكان الشعر يجري على ألسنتهم تعبيراً عن كل هذه المعاني، ووفاءً لأمانة التاريخ في تسجيل المواقف، وحرصاً على روح الأمة في استدامة جذوتها في نفوس الأبناء البررة والرجال المؤمنين والمجاهدين الأوفياء.. وأن صور النضال الحقيقي والإيمان الصادق والتعبير الموحي بروح الإندفاع كانت تبدو في كثير من نماذج أشعار هؤلاء وهي مشفوعة بالثقة المطلقة بالثواب المرجو والحياة الخالدة والقناعة بالوعد الحق الذي وعد به الباري المؤمنين والمجاهدين والصديقين فاسترخصوا الحياة قبولاً بالخلود، وباعوا النفوس طلباً للشهادة، فخلدوا لأنفسهم ولأمتهم الذكر الحميد. إن هذا الشعر الذي بقي بعيداً عن التناول يمكن أن يعتمد في تسجيل الصفحات المشرقة من تاريخ النضال العربي والإسلامي ويمكن أن يحدد

طبيعة الفكر القائد الذي خطط لهذه المعارك التاريخية الحاسمة، ويصور القدرة العسكرية الفذة التي استطاعت أن تخرج إلى العالم وهي تتحلى بروح الإنسانية الخيرة وتقدم للعالم نماذج من الرجال الذين بقيت ذكراهم عطرة حتى يومنا هذا، إن دراسة النماذج المتناثرة لهذا الشعر تعطي الدارسين أبعاداً لا يمكن أن تكون ظاهرة في غيرها من النماذج لما حملته من أفكار، وعبرت عنه من مواقف لأنها مواقف موافقة لحركة التاريخ ومتسقة مع سلامة الأحداث، ومؤكدة لبطولات كانت إلى أوقات قريبة مثار نقاش بسبب التشكيك بسلامتها والتقليل من أهميتها، وبعد فإن هذه المقطعات تسجل الحقائق الثابتة التي لم تخضع إلى تزييف أو تزوير أو طعن.

وتاريخ الأدب الذي يعد جزءاً لا يتجزأ من حركة التاريخ قد دخل معظم الأبواب ا لتي اعتمدت النص، وأشارت إليه ووقفت عليه واستخدمته في تأكيد مسألة تحقيق قضية، أو استطلاع رأي وهذا ما يفسر لنا أن كثيراً من كتاب السيرة والمغازي اعتمدوا الشعر في أخبارهم وهم يجدون في روايته متعة وفي الإستشهاد به سنداً، والإعتماد عليه مشاركة في توثيق الخبر وترسيخ أصوله في نفوس المستمعين. وقد حمل هذا الإهتمام كثير من المحدثين والفقهاء إلى أن يطالبوا الرواة وأصحاب الحديث بالشعر ومما يروى أن ابن شهاب الزهري كان يقول: هاتوا من أشعاركم فإن الأذن بحاجة فالشعر كان له وقعه في النفس وأثره في الحس، وصفاؤه في موافقة الحدث، ولونه في استذكار الحديث إلى جانب استثارته لكوامن النفس، واستئثاره بجوامع الأشياء وهو يحمل المشاعر الدافقة، ويروي الأحداث المسلسلة، ويوائم بين طبيعة الحروف، وجرس الألفاظ واستيحاء المعاني، وربما كان ميل مؤرخي السيرة الكبار من الطبقة الأولى والثانية والثالثة إلى الشعر وشغفهم به هو السبب في إدخال بعض الشعر في ثنايا السيرة، والإستشهاد به في توثيق المغازي.

ويبقى أدب المغازي، وشعره ونثره مادة للإستشهاد، ومدعاة للتمثل لأنه كان يدل على أصوات الرجال عند اشتداد الأزمات، ويحمل خصائصهم عند

احتدام اللقاء، ويظهر شجاعته في سومة المعارك، إلى جانب تجسيده لروح العقيدة الخالصة، ووفائه للتعابير الإنسانية التي كانت تنساب في ثنايا تلك القصائد، أو تمر عبر تلك الأحاديث. ويبقى القها الزاهي وحسها الوجداني وشعورها تياراً تتسرب فيه دفقات الوفاء الإنساني وهو يجابه الصعاب ويقترب من اللحظات الحاسمة، ويقف على عتبة الإفتراق والتباعد ،ولعل هذه الأحاسيس هي التي جعلت من المغازي صورة تستذوقها الأسماع، وتلذ بقراءتها النفوس، وتستسيغ تلاوتها على مر العصور، مواكب الأجيال لأنها كانت تقرأ فيها دقائق التاريخ، وتجد في متابعتها جزئيات الأحداث، وتقف من خلال وقائعها على الجانب الإنساني الذي يصعب أن تقف عليه أخبار التاريخ ولعل هذه المشاعر هي التي أعطت هذا اللون التاريخي طرافة الإهتمام إلى جانب كل الإعتبارات الدينية والتاريخية لكونها تاريخاً لبداية الإسلام، ومواقف حاسمة في مسيرته، وألواناً زاهية من ألوان الجهاد الأصيل لتثبيت أركانه وباعتبارها تسجيلاً حياً للعلاقات الصادقة التي كانت تسود الحياة بين الرسول الكريم صلوات الله عليه وبين الصحابة الأخيار الذين بذلوا من أجل بناء الكيان الإسلامي أقصى ما يستطيعون تضحية وإيثاراً، صدقاً وعقيدة، ومن هنا كان الإحتفاظ بدقائق المغازي جزء من التاريخ الكامل والاهتمام بروايتها والحرص على جمعها وإسنادها كانت حالة من حالات التوجه الأول في كتابة التاريخ والبداية المنهجية للطريقة التي وضعت علم التاريخ على طريق التكامل منذ المراحل الأولى لمباشرته. كما كان أصحاب المغازي والسير من الطلائع الأولى لوضع القاعدة الرصينة لتوثيق الأخبار، وتحقيق الأسانيد التي شكلت المنهج العلمي الواضح في علم التاريخ عند العرب، وهي طريقة اعتمدت الشعر سنداً والإستشهاد به قاعدة من قواعد منهجه، والتدليل على صدق الأحداث بالإستناد إلى محتواه درباً من دروب الإلتزام بهذا المنهج الذي بقي واضحاً في التآليف المعتمدة. والأصول العريقة التي حفظت الأحداث الأولى وخلدت المراحل الأولية التي قطعتها مسيرة الأمة ودعوة الحق، وسيرة الرسول الكريم وطبقات الصحابة والتابعين.

لقد سجلت كتب الفتوح ـ ولعل كتاب فتوح البلدان للبلاذري من أجلها ـ أخبار الحروب، ومكانة المقاتلين وألويتهم وهم يسجلون النصر مما كان له أبلغ الأثر في حفظ هذه الأخبار عن طريق الرواية، وتسجيل الأشعار لأن الشعراء كانوا يقفون مع المقاتلين، ويشتركون في المعارك ويخوضون الأيام الصعبة، وقد احتفظت كتب الفتوح بأسماء أولئك الشعراء الذين استشهد منهم عدد كبير في البلاد المحررة، وكانت قصائدهم التي حفظها المقاتلون سجلاً من سجلات مشاركتهم الحقيقية في تلك الحروب. وكان شعرهم لوناً فنياً من ألوان الشعر الحربي بعد أن تميز بطابع خاص، واختار المعاني المناسبة والصور الملائمة والبدايات التي كانت تتفق مع طبيعة الأحداث، وهي بطبيعتها خلية من التعقيد والتركيب، وتتميز فيها لغة السلاح، وتتعالى في ألفاظها أبيات الإعتزاز والفخر، وتتداخل في أحاديثها عزيمة الرجال الذين يحققون النصر وينزلون بالأعداء ألوان الهزائم ويبدون عند اشتداد المعركة ضروباً خارقة من الشجاعة وأعمالاً جليلة من البسالة، كما كانوا يرسمون لنا العواطف الصادقة التي تنتابهم وهم يسجلون تلك الإنتصارات، وشعر الفتوح الذي تناقلته هذه الكتب وثيقة خالدة للوقائع، وتسجيل لحركة التحرير المتمثلة في الورود على كسرى ودخول (المدائن) قسراً، وتجاوزهم لجيوش الفرس على كثرتها، والتوغل في أعماق ديارهم على الرغم من أعدادهم الهائلة، والإتجاه غرباً لدفع مظالم الروم وخضد شوكتهم في اليرموك وغيرها من المعرك وتحرير بيت المقدس والشام ودفعهم عن بلاد العرب وإسقاط غطرستهم التي أذلت البشر وامتهنت حرمة الإنسان، واستباحت عزته وإباءه.. إن هذه الوثائق تعطي المؤرخ مجالاً لتوثيق الأخبار المتوفرة، وتضيف إليه حالات جديدة، وتفتح أمامه أبواباً للمعالجة غير منظورة في تسلسل الأحداث، وتتيح له التحرك في تحليل بعض المضامين الشعرية ليجد فيها ربطاً بين الحدث والواقعة وصلة بين التاريخ والأدب، ووجهاً من وجوه المقارنة بين الخبر والقصيدة..

وشعر الحرب الذي شغل مساحة واسعة في الوجود الشعري العربي ودللت أبياته على حالة الإقتدار المستديمة التي عاشت في الوجدان العربي نزوعاً إلى

الآباء، ورداً لأسباب التجاوز، وإيقافاً لمحاولات التحدي، كان ميداناً لاستخدام القصة التاريخية التي اختزلها الموروث حكمة قصيرة أو مثلاً سائراً بعد أن وجد فيها دلالة واعية، وإحساساً متقدماً لما يمكن أن تؤديه وهي تأخذ مكانها في أبيات القصيدة، أو تقال في سياق الحدث التاريخي، أو يستشهد بها في تحقيق النتائج المتوقعة، وإذا كانت القصة التاريخية المحكية أو المنقولة عبر الزمن السحيق وهي تحمل المغزى والفكرة والغرض قد قطعت شوطاً في الإستخدام وتوغلت في ثنايا القصائد واستغرقت الأفكار التي بقيت تدور في الذهن فإن فكرة الإستلهام هذه وقدرة الإستيحاء التي تخلقها حالة الإستلهام أصبحت حالة من حالات البناء الشعري، وركيزة من ركائز الإستذكار بعد أن وجد فيها الشعراء مادة جديدة للإستنهاض، وينبوعاً من ينابيع التوثيب لما تثيره في نفوسهم من مآثر، وتتركه في نفوس الآخرين من آثار محمودة..

إن تواصل التاريخ وهو يستعيد الأمجاد ويستذكر الأيام الخالدة ويوثق في نفوس المقاتلين روح المقاومة كان حافلاً بنماذج كثيرة من شعر الحرب وهو يحمل صور البطولة التاريخية الخالدة، ويطرز بأيام العرب المجيدة بعد أن أصبحت أحداثها مثاراً للإعتزاز ومدعاة للفخر (فذي قار) كانت واجهة نيرة من واجهات التوحد، ورمزاً من رموز الإنتصار العربي على قوى البغي والشر، ومأثرة من مآثر الإكتساح الذي أنهى أسطورة التوغل الفارسي إلى جزيرة العرب وأسقط حلم الأطماع التوسعية التي منت نفسها باحتلال هذه الأرض. ومثل (ذي قار) كانت الأيام الأخرى التي عاشت في الذاكرة العربية وخلدت صفحات التاريخ، وبقي شعر الحرب في العصور الإسلامية وبعدها يستعيد أيام بدر والخندق والمغازي الأخرى التي سجل المسلمون فيها روائع الإنتصار. ويستذكر الملاحم الخالدة التي سجلها الرواد الفاتحون في المدائن والقادسية واليرموك ونهاوند وفي كل مرحلة يجد الشعراء في الأيام التاريخية الماضية حافزاً من حوافز التوثيب وسبباً من أسباب التواصل ليظل الأبناء حاملين لواء الآباء، ومجددين مآثر الرجال وحافظين أمانة الأجيال ورسالة الحق. يستمدون من تضحية

المجاهدين عناصر الإندفاع وقدرات المصاولة والإيمان والثبات.

إن النسق التاريخي الذي تواصلت فيه حركة الأمة وتسلسلت فيه أفكارها واتسقت أحداثها في الإطار المحدد لهذه الحركة، حقق لها أسباب التواصل الذاتي والحياتي، وأمدها بسيل وافر من المواصفات والمواقف التي تركت أثرها الكبير في طبيعة مسيرتها. وهي تستهدي بقيمها الكريمة وخصائصها الإنسانية المتميزة، والتاريخ الذي حفظ لها هذا التواصل وحرك في داخلها نوازع الإندفاع وهي تستلهم أحداثه، وتجد في رجالها الميامين نماذجها الخيرة وأبطالها الميامين، بقي حريصاً على أن يفي بأمانته لكل الأجيال، ويقدم عبر أحداثه الجسام المواقف الحاسمة التي عاشت في أعماقه متألقة زاهية، والشعراء الذين عرفوا التاريخ بدقائقه وتناقلوا أخبار الأمم بتفاصيلها، ووقفوا على أسباب الخلود والرفعة كانوا قادرين على استلهام هذا التاريخ والإنتفاع من الأخبار المطوية في صفحاته، وكانوا قادرين على توضيح الجوانب البارزة في كل وجه من وجوهه، وتوظيف كل حادثة من أحداثه لما يوافق أهدافهم ويرسخ في نفوسهم أسباب الحفاظ على سلامة الوفاء لكل عبرة من عبره، فكانت القصة التاريخية التي أحسنوا استخدامها، وعرفوا المعاني التي يمكن أن تؤديها وجهاً من وجوه الرمز الحربي، وصورة من صور الحاجة التي يرى نفسه ملزماً بالحديث عنها أو التعبير عن مغزاها وهو يتمثل بها أو يستشهد بمدلولها، ولم تكن القصة التي يتحدث عنها وهماً ميتاً أو حالة منسية أو صورة باهتة، وإنما كانت أجزاؤها متحركة وأحداثها ناطقة توحي للشاعر بالمعاني الكبيرة، وتخلق في ذاته قدرة الإندفاع على متابعة (اللغز) الموضوعي الذي حملته وهي تعبر السنين، وتطوف مخيلة الناس وتترسخ في موروثهم الثقافي والشعبي، والشاعر لم يقف أمامها حائراً تفزعه غرابتها، أو تثيره أحداثها أو تسيطر عليه أخبارها المفاجئة، بعد أن عاشت في ذاته لوحة كاملة، ونظر إليها نظرة ناضجة، واستقرأ تاريخها استقراءً أحاط بكل أبعادها وما تداخل في تفاسيرها وعلل استخدامها وحاول أن ينتفع من الموعظة التي حملتها والعبرة التي تحدثت عنها والمرمى البعيد الذي كانت تسعى

إليه. ولم يقتصر استعمالها على شاعر أو ينفرد بالدلالة الرمزية التي عبرت عنها شاهد شعري.

إن استخدام الشاعر للرمز كان ينطلق من الغرض الذي هيأ له القصيدة، أو دارت حوله المعاني، أو تحركت في إطاره الأهداف المحددة.

★ ★ ★



الجذور الأولى لشعر الحرب عند العرب

الدفاع عن النفس حق مشروع، والحرص على الحياة نزوع إنساني طبيعي والرغبة في امتلاك الحرية والتمكن من ناصية الأحداث لازمة من لوازم الحياة التي ظل الإنسان يدافع عنها ويحرص على الاحتفاظ بها، ويبدي كل الأساليب التي تجيز له الوصول إليها. وقد عاش الإنسان منذ أن عرف الحياة وأدرك سر وجوده فيها، وتحقق من الكيفية التي يمكن أن تكيفه في مجال واقعها يسعى من أجل تطمين تلك الحاجات والوقوف على الأسباب الحقيقية لها ليأخذ قسطه منها، ويوفر لنفسه ما يمكن أن يوفره لها، وكان لا بد لهذا الإنسان من الحصول على بعض ما يمكن أن يحصل عليه من أساليب الإقتدار وأدوات التمكن لتكون عاملاً من عوامل التسريع في تحقيق الغرض، والتعجيل في تلبية الطلب ويظل تاريخ الأمم في مراحلها الأولى سجلاً لماضيها الذي تستمد منه قدرتها وتستل من مفاخرها ما يغني حياتها ويرفد تجربتها ويحقق لها الموقع الذي تنشده في حياتها. وتظل الأحداث التي خاضتها تضم روائع المشاهد، وبدائع الصور، وضروب التضحية لبطولات رجالها وأبنائها ونسائها الذين استطاعوا أن يطبعوا ملامحهم بإصرار، ويطرزوا سجلها ببراعة، ويرفعوا آيات مجدها بفخر وهم يكتبون الصفحات البيض، ويخلدون العزائم المواضي، ويظل الأبناء البررة يجدون في تلك الأعمال أسباب الإندفاع لتحقيق الخلود الذي حققه الآباء والأحفاد، يشعرون بالنشوة، ويستذكرون البطولات بإحساس التكريم. ولم يكن الشعراء وهم يرون هذه الملاحم بعيدين عن رؤية هذه الوقائع وتصوير تلك البطولات وتخليد نماذج التضحية حتى أصبح شعرهم صورة لصيحات المجد وصدى للمآثر الحميدة، وديواناً حافلاً لما قدمه كل بطل من أبطالها وهو يحاول أن يقدم العمل

الفذ، ويكون النموذج المتقدم، ويحقق الهدف الذي يتوق إليه الجمهور. وقد إستطاع الشعر عند كل الأمم أن يؤدي هذه المهمة ويتابع تلك الأحداث، ويسجل دقائق الوقائع وأبعادها القتالية التي كانت تستأثر بالإهتمام فتتحول إلى ملاحم تتعالى فيها أصوات السلاح ويزدحم بين سطورها ضجيج الفرسان وتتهاوى في ظل قوافيها الصروح والقلاع وتتصاعد ألسن الدخان ويختلط غبار الوقائع بشحوب الأصيل الذي يصطبغ بالدم وتغوص أقدام الخيل أو عجلات الدراعات بأكداس القتلى وتنحدر الشمس مشرقة ضاحكة في وجوه الأبطال الذين يحققون الانتصار وتتوارى غائبة كاسفة في عيون المنهزمين الذين لا يجدون أنفسهم قادرين على مواجهة الرجال فتلفهم الوديان الموحشة والشعاب المتناثرة والشقوق البائسة. وفي هذه المواقف تتألق روائع الإنتصار وتزهو بوارق السيوف، وتشتجر مواضي الرماح لتلتقي عند القصيدة الخالدة والقصة البطولية الهادفة والملحمة القتالية الفذة. ولم يبتعد الشعراء وهم يذكرون صولات الرجال وقراع النضال وتهاوي السيوف وتلاحم القذائف عن خفقات القلوب وهي تتوق للأحبة وتزخر بأفانين الحب، وتتذكر الأعزة وهم يطالعون صورهم في كل خفقة وملاحمهم عند كل بريق، وأصواتهم عند كل إطلاقة تنسل وشائجها من فوهة منجنيق أو قذيفة لهب.. إلى جانب صور الحنين الأصيل الذي تغنى به المقاتلون الذين ابتعدوا عن أرضهم وأهلهم وأحبائهم فشعروا بوطأة الشوق إليهم، وعندها يصطبغ شعر الحرب في هذه المواقف باللمسات الإنسانية الحارة وتتلون معانيه برقة الأحاسيس التي تنساب في ثنايا المعاني فتكسو بدفئها طوايا المضامين، وما رافق حالات الإغتراب التي أفرزتها أحداث الحرب من هواجس وداخلها من تطلعات فنسجوا من لواعج الشوق أحاديث يستطاب بها السمر وتلذ لروايتها الأسماع وتهفو لأخبارها القلوب وهي في كل أحوالها ترسم الإطار الترفيهي لمجاميع المقاتلين وهم يتحلقون في الخنادق أو يلتقون في ظلال الأسوار، أو يتزاحمون عند اشتداد القصف في المنحنيات التي تقيهم تطاير الشظايا وأشطار القذائف.

ولم يعدم الشعراء كذلك القدرة الأدبية المتميزة التي كانت تعطي كل حركة من حركات الحرب لوناً وكل بعد من أبعادها صوتاً يتناسب مع أهمية الحديث وينسجم مع وقع الخبر ولم تبدو نماذج الشعر وهي تعبر عن الإنفعالات الحقيقية للروح الأصيلة التي تزخر بها قلوب المقاتلين من مظاهر الفن البلاغي المتميز الذي يضفي على كل لوحة من لوحات الحرب ضرباً من ضروبه البيانية أو البديعية فتزهر في عيون المعاني صور المجد، وتلمع في ظلال البطولة خوارق التضحيات لتتحول في أناشيد الأبناء إلى زهو متجدد، وتصاغ في عيون الأطفال أحلام مجد مستقبلي مشرق وأغاني انتصار تبقى روعتها رائقة في كل حديث، طريةً عند كل استشهاد، وتظل هذه الهدهدات وهي تطوي جوانح المؤمنين بروعة أممهم ورسالات شعوبهم مدعاة لاستثارة الهمم،وأناشيد عز تموج بها نوازع الشباب ويبقى الأبطال الذين صارعوا قوى البغي وجالدوا جحافل الظلام رموزاً للإنتصار، ونماذج تقتدي بها الشعوب عندما تحيق بها الكوارث وتنزل بها الأحداث وتضطر مكرهة لخوض غمار الحروب.

ومن هنا كانت كل الملاحم التي سجلتها الشعوب صوراً لوقائعها أو تعاريف بأبطالها الذين تغنت الملاحم بأمجادهم وبما تفردوا به من أعمال وحققوه من انتصارات فكانت ملحمة كلكامش والإلياذة والأوديسة والملحمة الجرمانية المعروفة بأغاني أرض الظلام والتي عرضت لأحداث مغامرات بطلها (سيجفريد) في أرض (النيبيلونك) وأيام العرب التي بقيت أعلام شخوصها تزور ردهات التاريخ وتقف على عتبات القصور وتعطي أبناءها قدرة القتال، وتغني حياتهم بمعاني البطولة وتمنح شعوب الأرض الشعور بالسعادة عندما تتسامى رايات النصر، وتخفق بيارق التضحية، وتتقدم ألوية الإقتحام للدفاع عن قضية عادلة، وتحرر الإنسان من الظلم والإضطهاد، وترفع الحيف عن الأرض التي تطويها مظالم العبودية والقهر.

ومثل ما ظلت شخصيات كلكامش مثار إعجاب السومريين والبابليين وبقية الأمم الأخرى فقد تألقت أسماء أبطال آخرين في آداب العالم نسبت إليهم أعمال

جليلة فكان (هرقل) و (آخيل) و (الإسكندر ذو القرنين) و (البطل أوديسيوس) وغيرهم ممن حفلت بهم آداب العالم. وفي أدبنا العربي كانت صورة شمريهرعش وسيف بن ذي يزن وعنترة وعمرو بن معد يكرب وعامر بن الطفيل وقيس بن زهير وغيرهم ممن كتب لهم الخلود في عالم البطولة قبل الإسلام تمثل البطولات التي بقيت تشير إلى اعتزاز العرب بالدفاع عن المكارم وتسجيل المآثر وتخليد الأعمال التي تستحق أن تبقى موروثاً كريماً تتناقله الأجيال وتعتبره جزءاً من حياتها.

وشعر الحرب عند العرب كان صورة متميزة لأنه واكب أحداثهم وعبر عن أمانيهم ومطامحهم المشروعة وهم يتسابقون في ميادينها الواسعة، ويخوضون لهيبها المستعر، وأن أشعارهم التي احتوتها أيام العرب وقصائدهم المشهورة واختياراتهم الموفقة تشكل الملحمة الكبيرة التي تستحق أن تعاد صياغتها وتوحد أغراضها وتنسق مضامينها، لأن خواطر الشعراء متقاربة وصورهم الفنية متماثلة وأحاسيسهم التي كانوا يعالجون موضوعاتها متصلة من حيث التناول أو المعالجة أو النسج سيما وأن كثيراً منها يمثل الفروسية ويذكر الحروب والأيام ويسجل ذكر الأبطال والأعمال ويثور الخوالد منها والخوارق من تضحياتها والطرائق المستخدمة وضروب المناجزة وفنون القتال وأساليب التصدي والهجوم، وأن الأعداد الكبيرة من الأبطال الذين ملأت أخبارهم الكتب، وحيكت حولهم الأقاصيص وتناولت أعمالهم الروايات يمثلون الصفحات البطولية التي بقيت في أذهان الناس على الرغم من كل ضروب المبالغات التي أحاطت بها أو زينت أخبارها.

فالتجارب الكثيرة التي خاضها الشعراء الفرسان، وأظهروا فيها قابليات رائعة ألهمتهم الدقة في الوصف، والحس في التصوير والإجادة في التركيب الشعري والقدرة على معايشة الأحداث، والحرب بكل أشكالها كانت محوراً أساسياً من محاور الحياة العربية قبل الإسلام لأن العرب كانوا من خلالها يحققون وجودهم، ويحافظون على مواقعهم عندما كانوا يتعرضون لتهديد الدول المجاورة من الفرس أو الروم أو الأحباش، والمعروف أن تاريخ هذا التهديد كان يمتد إلى

القرن الثالث للميلاد حين بدأت محنة روما بشكل واضح وحين بدأت مطامع الفرس تمد رأسها من خلال ذراع الدولة الساسانية بعد أن قويت شوكتها وتصلب عودها وبعد أن تحرك مؤسسها (أردشير) إلى مناهضة روما ليفتح أبواب الصراع الدولي أمـام القـوتين الكبيرتين بـدأ حكـامهما يتلاعبـان بمصير الشعوب، وقد ازدادت مطامع الفرس بعد أن استطاعوا سحب أرمينيا من دائرة النفوذ الروماني وإخضاعها إلى سيطرتهم مستغلين الأوضاع السيئة التي كانت تسود روما، والصراعات الداخلية التي تأخذ بخناق الأمبراطورية التي كانت تعيش وضعاً لا تحسد عليه.

لقد مهدت هذه السيطرة للفرس التوجه إلى الأرض العربية في سورية ليتخذوا منها ميداناً جديداً للصراع في الشرق العربي بعد أن وجدوا أنفسهم قادرين على مثل هذا التوجه محققين بذلك مجموعة من الأهداف العسكرية والتجارية والسياسية وبعد أن تصبح المنافذ الساحلية المشرفة على الجانب الشرقي للبحر الأبيض المتوسط تحت نفوذهم، ولكن أحلامهم هذه قد تبددت بعد أن ردوا على أعقابهم وجوبهوا بمقاومة عنيفة من قبل (أُذينة) حاكم تدمر وبهذا استطاعت سوريا ومصر أن تتخلص من الغزو الفارسي المقيت الذي كان يضمر لها الشر وعندما لاذت جحافل الفرس بالفرار وهي تجر أذيال الخيبة والخذلان سحبوا معهم ذيول الصراع إلى العراق ليجدوا في هذا القطر العربي مجالاً جديداً يمدون منه سلطانهم إلى الجزيرة العربية.

إن جو الأطماع المستمر الذي أحاط بالمنطقة ظل شبحاً مخيفاً بالنسبة لشعوب هذه المنطقة بعد أن بدأت أشكال هذا الصراع تتسارع للإستحواذ والسيطرة وبعد أن وجد كل طرف منها أن مصلحته تتحقق في حالة السيطرة أو النفوذ وأن هذا الوضع قد هيأ أُمة العرب إلى أن تظل حذرة يقظة تقدم من أبنائها وقوداً للحرب التي تثيرها مطامع هاتين الدولتين وتبذل في سبيل الحرص على وجودها ما يمكن أن تبذله لتظل أمينة على حياتها. وقد حقق لها هذا الإستمرار في التضحية والدفاع من أجل الأرض حياة تنعم في ظلها بالعز ومستقبلاً تفخر به

في مواطن الفخر كما ترك لهم تراثاً وفيراً من المحامد والمآثر التي تمثل الخزين الحقيقي لعوامل الإندفاع والمثل العظيمة التي يستلون منها نماذج التضحيات. ومن الطبيعي أن ينشأ العربي الذي ظلت حياته تزخر بهذه الأمجاد، وحياته تحفل بهذه المواقف وقد توحدت أمامه صور الحياة الكريمة، وتألقت في نفسه لوحات الشرف الناصعة التي لم تترك مجالاً للتنازل عنها أو الميل عن خطها الإنساني الذي يؤمن لكل القيم الخيرة التي تربى عليها ونشأ في ظلها وعبر في كل أساليب حياته عن الدفاع عنها. ولا بد أن يدفعه هذا التصور إلى استرخاص الحياة دفاعاً عن الشرف واستسهال الموت ذوداً عن الكرامة لأنه يؤمن بأن الإقدام في الحرب لا ينقص عمر المتقدمين وأن الإحجام عنها لا يزيد عمر المتأخرين وبأن الذي يطلب الموت توهب له الحياة وأن الميتة الحقة هي التي تكون في خضم المعركة لينال البطل بعدها شرف المعالي، ويكسب فخراً يضيفه أبناؤه إلى مفاخرهم، ويظل ذكره نشيداً تترنم به الأجيال من بعده وكأن فلسفة الحياة عند العرب قد تحولت إلى عالم التضحية التي وجدوا فيها كل مباهج الدنيا ومتع السعادة لأنهم كانوا يؤمنون أيضاً بأن الإنسان قادر على أن يجعل حياته زاخرة بكل الأطايب، يلهو كما يلهو الآخرون ويقبل بما يقبل به القانعون، ويقف من أحداث الحياة (كما يقف البعض) وكأن الأحداث لا تمس أطراف ثيابهم أو تنوش شغاف حسهم. هذه النفس لا يمكن أن تخلد إلا إذا كانت قادرة على البذل، وإلا طويت مثل ملايين النفوس التي عاشت وماتت ولم تترك لها ذكراً يحمد، وكأنها لم تكن، وكأن الدنيا لم تجد لها ظلاً فيها، فما الفرق إذن بين النفسين وما هي السمات التي يمكن أن تطبع على الحياتين، وما هي المآثر التي يمكن أن يخلفها كل من هذين الإنسانين اللذين نزلا إلى الحياة فاكتسبا تجربتها وقنعا بواقعها ولكنهما اختلفا في تقدير النتائج المترتبة على النهاية التي انتهيا إليها، وكان عروة بن الورد واضحاً في تصوير هذه الفلسفة حينما قال:

دعيني أطوف في البلاد لعلني ... أُفيد غنىً فيه لذي الحق محملُ

أليس عظيماً أن تلم ملمة ... وليس علينا في الحقوق معوَّلُ

فأن نحن لم نملك دفاعاً بحادث ... تلم به الأيام فالموت أجملُ

وفي حديث آخر يقول:

أرى أم حسان الغداة تلومني ... تخوفني الأعداء والنفس أخْوَفُ
تقول سليمى لو أقمت لسرنا ... ولم تدر أني للمقام أطوفُ
لعل الذي خوفتنا من أمامنا ... يصادفه في أهله، المتخلفُ

فالنفس الكبيرة هي التي تخدم الآخرين وتستجيب لنوازع الخير، وتدرك أن الخلود في تضحيتها، وأن الموت في كونها نفساً لا تتجاوز النفوس الأخرى وبذلك تسقط في مدارج النسيان، وتهوي في مهاوي العدم، وتنحدر إلى الأماكن التي لا تذكر فيها.

ومن هذا التفكير كانت تنطلق كل الإعتبارات، وتتحدد معظم الإتجاهات وهذا ما كان يجعل نفوسهم كبيرة لا يعرفون من الدنيا إلا خلودها، ومن الحياة إلا عزها وإباءها فعاشوا أعِزَّةً في أوطانهم بعد أن أخذوا مواقعهم في عالم التضحية والجرأة، وقد أهلتهم هذه الصفات إلى أن يعطوا لكل بعد من أبعاد الشجاعة ما يجعله أكثر قدرة على التعبير لإبراز هذا البعد أو ذاك منتفعين من الإشارات التي وجدوا الإعجاب بها يأخذ شكلاً متميزاً حتى أصبحت هذه الخصال جزءً من حياتهم فتلونت بأنماط الجرأة وأصبحت اتجاهاتهم تمثل التضحية والإقدام والدفاع عن كل القيم النبيلة التي التزموا بالدفاع عنها، وترسخ في ذهنهم بأن الموت على الهيئة التي صوروها أو تخيلوها أو أرادوها لا يمكن أن تكون محمودة إلا إذا كانت تضحية جريئة وقد عبر عنها عروة بن الورد حين قال:

ذريني أطوف في البلاد لعلني ... أخليك أو أغنيك عن سوء محضري
فإن فاز سهم للمنية لم أكن ... جزوعاً وهل عن ذاك من متأخر

ويقول في قصيدة أخرى:

وإن المنايا ثغرَ كلِّ ثنية ... فهل ذاك عما يبتغي القوم محصرُ
وغبراءَ مخشيٍّ رداها مخوفة ... أخوها بأسباب المنايا مغرر
قطعت بها شك الخلاج ولم أقل ... لخيابة هيابة كيف تأمرُ

وعلى هذا النمط أصبح الشعراء ينهجونه وقد اتخذوه مسلكاً من مسالكهم، ومذهباً من مذاهبهم يبشرون به وينشرون فضائله حتى قال عروة مرة أخرى:

عجبت لهم إذ يخنقون نفوسهم ... ومقتلهم تحت الوغى كان أعذرا

ومن هذه المواقع كان الشعر العربي في بعض جوانبه صورة من صور الحرب التي تقف فيه عند المواقف الشجاعة وتشيد من خلاله بأسباب البسالة والإقدام أو تستثير العزائم أو تمجد الرجال الذين يبلون فيها البلاء الحسن إلى جانب الموضوعات الأخرى التي يرثي فيها الشعراء الرجال الذين يقدمون النفوس رخيصة،وهنا يستقل شعر الرثاء بجوانب كثيرة يمكن حصرها في باب الحماسة لأن الرثاء فيها يتصل بعد أن يعرض الشعراء للمآثر المحمودة وينفرد بندب الأبطال في حومات القتال والشعراء في هذا الباب يميلون إلى تعداد المناقب والإشارة التي احتفظ بها المرثي وهم لا يغفلون الدعوة إلى الاقتداء به والحرص على السير في الطريق الذي مات من أجله بعد أن تختلط صور الإعجاب بعبارات التمجيد، وتتداخل معاني الخلود بمضامين الفخر لتنتهي إلى النهاية التي يصير إليها كل الناس وفي ذلك يقول لبيد:

أتجزع مما أحدث الدهر بالفتى ... وأي كريم لم تصبه القوارع

ومثل ما كانت أبواب الرثاء تندفع لتصبح جزءً من شعر الحرب فإن شعر الهجاء والمدح والفخر والغزل، كلها يمكن أن تدخل هذه الأبواب عندما تتعرض لأوصاف الرجال ومواقفهم، وللحديث عن كل خصلة من خصالهم التي تمجد عملاً أو تذكر عيباً أو تقف عند مأثرة أو مكرمة.

فهجاء الخصوم ونشر صفاتهم التي تخرجهم عن دائرة المدح وذكر جبنهم وفرارهم وعدم تحليهم بالخصال الحميدة وعدم التزامهم بإطعام الجائع أو تخليهم عن إعانة المحتاج العاني، أو تنازلهم عن إيفائهم بحقوق الجيرة كلها يمكن أن تدخل في باب الحماسة وعندها تصبح قصائد الشعر قنوات إذاعية مفتوحة تجوب أطراف الجزيرة وهي تتحدث بالصفات المرذولة أو المحمودة، وبالرجال الذين

يضيفون إلى مجد قبائلهم مجداً جديداً، أو يفقدونها من المآثر ما يجعلها غير قادرة على أن تقف مع القبائل الأخرى إذا ذكرت المناقب أو تحدث عن المحامد.. وهذا ما كان يشير إليه المنسيب بن علس في قوله:

فلأهدين مع الرياح قصيدة — مني مغلغلة إلى القعقاع
ترد المياه فما تزال غريبة — في القوم بين تمثل وسماع

فالشعر كان أسلوب التعبير عن الحرب والشاعر يمثل القدرة التي تصوغ الأسلوب وتعبر عنه وتضفي عليه من الوجدان ما يترك له قدرة التحرك واستساغة السماع وقبول التذوق وبهذا يصبح الشاعر لسان القوم يحمل أمانة التعبير ويعد وسيلة الدفاع وينشد صوتها الإعلامي ويذكر مفاخرها التي تعبر كل الحدود ولا تحول دون انتقالها الحواجز،ومن هنا كانت القبائل تعتز بالشعر لأنه سجلها الحافل، وتاريخها البطولي وهويتها القومية وأثرها الخالد الذي يبرز مآثرها وسلاحها الذي يرد عنها طعون الأعداء ويقوي في نفوس أبنائها العزائم.

ومن هنا أيضاً كانت القبائل تضع الشاعر في مواضع متقدمة لأنه يحمي عرضها ويذب عن أحسابها، ويخلد مآثرها، ويشيد بذكرها وقد تجلت هذه الأهمية في فصول بعض الكتب التي أفردت أبواباً لفضل الشعر والرد على من يكرهه واحتماء القبائل بشعرائها وتنقلهم بين القبائل. وقد دفع هذا الاهتمام الناس إلى الإحتفاء بالشاعر فكانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها وصفت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصفون بالأعراس، ويتباشر الرجال والولدان، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ، أو فرس تنتج.

لقد أمدت الحروب الشعراء بمعين ثري، وهيأت لهم المجالات الواسعة للإنطلاق بمواهبهم الشعرية بشتى نواحيها ومختلف اتجاهاتها، فكانت حافزاً قوياً، ومصدراً خصباً من مصادر الإلهام، أثارت في نفوس الشعراء مختلف الأحاسيس والعواطف، فآنسابت على ألسنتهم أغاني عذبة، وأناشيد رائعة، وفي غمرة

اصطلائهم بنيران الحروب وغشيانهم معمعات الوغى، تتفجر نفوسهم شعراً حماسياً بليغاً، فتتجاوب مع أصدائه ألحان الفخر، وملاحم النصر، وتنثال المعاني على ألسن الشعراء انثيالاً يدفعهم إلى قول الشعر بعد أن توسعت آفاق النظم أمامهم، وخلقت لهم الميادين الرحبة للتعبير فآنساحوا يشيدون بمفاخرهم ويتغنون بانتصارهم.

لقد كان شعر الحرب أقوى ما نظم الشعراء وأنقاه، لأنه يتصل بالأمة فيضم مجد ماضيها إلى عزة حاضرها، وهو وحده سجل فخرها وعنوان بأسها ونشيد بطولتها، لأنه صور بأس الأبطال في ساعات اللقاء الحاسمة، ورصد اللحظات الدقيقة التي عاشتها النفوس وهي تمتحن في أعز ما تملك وتمثل على شفاه الفرسان في زحمات التلاحم فكان صوتاً من أصوات الهمم، ولوناً من ألوان المنازلة الشديدة التي ملأت أوصافها أغلب معاني اللغة فكان الفخر بالبطولة والفروسية، وقديم الأيام من مظاهر شعرهم الحربي وكانت القصائد التي تتمدح بذكر الشجاعة في القتال والبطولة في المعارك من أبرز أغراض الشعر العربي قبل الإسلام، وكانت لأبواب الحماسة المكانة الأولى في منتخباتهم لأن العرب بها أحفى ولها أروى، ولأن شجاعة العرب ومآثرهم الحماسية ألمع سجاياهم وأعرق ما فيهم من الصفات.

إن متابعة شكل المجتمع العربي قبل الإسلام يتحدد في مظهرين أساسيين هما المظهر الجماعي المتمثل باجتماع القبيلة واتفاقها على الصيغة المقبولة في التعامل والخضوع لما تفرضه ضوابطها وتؤكده نوازعها وتلتقي عنده مصالح أبنائها، والمظهر الفردي الذي يحقق لهذا المظهر قدرة التميز ولكنه لا يبتعد في مضامينه عن المظهر الأول، وإنما تتحد فيه صورة الفرد بصورة الجماعة، وتتوحد قدرته في إطار الكل الذي يحتوي هذه النزعة، بعد أن يصبح مسؤولاً عنها في كل حركة، وداخلاً فيها عند كل مسألة، ولعل بيت دريد بن الصمة يكشف عن هذه الدائرة الكبيرة التي يتحرك فيها الإنسان العربي على الرغم من كل أشكال السلوك الفردي الذي كان يمارسه.

وهل أنا إلا مـن غـزيـة إن غـرت غويت وإن تـرشـد غـزيـة أرشـد

فالإرتباط القبلي الذي يشكل الحلقة الأولى في نظام القوم والإحساس بالإنتماء كان مظهراً متميزاً من مظاهر الحياة، وصورة من صور التعامل، وانتماءً له جذوره في تكوين الفرد وسلوكه وتصرفه وتحديد علاقته بالآخرين، ولا بد لهذين المظهرين من أن يأخذا مساحتها في كل صراع أو قتال أو التحام لأنهما يشكلان العناصر الفاعلة في تجسيد الحالة الجديدة التي تفرزها طبيعة القتال بعد أن تجد القوة طريقاً إلى تحديد النتائج والإنشداد إلى الجماعة والدخول في دائرة المسؤولية عاملاً حاسماً من عوامل تحديد الموقف الذي يمكن أن يحدده لنفسه هذا الإنسان ووسط هذا المجتمع الذي امتزجت كثير من عناصره بمظاهر القوة، وتحددت أسباب وجوده بوسائل استمرارها، وأن الأعمال التي يقدمها هذا الإنسان في كل جانب من جوانبها تتعاظم صورتها في حدود الدائرة التي حددتها كل عناصر هذا المجتمع بعد أن حققتها أسبابه سلامة التمكن وميزتها أسبقية الموضوع، وساهمت في إخراجها قدرة الإختبار المناسب وجرأة الإقدام المتحقق وبعد أن أحيطت أطرافها بما أعاد إليها وجهها الإنساني، والنزعة الجماعية المتوافقة مع القدرة الجسدية والتوقد الذهني والممارسة الحية التي تترك لكل قبلة في إطار تحركها القومي لون الشهرة وضرب انتزاع دواعي الإعجاب.

لقد عودت الحياة الإنسان أن يكون قوياً، وحملته على أن يمارس كل الأساليب التي تجعله قانعاً بما يؤكد في نفسه من أسباب هذه القوة لأنه كان يدرك أن الضعف في حد ذاته فناء، وأن الهزيمة التي تكتب عليه في كل معركة تعني خضوعه لكل عوامل الإستخذاء، وارتماءه في مهاوي الذل، وقبوله بكل ما تفرضه عليه إرادة المنتصر مهما كانت هويته، وقد دفعه هذا الشعور إلى أن يظل دائماً في حالة توثب، وأن تظل أسلحته مهيأة، قادرة على الرد الحاسم وأن تبقى عناصر وجوده وصلات ارتباطه بمن يشعر بوجودهم القوة الحصينة وعلى قدر من الإستعداد. وقد حفلت صور الشعر بهذه المظاهر التي عبر من خلالها الشعراء عن الإندفاع وراء النصر، والتفاني من أجل تحقيقه والدفاع عن وجوده والإحتفاظ

بصلاته والأحلاف التي يرتبط بها، وما يترتب على هذه الصلات من تقاليد لتبقى محتفظة بكل مقوماتها، ولتظل عناصر شدها قائمة.

إن هذه المعاني التي حرص على الإلتزام بها هذا الإنسان كانت ممثلة في أبواب الشعر واتجاهات الشعراء، ودلالات المعاني التي وقفت عند كل معنى فكانت أبواب الحماسة موزعة بين الأنفة والإمتناع عن الضيم وركوب الموت خشية العار، والتشمير عند الحرب، وذم الفرار والتعيير به واستطابة الموت دفاعاً عن الشرف، وذوداً عن الأرض وتضحية من أجل مثل كريمة وقيم خيرة وغيرها من الأبواب التي مجدت الموت وعززت أسباب الحياة الكريمة واستهانت بكل تضحية جريئة وصولاً إلى الهدف السامي والمقام الرفيع وقد ترك لنا كل يوم من أيامها مادة كبيرة وقصائد مثيرة إذا ضمت إلى أليفاتها من القصائد شكلت ملحمة متميزة (فيوم الردهة) كان يوماً مشهوداً ذاقت فيه قيس القهر والويل ومثله (يوم النقراوات) و(الرحرحان) و(جبلة) وهي أيام شهدت حروباً طويلة، وأياماً عصيبة تناولها الشعراء من كل جوانبها وقد انصب جل فخرهم وحماستهم على مدح قبائلهم والإشادة برجالاتها وانتصاراتها إلى جانب المفاخر التي كانوا يتغنون بها حين يقفون على وقائعهم ولقاءاتهم في كل جانب من هذه الجوانب تتجلى صورة، وتأتلق مكرمة وتبرز مأثرة يتخذ الشاعر جسراً لينتقل إلى مدح قومه والإعتزاز بهم وهم يقفون لأعدائهم الموقف الحاسم ويرتفع صوت الشاعر المعقر البارقي وهو يشعدبعض هذه الوقائع فيصف أيامها المشهودة، ويذكر من كان فيها من الرجال وكيف كانوا لا يأبهون للأمر وقد أعدوا للحرب عدتها، وقد كانوا يطربون للنصر الذي سيكون لهم وهم يصبحون أعداءهم بكتائب تضرب الهامات، ويهوي فيها الفرسان بأسلحتهم على الخصوم كالبزاة الكواسر...

أمن آل شعثاء الحمول البواكر ... مع الصبح أم زالت ـ قبيل ـ الأباعر
وحلت سليمى في هضاب وأيكة ... فليس عليها يوم ذلك قادر
فألقت عصاها واستقرت بها النوى ... كما قر عيناً بالإياب المسافرُ

إلى أن يقول :

وقد رجعت دودان تبغي لثأرها ... وجاشت تميم كالفحول تخاطر
وقد جمعوا جمعاً كأن زهاءه ... جراد هفا في هفوة متطاير
فمروا بأطناب البيوت فردهم ... رجال بأطراف الرماح مساعر
كأن نعام الدو باض عليهم ... وأعينهم تحت الحبيك خوازر
من الضاربين الهام يمشون مقدماً ... إذا غص بالريق اللها والحناجر
ضربنا جميل البيض في غمر لجة ... فلم ينج في الناجين منهم مفاخر

وكما خلدها المعقر البارقي في قصيدته هذه فقد شاركت دختنوس ابنة لقيط ابن زرارة في هذه الحرب وكان لصواب رأيها ، وحسن تفكيرها أثره الواضح بعد أن أخذت هذه الحرب مجرى يختلف عن المجرى الذي أرادته ولكن سداد هذا الرأي بعد أن دارت على قومها الدوائر ، قد وضح وبانت حكمته واتضحت وجاهته ، ولم تكن دختنوس وحدها من نساء العرب من وقفت هذا الموقف فللمرأة في شعر الحرب مواقف مشهودة ، ولها من الموثبات ما هزت به المشاعر وأثارت الكوامن ، ورفعت فيه درجة الحماسة ، ودفعت المقاتلين إلى أن يخوضوا غمار الحروب ، ويقدموا ضروب البسالة ، ويضربوا أروع نماذج التضحية والفداء .

ومثل ما كانت هذه الحرب مثاراً لقرائح الشعراء ومدعاة لانطلاق ألسنتهم فقد كانت حرب داحس والغبراء ملحمة أخرى وقف فيها الشعراء أمثال عنترة وقيس بن زهير والربيع بن زياد وزهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني والربيع بن ضبيع وشبيم بن خويلد الفزاري وغيرهم ممن اقتحموا الحرب بأشعارهم وسيوفهم وسخروا شعرهم لمصلحتها ولإنجاح أمر قبائلهم بعد أن يمهدوا للحرب بوسائلهم النفسية من محاولات لتثبيط العزائم وإسقاط الهمم واستلاب الثقة بالنفس ونزع القدرة على القتال وتجريد الخصوم من دواعي الفخر بعد أن ينفذوا إلى مواضع الضعف ، ومواطن الخلل . وفي الجانب المقابل يحاولون تذكير أقوامهم بالأمجاد التي

سجلها الآباء والأحفاد ويضعون أمامهم الصور الكبيرة التي سجلت، والأعمال الخالدة التي حققت والتضحيات النادرة التي قدمها المقاتلون وهم يدافعون عن شرف القوم وسيادة الأبناء وكرامة العيش. وفي كل معنى من هذه المعاني تتزاحم نماذج الفخر، وتتقارب خصائص الإعتزاز وتنتشر قدرات الأبطال، بعد أن يمهد لها بما يجعلها موافقة لظروف المعركة ولم تقتصر مهمة الشعراء على هذه القصائد التي تتولى هذه المهام وإنما تمتد لتأخذ جانب الإنشاد إذا احتدم اللقاء والإرتجاز إذا حمى الوطيس وتعالى الشرر واشتدت وطأة الإجتلاد..

وتأخذ حرب البسوس لوناً آخر من ألوان الصراع ويتسابق الشعراء لخوض أيامها مخلدين الأبطال الذين شاركوا في أحداثها ووقفوا على أخبارها بعد أن عاصروا وقائعها وأظهروا من البسالة والإقتدار ما خلد مواقفهم وعزز مكانتهم فكان كليب بن ربيعة وجساس بن مرة والحارث بن عباد وغيرهم ممن أعطى هذه الحرب حقها وأمدها بأحاسيس شعرية صادقة فكان الشعر صورة لأحداثها المختلفة حتى أصبح وثيقة بيد الرواة يدللون بها على صحة الأخبار وسلامة الأحداث وأن الشعر العربي ظل قادراً على مواكبة الحرب في كثير من جوانبها منذ بداية كل معركة وحتى انتهائها، ومن الطبيعي أن تشتد سورة الشعر وتشتد قوته عندما يتقد أوار الحرب ويتزايد الصراع الذي يحتاج إلى الوقود الجزل واللهب المستعر والصورة الحادة والكلمة المؤثرة. وأن هذا الشعر كان يتفاوت من حيث كثرته وقلته من واقعة إلى أخرى وبسبب اختلاف النوازع والدوافع وأن المواضع التي تثير همم الشعراء وتوحي لهم بالإندفاع والإثارة تأخذ النصيب الأوفر لأنها تمثل نقاط التكثيف في المجال الشعري، واللقطة الملتهبة في إستثارة الحماس وأن هذا الشعر الذي كان يحمل معاني التأجيج لم يعدم العواطف الإنسانية التي تخفف من غلواء العواطف وتتجه بها الى الوجهة التي تدعو إلى إيقافها لأن العربي كان يحس بما يكابده الإنسان من أهوال الحرب. وأنه لم يكن مندفعاً من أجلها ولكنه كان مضطراً إلى خوضها ومجبراً على الدخول فيها وهو يدرك بطبيعته الإنسانية ويلاتها، ويقدر فظائعها وما تجره من أهوال. وفي أبيات

قيس بن الخطيم إشارة واضحة إلى هذه الحالة عندما يقول:

دعوت بني عوف لحقن دمائهم ... فلما أبوا سامحت في حرب حاطب

وكنت امرءاً لا أبعث الحرب ظالماً ... فلما أبوا أشعلتها كل جانب

أربت بدفع الحرب حتى رأيتها ... على الدفع لا تزداد غير تقارب

فأن لم يكن عن غاية الموت مدفع ... فأهلاً بها إذ لم تزل في المراحب

فلما رأيت الحرب حرباً تجردت ... لبست مع البردين ثوب المحارب

وكان الحارث بن عباد قد تجنب حرب بكر وتغلب، لأنه يعتقد بأن الحرب جناية حتى قتل التغلبيون فثارت حميته فقال:

ياب بجير الخيرات لا صلح حتى ... نملأ البيد من رؤوس الرجال

وتقر العيون بعد بكاها ... حيث تسقي الدما صدور العوالي

أصبحت وائل تعج من الحر ... ب عجيج الجمال بالأثقال

لم أكن من جناتها علم الله ... (م) وإني بحرها اليوم صال

قد تجنبت وائلاً كي يُفيقوا ... فأبت تغلب عليّ اعتزالي

وأشابوا ذؤابتي ببجير ... قتلوه ظلماً بغير قتال

وقد وصف العرب الحرب بأبشع الأوصاف فهي مرة المذاق غشوم، وكثيراً ما كانوا يلعنون من يتسبب فيها ويحقدون على كل الرؤوس التي تثير أسبابها أو تؤجج نارها أو تعمل على استمرارها وهم يكبرون في كثير من الأحيان من يسعى إلى الصلح بين المتنازعين، ويبادرون كل مبادرة توقف نزيف الدم وتقطع دابر الدين لا ترعبهم أهوالها، ولا تهمهم النتائج التي تنتهي إليها وفي ذلك يدلل العرب على إنسانيتهم وشعورهم بالمسؤولية ولكنهم يقدمون عليها عندما لا يجدون مفراً منها، ولا خلاص من شرها، ولا مهرباً من أذاها وعند ذلك يقتحمونها اقتحام الأبطال ويخوضونها خوض الفرسان وقد صور الفند الزماني هذه الرؤية الواضحة التي كانت تتجسد في النفوس فقال:

فلما صرح الشر ... فأمسى وهو عريان

ولم يبــق ســوى العــدوا ن دنــاهــم كما دانــوا

وبعـض الحلم عنـد الجهــل للــذلــة اذعــان

وفــي الشــر نجــاة حيــن لا ينجيـك إحسـان

فالناس كانوا يميلون إلى السلم، ويؤثرون العفو مع قدرتهم على تحقيق ما يريدون، وتمكنهم من الوصول إلى الغايات المرجوة. وقد ظلت هذه المعاني في قصائدهم، وتأخذ مجالها في حياتهم وهذا ما أشار إليه أحد شعراء بلعنبر:

لكن قومي وان كانـوا ذوي عـدد ليسوا مـن الشر في شيء وان هـانـا

يجزون مـن ظلم أهـل الظلم مغفـرة ومن إسـاءة أهـل السـوء إحسـانـا

ان القيم النبيلة التي سادت حياتهم، والروح السمحة التي صبغت وجودهم كانت تعيش في سلوكهم وتحيا في علاقاتهم وتتردد في وجودهم، وفي هذه الخصال الكريمة كانت تزدهر معاني الوفاء، وتزهو دلالات السمو والرفعة حتى أصبحت هذه الخصائص رمزاً لكل نموذج من نماذجهم، ودلالة من أدلة إنسانيتهم الحقة.

لقد اكتسب الشعراء العرب وهم يشاركون أبناء قومهم أهوالها ولحظاتها والوصف الدقيق والتصوير الحسن والواقعية في التعبير والمطابقة في الحديث عن الجانبين التاريخي والأدبي وقد استطاع هذا الشعر أن ينجز المهمة التي حددها له عصره، وأوكلتها إليه أحداثه وحققتها لصوره وقائعه ومسؤولياته فجاء صورة واضحة للباحثين وعطاءً ثراً وصادقاً لمن أراد أن يقف على دقائق الأشياء وأجزاء التطورات التاريخية، لما أنطوى عليه من ضروب حياتهم والأحداث المتباينة التي تضافرت لخلق القدرة الشعرية والحس الإنساني لأن الشعر كان نتاجاً أصيلاً من نتاجات قرائحهم وعواطفهم كانوا يفخرون وهم يسجلون لقدراتهم القتالية أروع صفحات الإعجاب، وأسمى آيات النجاح في المضامين الأدبية التي تزخر بالحياة النابضة بمعاني التضحية، كما أنهم كانوا يشعرون بالإنتشاء والزهو وهم يوظفون شعرهم لمتطلبات المعركة وحاجات القتال، وأسالب الإنتصار، كما أن هذا

الزهو يتحول إلى إعجاب مستديم، يفجر في دواخلهم طاقات الشعور الواعية التي تجد في كل تحرك ميداناً من ميادين التفوق، وإيماضة من إيماضات الإندفاع والاقتحام، والشعراء بعد هذا كانوا يجدون المتعة النفسية الخالصة وهم يسترخصون النفوس دفاعاً عن الروابط الصادقة التي تشد أبناء القبيلة الواحدة، وكثيراً ما كانت القصائد الطوال تشق طريقها إلى القلوب، وتتناقلها الألسن لتعبر عن الفداء الغالي من أجل كلمة تمس قيمة من قيمه أو تثلب نسباً من أنسابه أو ذوداً عن أرض يطمع في احتلالها غريب أو يحاول تدنيسها، أو إكراماً لشرف يستباح أو عرض يهان أو امرأة تسبى وفي كل الصور الشعرية تتجلى وحدة الأمة التي كانت تشدها القيم الكبيرة وتوحد وجودها الأهداف الخيرة وتعبر عن طموحها أناشيد الشعراء وترتيل الحرب وأهازيج النصر وهو يدفع الجحافل الكبيرة لساحات القتال.

لقد ساهم الشعر إلى حد كبير في تأكيد القدرة القتالية من خلال تعابير الشعراء، وشارك في توضيح الصورة البطولية التي كان يتمثل بها الشعراء وهم يستطيبون الموت من أجل الحياة، لأن المنطلق الشعري ظل أداة التوثيق للمنطق القتالي، وبقيت قوة الكلمة مواكبة لقوة الإندفاع من أجل تسجيل المجد القبلي، وفي حدود الإطار النضالي الذي تحدده طبيعة التعبير وسلامة إختيار الصور التي تأخذ طريق الإنتشار، لقد كانت أجواء القصيدة تجد صداها في النفوس، وتتدافع معانيها في الأفواه لأنها كانت تحمل مجد القبيلة وتعطي صورة التاريخ الحافل وتدخل في النفوس بواعث الإعتزاز، وفي ظل هذه الظواهر تعالت أشعار الحماسة، وتوقدت نوازع الإتساع في تدقيق أجزائها، وتفريع أساليبها والقول في كل باب من أبوابها، لأنها كانت تشكل الدائرة الكبيرة، وتمتلك ألوان الإعجاب التي ظلت دلالاته ترتسم عريضة في كل موضع من مواضع التفاخر وبقيت أصوات تأثيره تمتد إلى كل نفس، فهو صوت الجماعة الذي يعبر عن فكرتها وقدرتها، وهو نموذج من نماذج مظهرها الحياتي الذي ارتفع فيه مفهوم الدفاع عن كل ما يعود إلى القبيلة، وقد استطاع البطل العربي الذي استوعب

حاجات عصره أن يوفق بين هذين الجانبين ويسير في الإتجاه الذي يحقق له هذه القدرة بعد أن أدرك النزوع الذي يمتلك إعجاب أبناء القبيلة وهم يطمحون إلى المكانة المرموقة التي تجعلهم في موضع يحقق لهم السؤدد المنتظر. والكلمة المسموعة والمكانة الرفيعة والمفخرة التي يتحدث عنها الجميع. وقد استطاع هذا الإنسان بما أؤتي من خصائص متميزة أن يدفع واقع القبيلة إلى واقع جديد أهّلها إلى أن تأخذ مكانة تختلف من حيث الموقع مع ما كانت عليه، وقد أصبح الشعر لازمة من لوازم الرجال الذين يقودون القبيلة إلى مواقع النصر، ويحققون لها الظفر في الحرب والقيادة في المعارك والريادة في أخذ المواقع المتقدمة وقد ارتبطت قدرة التعبير بما يحقق لهؤلاء الأبطال ما كان يرجى منهم أن يقدموه في مجال الظروف المتاحة، لأنهم كانوا يحاولون أن يجعلوا صلة الإنتماء الإجتماعي بينهم قوية، ووشائح الإرتباط المصيري متينة ولأنهم كانوا يدركون أن معايشتهم الأحداث بدقة يؤهلهم لتحقيق المطامح المشروعة لأبناء قومهم، ويمكنهم من المشاركة في صنع الصورة التي تتبلور فيها المسؤولية الإجتماعية وفق الشكل المتكامل. ولعل منزلة الشعر في نفوس العرب وقدسيته وارتباطه بالسحر، وما قيل بشأنه من أقوال، وأحيط به من أساطير، وما رافق الشعراء من اهتمام، وأحيطوا به من رعاية من قبل أبناء قومهم قد ترك لهذا العامل أثره في تحديد العلاقة بين البطل وقول الشعر من جهة، وبين القدرة البطولية وما أحيط به من الشعر من جهة أخرى.

إن الاعتزاز بقول الشعر، والإعتداد بالشعراء الذين يحملون على عواتقهم مهمات الإحساس القومي دفاعاً وانتصاراً، إقتداراً ومجابهة يمثل الصورة الجماعية التي كانت تعطي هذا الإهتمام قدرة من التحمل، والمظهر الواسع الذي يمثل القبيلة، وفي هذين الإعتبارين تتجلى شخصية الشعر العربي الذي ظل يحمل تصور الشعور العام دون الخاص، ويتفق مع الحدود الإنسانية الكبيرة التي تلتقي عندها آمال الأفراد الذين تجمعهم صورة القبيلة وتوحد بينهم المصلحة المشتركة، ويثير اهتمامهم المصير الذي يحيط بوجودهم القبلي والقومي.

وشعر الحرب إمتداد للبطولة التي يحاول من خلالها الشاعر أن ينتزع ـ وفي إيحاءات المعاني التي تتضمنها القصائد ـ من خصمه كل أسباب المقاومة ويستلب من شخصه كل مقومات المجابهة، ويسرب إليه من ثنايا الأبيات عناصر الضعف التي يرسخها في نفس هذا الخصم، أو يؤكدها في قبيلته، معدداً له مواقع الهزائم التي منيت بها هذه القبيلة، والإنتصارات التي حققها هذا الشاعر أو غيره من أبناء قبيلته، وهي محاولة يدخل في تضاعيفها، التأثير النفسي، وتعمل فيها عوامل التداعي التي تتراكم في صور الهزائم، وتتجسد في تكثيف أخبار الفرار، وأعداد القتلى وهنا تدخل إلى نفس هذا الخصم صورة الهزيمة أمام هذا السيل المتراكم من صور الضعف التي حددها له الشاعر، وصورة القوة التي بدأ يتصورها في حديث خصمه، وبعد أن تبدأ هذه الصورة تكبر، يستغل الشاعر هذا الجو النفسي الجاهز الذي يجد فيه القدرة على الإجهاز فيجهز عليه، ويحقق نصره وهو في كل صورة من هذه الصور يدافع عن حقيقة آمن بها، ويذود عن قيم إنسانية ترسخت في كل تعبير من تعابيره ويجاهد من أجل تثبيتها في كل عمل من أعماله.

إن صور الشعر التي يستخدمها الشاعر في هذه الأحوال لم تكن موافقة للصور المألوفة، ولم تكن صيغ التعابير خاضعة للبناء الشعري الذي تعود الشعراء على سلوكه في الأغراض التقليدية وإنما هي صيغ متخصصة واختيارات مدروسة، وموضوعات محددة تقتضيها طبيعة الظرف، وتفرضها نوازع الحالة الراهنة وتأخذ بعدها طريقة الحديث المطلوب، لتكون الكلمة قادرة على أداء دورها ويكون الغرض موفقاً في طرح المسألة الحادة، ولتصبح الصورة الشعرية مشحونة بالقدرات القتالية المتمكنة التي تستطيع رفع الشعر إلى المكانة السامية التي يباشر فيها مهمته، ووضعه في المنزلة التي تجعلها مقبولة لدى الآخرين من الناس.

إن استمرار الحرب واشتداد ضراوتها قد تركت أثرها في تخصص شعر الحرب ذاته، وفي توجهه الوجهة المتحققة من الأغراض التي كان يسعى إليها الشعراء فكانت مجاميع شعر الحرب موزعة بين (الموثبات) و(المنذرات) و(المؤنبات) و(المنصفات) وفي كل باب من هذه الأبواب تتماثل المعاني وتتحدد

المواصفات، وتتفق الدلالات، ويحرص الشعراء أو الشواعر على تحشيدها وتجميعها لتأخذ طريقها إلى كل نفس لتؤدي دورها عند كل موقف لأن هذه الأصناف كانت تمثل وجهاً من وجوه الحرب فالموثبات تعني القصائد التي كانت النساء تقولها لاستثارة النفوس وتحريض المقاتلين والدعوة إلى رفض الإستكانة، وتمزيق حجاب الخنوع، وقد تضمنت معانيها كل وسائل الإستثارة بما كانت تعرفه المرأة الشاعرة وهي تباشر أغراضها وتعرف المواطن التي يمكن أن تستفز بها همم الرجال وعزائم المقاتلين، إلى جانب الأحساب بالسبي الذي تحاول التلميح له في بعض المعاني وقد استطاعت مجاميع الشواعر من النساء أن يقدم مجاميع رائعة من هذا الفن الشعري الذي يدخل عاملاً موثباً من عوامل الحرب بعد أن اكتسب خصائص متميزة، وصوراً متفقة، وإيحاءات شعرية نابضة أمتازت به الشواعر، وعرفن طريقة استخدامه ومثل (الموثبات) القصائد التي أطلق عليها (المؤنبات) والتي تتداخل في هذا المعنى لأنها تقف عند المعاني ذاتها، وتتجه الإتجاهات التي عبرت عنها، وتسلك النهج الشعري الذي نهجته. أما (المنذرات) فهي القصائد التي أنذر فيها أصحابها أقوامهم من غارات أزمع الأعداء على القيام بها، أو تحذيرهم من مغبة هجوم كاسح أوكارثة مهلكة أو مباغتة حربية، ويمكن اعتبار قصيدة لقيط بن يعمر التي أنذر فيها قومه من هجوم كسرى وما أعده لقوم هذا الشاعر من أساليب دمار وهلاك من أشهر القصائد التي قيلت في هذا الباب. وتظل (المنصفات) التي أنصف فيها الشعراء خصومهم وذكروا فيها ما أبداه من صلابة في الجلاد وقدرة على المقاومة تمثل الجانب الأخلاقي الذي تميز به العرب حتى في حروبهم وقتالهم.. لقد استطاعت هذه الأبواب أن تترك أثرها في شعر الحرب كما استطاعت أن تأخذ أحجامها في دائرتها التي كانت تتميز بالإشتداد والضراوة، وأن كل باب منها يحمل من الدلالات المعنوية والصور القتالية والأحاسيس التي كانت تصاحب هذا الضرب الشعري ما يعطي هذا اللون طابعاً فنياً متميزاً. ويحدد له الخصائص البيانية الواضحة وربما يدخل في هذا الباب أشعار التحريض أو المحرضين الذين كان

لهم الفضل في تأجيج الحماس. وإلهاب مشاعر المقاومة، وتحشيد الناس لمجابهة القوة الغازية أو الطامعة وقد أفرد لكل باب من هذه الأبواب فصل في بعض كتب الإختيار بعد أن أصبحت تياراً له مساراته وإتجاهاته عرفت المضامين التي يمكن أن تحتويها أبياته وقد وجدت بعض هذه الأغراض أبوابها في مجاميع الشعر العربي فقد أفرد الأصمعي للمنصفات باباً خاصاً في الأصمعيات وذكر قسماً منها فيها. ثم جاءت كتب الحماسة لتأخذ مساحة كبيرة في كتب الإختيار وكان حماسة أبي تمام أول كتاب أخذ مكانته في النفوس فانتزع إعجابها. ووقع عليه الإجماع بسبب الإختيار الموفق، والذوق الرفيع والحس الشعري الرقيق بعد أن خصص أوسع باب من أبوابه لموضوعات الحماسة، ولم يكتف به وإنما وضع كتاباً آخر في الحماسة أطلق عليه إسم الوحشيات. ويسير البحتري في هذا الإتجاه ليضع كتاباً في هذا الباب ولكنه يختلف من حيث عدد الأبواب ومضمون كل باب من تلك الأبواب. والتبويب الذي أدخله كان أقرب الى موضوعات الحرب وألصق بالجانب النفسي الذي يعتري أحوال المقاتلين، أو يدفعهم إلى دائرة المعركة، وقد أفرد بعض الأبواب لما قيل في حمل النفس على المكروه عند الحرب وما قيل في الفتك والإصحار للأعداء والمكاشفة لهم وترك التستر منهم وما قيل في الأنفة والإمتناع من الضيم والخسف وركوب الموت خشية العار والتحريض على القتل بالثأر وترك قبول الدية والتشمير عند الحرب وذم الفرار والتعيير به واستطابة الموت عند الحرب والإنصاف فيه ثم توالت كتب الحماسة فكان الحماسة للخالديين وحماسة ابن الشجري الذي أفرد الباب الأول منه لباب الشدة والشجاعة ثم تأتي الحماسة البصرية التي جمعها صدر الدين بن أبي الفرج البصري وهي من كتب الحماسة الكبيرة التي وقعت عند نماذج مما وصف به الإنسان من شجاعة وشدة في الحرب، وصبر في مواطنها وقد جمع في هذا الباب أكثر من مائة وأربعين قطعة والى جانب هذه الحماسات المطبوعة فهناك كتب أخرى اختارت مجاميع متنوعة من هذا الفن الشعري وما تزال مخطوطة منها حماسة الأعلم الشنتمري وحماسة الشاطبي وحماسة الشميم الحلي والحماسة المغربية والتذكرة السعدية التي طبع قسم منها.

إن هذا الأهتمام الواسع، وهذه القصائد الكثيرة التي عرض فيها الشعراء ضوعات الحرب والشجاعة والبسالة وما يتعلق بمعانيها ويتأثر بأغراضها تمثل وجه الشعري الذي أخذت قنواته تصب في المجرى الكبير الذي كان يحرك أحداث ويأخذ بناصية الدفاع عن القيم الأصيلة، ويسير باتجاه الذود عن لخصال الحميدة التي ارتفعت في النفوس واندفع الشعراء يحملون لواء الدفاع منها يوجهون الجمهور إلى التمثل بها شعراً والحرص على تربية الأبناء عليها من خلال النماذج الشعرية التي كانت تشحن بالدلالات الصادقة وقد اكتملت صورها شعراً واتسقت وزناً وقافية.

وإذا كانت المرأة العربية قد دخلت الحرب شاعرة ومحرضة فإن دورها لم يكن مقتصراً على هذه الأبواب، وإنما كانت تخوض أبواب الشعر الأخرى بنفس التصور وتعبر عن الأحاسيس التي تعتمل في قلوب الناس وهم يعالجون أغراضها بذات الإحساس. وقد بقيت أسماء الشواعر العربيات تملأ القلوب بالحمية، وتزيد في النفوس مكامن الحماسة. وتوقد في كل موقعة ألهب المشاعر، وتبث أرق الأحاسيس ولأن كل صوت من أصواتها كان يثير هزة الكبرياء، وكل موقف من مواقفهن يمثل لوحة تعجز عن تصويرها روائع اللغة وخوالد البيان، وكل عمل من أعمالهن يتجاوز خوارق القدرات، ويعتلي حواجز الموقع المحدد. وقد استطاعت المرأة أن تفرض نفسها عبر القرون لتكون نموذجاً متقدماً في كثير من جوانب الحياة بعد أن أخذت موقعها في التأليف ومكانتها في أبواب الدراسات فخصص لكل باب من أبوابها فصل فقد ألف في (أخبار النساء) حوالي خمسة عشر كتاباً تضمنت أحوالها وطبائعها وطرق معيشتها وأوصافها وما تعجب به أو تعرض عنه وما قيل فيها أو روي عنها. وألف في أخبار الشواعر مجموعة أخرى، ويمثل كتاب أشعار النساء للمرزباني قمة هذه الكتب وقد وصل إلينا جزء منه أما الأجزاء الأخرى فما تزال في عداد المفقود من التراث العربي ومثله كتاب بلاغات النساء لأحمد بن أبي طاهر الذي ذكر طرائف كلامهن وأخبار ذوات الرأي منهن وأشعارهن في الجاهلية والإسلام،

وكتاب النساء الشواعر لابن الطراح وهو كتاب جليل في عدة مجلدات ومن المحدثين جمع لويس شيخو مراثي ستين شاعرة من شواعر العرب، وجمع بشير يموت مجموعة أخرى من أشعار شواعر العزب. وتظل قدرة المرأة في العصور التي تلت العصر الجاهلي قدرة متميزة تتحقق صورها في المجالات الواسعة التي تحركت فيها، وميادين العلم التي شاركت في تقديمها، وحقول البحث التي ظلت فيها قادرة على اغناء المعرفة ورقد جوانبها المختلفة بما قدمته من عطاء. وبذلك استطاعت أن تحقق اعمالاً خالدة مكنتها من تسجيل المفاخر الحميدة والخصال الكريمة. وإذا قدر لأعمالها الكبيرة أن تجمع ولمآثرها الجليلة والإنسانية أن توحد ولمعارفها الواسعة أن تلم ولمشاركاتها المتعددة أن تحصى لوقفنا على سيرة رائعة ومسيرة خالدة، تنسج في تخليدها أروع الصور، وتكتب في مجال بطولاتها أخلد الأعمال ولبطولاتها الفريدة وتضحياتها النادرة أمجد الصفحات وأعزها، لان تاريخ هذه الأمة - وبكل جوانبه - حفل بمجد المرأة وبطولتها وزخر بأعمالها وتضحيتها، وغني بمشاعرها وأحاسيسها التي ظلت تغني به تيار الحياة، وتروي بفيضها زهو المجد الإنساني الذي حلمته في نفسها.

ومن الطبيعي أن يكون السلاح عنصراً أساسياً من عناصر الحرب لأن في قوته وقوة حامليه تتحدد النتائج. وفي حسن استخدامه تتضح ملامح القدرة القتالية للمقاتلين، وفي التدريب عليه والتنشئة على معرفة صنوفه والإستعداد لمجابهة الخصوم عن طريق الإحتفاظ به والحرص عليه تستقر طبيعة الحياة وتشتد أواصر الترابط وتوحد جهود الأمة، ولا بد أن يكون لتأثيره وجه متميز من وجوه الشعر الذي يعبر عن مقدرته ومضائه وأن الإهتمام بالسلاح ظل يعني الإهتمام بالحياة وبالوسائل التي تشارك في جعلها حياة آمنة ومستقرة، وفي تحقيق مطامحها المشروعة، وأهدافها التي لا يمكن أن تتحقق في معزل عن استخدامها في الدفاع عن الحق، والذود عن الأرض، والوقوف بوجه التحديات التي تحاول فرضها قوى البغي والعدوان. وقد آمن الإنسان منذ مراحله الأولى أن القوة التي يمتلكها تدفع عنه الأذى، وتحول دون تعرض الآخرين لمسيرته وتمنعهم من

التعرض له أو التجاوز عليه أو الإستحواذ على ما يمتلكه من وسائل الحياة وهذا ما حمله على أن يظل محافظاً على حماية السلاح لأن في ذلك حماية للنفس، وتحقيقاً لأسباب الحياة وانتزاعاً لكل حق وقع في قبضة الخصم وقد ظلت الأمم تتغنى بسلاحها وتنشد في تمجيده من غرر أدبها ما رفعه إلى منزلة التقديس والتعظيم. والسلاح عند العرب - شأنهم شأن بقية الأمم - بقي موضع اعتزاز، ومجال تكريم، ومثال احترام وتقديس لأنهم أدركوا قيمته، وعرفوا حقه، ووقفوا على أهميته التي كانت توازي أهمية الحياة، وتستوي من حيث المكانة مع ما يقدمه من جلائل الأسباب، وعظائم المواقف، وخوالد الوقائع. وقد اقترن الحديث عنه بالحديث عن الفرسان لطول الملازمة وتواصل أسباب الحياة. ولأن كل واحد منهما يكمل وظيفة الثاني ويحقق له القدرة. ويعطيه المكانة المناسبة، وقد امتازت أحاديث الفرسان عنه باصطباغ ألفاظها بلون التعاطف وتمازج عبارتها بمشاعر الإحساس بالمشاركة، وكثيراً ما يضفي الإعجاب زهاءه المشرق، وتكبر في عيون الفرسان أحجام الأدوار التي يؤديها. وتزهو في قدرة سواعدهم، قوته الخارقة وهو يطوي قامات الأبطال، ويسقط هامات المقاتلين، ويخترق الدروع اللوامع ويشق التروس المضاعفة، ويهوي بشوامخ القلاع المنتصبة. أن الحديث عن هذه الأذرع الممتدة والسواعد الطويلة التي تمكن المقاتل من خصمه وتجعله يتلوى في دائرة قبضته لا يمكن أن تكون بعيدة عن تعابيره التي تصاحب كل عمل قتالي أو تواكب كل حركة من حركاته التي تحوله إلى قطعة هامدة أو بقية إنسان تتلاقفه الشعاب وتنتهبه الوديان التي يجد فيها الملاذ.

إن الحديث الذي تحدث به الشعراء عن هذه الأسلحة لم يكن حديثاً عابراً وإنما هو حديث المناجاة والإعجاب، حديث الإهتمام بكل جزء من أجزائها وبكل ميزة من ميزاتها وكثيراً ما يأخذ الوصف مضاءها وقوتها وعنصرها وجوهرها يتحدث الشاعر عن حبه لها وإعجابه بما تؤديه له، وزهوه وهو يحملها واندفاعه وهو يؤمن بقدرة هذا السلاح بعد أن أصبح مهيئاً لمنازلة الخصوم وجهاً لوجه وبعد أن تأكدت الحقيقة في نفسه وهو يقول:

تـأخـرت استبقـي الحيـاة فلم أجـد   لنفسي حيـاة مثـل أن أتقـدمـا
فلسنا على الأعقاب تدمى كلـومنـا   ولكـن على أقـدامنـا تقطـر الدمـا

هذا الحديث كان يخرج من قلبه خالصاً، ويعبر عن إحساسه صوتاً إنسانياً متميزاً، تتناغى في طواياه أحداث الحرب، وتتماوج في ثناياه وقائع الأيام لتصبح أغنية عذبة يسجل من خلالها الرجال ملاحم البطولة، ويكتبون صفحات المجد وينشرون ألوان المفاخر بعد أن تزدهر فوق هامات الرجال أكاليل النصر، وتعلو في كل ناد لهم أصوات الإنتصار، وتعيش في كل موقعة من مواقعهم أحداث المواقف الرائدة، وكأنهم في كل موقف يرددون قول جعفر بن عُلّية الحارثي:

لهم صدر سيفي يوم بطحاء سحبـل   ولي منه ما ضمـت عليـه الأنـامـل

أو يتمثلون بقوله:

نقـاسمهـم أسيـافنـا شر قسمـة   ففينا غـواشيهـا وفيهـم صدورهـا

وبقيت ساحات القتال وميادين الحرب تشهد لهم بإقدامهم الجريء واقتحامهم البطولي وهم يعززون القول بالفعل، ويوصلـون الصـورة بـالخطـوة، ويشـدون أواصر القتال بكل ما يملكون ليجعلوها متصلة الأطراف، وموحدة الفكر، وليدخلوا من خلالها إلى كل مكرمة تسجل أو مأثرة تخلد، أو عمل إنساني تظل ملامحه واضحة القسمات، وتعيش آثاره متميزة النوازع.

إنـا لنرخـص يـوم الروع أنفسنـا   ولـو نسـام بها في الأمـن أغلينـا
بيـض مفـارقنـا تغلي مـراجلنـا   نـأسـوا بـأمـوالنـا آثـار أيـدينـا
إني لمن معشـر أفنـي أوائلهـم   قـول الكماة الا أيـن المحـامـونـا
لو كان في الألف منا واحد فدعـوا   مـن فـارس خـالهم إيـاه يعنـونـا
إذا الكمـاة تنحـوا أن ينـالهم   حد الظبـات وصلنـاهـا بـأيـدينا

والسلاح عند العرب رمز تنطوي تحته كثير من المعاني، فرفعه فوق الرأس

من أسمى آيات الإحترام، وتحطيمه يعني الضعة والذلة، وتسليمه يعني الخضوع والمسكنة، وقد ظلت هذه المعاني حية في سلوكه القتالي، يعتز بها ويتمسك بكل قيمة من قيمها، ويدافع عن كل رمز من رموزها، لأن اعتزازه بالرموز، ودفاعه عن الدلالات يوثق في نفسه قدرة الإندفاع ويحقق في ذاته سلامة الإقتدار ويولد في كيانه استمرارية الإحتفاظ بالمواطن الإنسانية التي ظل أميناً عليها، حريصاً على سلامتها، وهذا ما كان يدفعه إلى أن يحرص على اقتناء رمح مدبب وسيف صقيل وفرس جرداء، ودرع سابغة، لأن هذه العناصر متجمعة تمنحه القوة النفسية التي يتمكن بها من تجاوز مصاعب الحياة. ومقاومة أسباب الصراع الذي كان يحتدم من أجل ترسيخ وجوده، وإيقاف كل المطامع التي كانت تحاول إخضاعه لجبروتها، أو إسقاطه في دائرة استغلالها أو إجباره على الرضوخ لما تفرضه عليه من شروط، ولأن هذه الوسائل تمثل الطريق الذي يمكنه من الوصول الى السعادة والسيادة والعزة والمجد، وقد وجد الشعراء في هذه العناصر الوسيلة الممكنة لتحقيق الأهداف وهذا ما دعا عامر بن الطفيل إلى أن يؤكدها في قوله:

يوم لا مال للمحارب في الحر	ب سوى نصل أسمر عسال
ولجام في رأس أجرد كالجد	ع طوال وأبيض فصال
ودلاص كالنهي ذات فضول	ذاك في حلبة الحوادث مالي

إن هذه العدة المتكاملة وهذه الوسائل المهيئة تعطي الإنسان قدرة الدفاع وتدخل في نفسه قناعة الإقتدار على المجابهة والتصدي لأسباب التهديد، والتمكن من الاندفاع لرد أشكال الإعتداء، وإيقاف محاولات التطويق والإحتواء التي كانت تمارس لاستلاب الحس القومي والحد من المشاعر القبلية التي كانت تتأجج في حالات الحرب وتستثار في مواقف التحدي وكان الشاعر يعلم تأثير السلاح ويعرف المهام التي يؤديها في مجتمعه الذي ترك لأنواعه فرصة توسيع مجال قدراتهم، بما يستخدمونه منها باعتباره أغلى ما يملكون وأعز ما يدافعون عنه وألصق حاجة بحياتهم الخاصة وعندما تحيق النوائب، وتنزل النوازل

وتتلاحق عاديات الدهر وعبد قيس بن خفاف البرجمي يهيء للنائبات كل أنواع السلاح التي يراها ويعد لها كل متطلبات التهيئة التي تبعد عنه خطوبها فيقول:

فأصبحت اعددت للنائبا	ت عرضاً بريئاً وعضباً صقيلا
ووقع لسان كحد السنا	ن ورمحاً طويل القناة عسولا
وسابغة من جياد الدرو	ع تسمع للسيف فيها صليلا
كماء الغدير زفته الدبو	ر يجره المدجج منها الفضولا

إن تقديس العرب للسلاح كان ينبثق من الحاجة الحقيقية التي كان يؤمن بها ومن الإحساس العميق بما كانت تؤديه له كل عناصره ومن هنا كان تعظيمه لها وإعجابه بها وتعاطفه معها وكان يعد نفسه غنياً لو استطاع الحصول عليه ووضعه في بيته وكثيراً ما كانت نظرات الإعجاب هذه تتحول إلى حب متبادل لأنها وسائلهم في تحقيق الحياة وصيانة الشرف والدفاع عن العزة وتطمين الرغبات، ولعزة مواقعها في نفوسهم، وقيمتها في حياتهم كانوا يرهنونها إذا أصابهم أمر عظيم أو حلت بهم كارثة، أو تعرضوا لمسألة قاهرة، وأن قيمة السلاح لا تكمن في شكله أو صنفه ولكنها تمثل شرف الرجل وهو قائم بما رهنها له مهما كلفه الأمر، وفي قصة حاجب بن زرارة ورهنه لقوسه تتمثل هذه المعاني وتتجسد الخصال العزيزة التي ظل حريصاً على الوفاء بها.

إن اضطرار العرب إلى اتخاذ هذه المواقف كان يتجدد في إطار الدفاع عن النفس ورد الهجوم والتصدي لمن يحاول الإغارة وأن ظروف الحياة القاسية التي كانت تفرض عليه أن يجيد الحرب، ويتقن أساليب القتال وأن تكون الفروسية هي المثل الأعلى. والهدف الذي يسعى إليه كل مدرك لواقعه، متحسس بظروف حياته، وأن تكون الشجاعة بكل ضروبها وسيلته الناجعة للوصول الى هذا الهدف، ولا غرابة بعد هذا أن يكون التدريب على القتال، ومعرفة طرق الحرب وما يتعلق في ذلك من ممارسة ركوب الخيل، وتحمل المشاق منذ الصغر، ومقاومة التحدي وتمجيد معاني الشجاعة والجرأة والتضحية والوفاء، الأساس الأول في

التربية العربية التي تحرّص عليها العربي، ويسعى من أجل ترسيخها في نفوس أبنائه ليتمكن من إبقاء استمرارية هذا الجانب الموروث، والحفاظ على هذا التكوين الحربي الذي تظل وشائجه متصلة، وقنواته دائمة العطاء ولتبقى القـدرة القتالية العالية هي المعيار الذي يحدد الموقع، ويؤكـد الوجـود، ويشـد الأبنـاء بالمجد الذي يحرصون عليه. وهذا ما كان يدفعه أيضاً إلى معايشة سلاحه بكل حياته، ويتسمع لكل همسة تختلج فيه، ويتلمس كل حركة يحاول التعبير بها، حتى كان يناديه بأسمائه المشوقة وألقابه المحببة، ويدعوه عندما يجد نفسه بحاجة إليه ويناجيه حينما يجد الضرورة واجبة، وفي الطرف الثاني من الصورة كان السلاح أميناً على واجباته، مخلصاً في أداء هذا الواجب، ملتزماً بما كان يوكل اليه من مهمات، فيستجيب لنداء الفارس الشجاع، ويلبي دعوة البطل المغوار وقد توثبت كل عروقه، وتحركت كل أطرافه وأجزائه وفي مجال التوافق النفسي والإنسجام الروحي الذي يشد بينهما تتعالى قـدرة الإعتـزاز، وتلـوح إمـارات الفخر وتشرق قسمات النصر، وتزداد الصلة عندما يعرف الفارس (بصاحب الصمصامة) أو(ملاعب الأسنة). ويظل الفارس أميناً على شرف سلاحه وهو يتحرى نسبه وسيرته ومضاءه، وشدته في احتدام المعارك، ويتعقب أيامه باحثاً عن انتصاراته وكان من عادة العرب أنهم إذا أصابوا سيفاً قاطعاً تناقلـوا خبره وأطروه وظلوا يذكرون وقائعه وقد تجلى اهتمام العرب بالسلاح في تخصص الشعراء بوصفه ومتابعتهم لمراحله التي يمر بها فكان أوس بن حجر من أوصف الشعراء للسلاح ولا سيما القوس وكذلك كان الشنفرى الذي كان من أكثرهم وصفاً للقوس، ومثلهما الشماخ وفي كل لوحة من ألواح هؤلاء الشعراء تتضح البراعة، وتبرز قدرة المعرفة الدقيقة ورغبة الوقوف على ما يؤديه، ويتجلى هذا الإهتمام في كتب السلاح التي حفلت بها كتب اللغة والأدب والتاريخ فقد ضم كتاب ادب الكتاب لابن قتيبة والعقد الفريد وفقه اللغة للثعالبي والمخصص لابن سيدة ونهاية الأرب للنويري وحلية الفرسان لابن هذيل الأندلسي فصولاً لكتب السلاح وعرضوا فيها لكل أصنافه وهي مادة كبيرة يمكن دراستها وتحليلها

والإنتهاء منها إلى نتائج موضوعية مهمة تكشف عن هذه الظاهرة عند العرب والأهمية الكبيرة التي استغرقتها في أدبهم والمعاني الكثيرة التي تناولوا بها هذا الجانب، واثر ذلك في شعر العرب الذي اتسعت أبوابه، وأمتدت معانيه.

إن هذا الحديث يدفعنا إلى أن نقف عند صناع هذا السلاح الذين أبدعوا فيه وبرعوا في صنعته (فابن مجدع) و(ردينة) و(سمهر) و(قعضب) كلهم ممن نسبت اليهم السيوف والرماح، ولم تكن (ردينة) المرأة العربية بعيدة عن هذه الصناعة التي اقترن اسمها بكل رمح يصيب الخصوم أو يظهر من المضاء ما يدعو صاحبه إلى أن يتغنى باسمه فيقول عميرة بن جعل:

أصم ردينيـا كـأن كعـوبـه نوى القسب عراصاً مـزجـاً منصلا

ويقول الحصين بن الحمام:

يهزون سمـراً مـن رمـاح ردينـة إذا حركت بضت عـواملها دمـا

ولم يكن السيف والرمح وحده قد استحوذ على معاني الشعر وإنما كان يتجاوزها إلى القسي التي نسبت إلى (رضوى) وهي امرأة عربية أخرى عرفت بصنع القسي وكانت القوس رمز الرجولة ودليل الشرف، لأنها الرفيق المخلص والوسيلة الوفية وقد عرف العرب بمهارة استخدامها، وقدرتهم على إصابة الأهداف فقد ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد أن العربي كان يستطيع أن يرمي بالنبال فيصيب إحدى عيني غزال دون العين الأخرى، وكان أحدهم يعلق ضبية بشجرة ويرميه بالنبال فيصيب أي عضو شاء من أعضائه حتى يرمي فقراته فقرة فقرة فلا يخطىء واحدة منها، وكما اهتم العرب بالقوس فقد اهتموا بصوتها وبلونها، فهي في ضوء ما وصل إلينا من الشعر صفراء دائماً ولكن الشنفرى يصورها لنا حمراء تارة أخرى أما أصواتها التي كانت تحدثها عند الرمي فقد كانت تفتنهم فتنة شديدة تبدو في تلك الصور الشعرية التي رسموها، وتتجسم في الأصوات الحزينة المعولة التي شبهوها بها وهذا ما حمل الشنفرى على أن يتحدث عن هذه الأصوات وهو يعبر عن إحساسه الداخلي وغربته المؤلمة بعد

أن انقطعت به السبل وتباعدت بمسيرته المهالك وتهادته التنائف. ويقف عند السلاح الذي أصبح الرفيق الحقيقي له في رحلته الطويلة، وعلاقاته الإنسانية فيقول:

وإني كفاني فقد من ليس جازيا ... بحسنى ولا في قربه متعلل
ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع ... وأبيض اصليت وصفراء عيطل
هتوف من الملس المتون يزينها ... رصائع قد نيطت اليها ومحمل
اذا زل عتها السهم حنت كأنها ... مرزأة ثكلى ترن وتعول

وكما اهتم العرب بأصوات القسي وألوانها اهتموا بصنعها وكيف كانت تعمل والشجر الذي تؤخذ منه، وكيف يتعهدون عوده وهو صغير فيختلفون إليه حتى يصبح صالحاً لاتخاذ القسي، ثم يبدأون بسقيها ماء لحائها، وتتم هذه العملية بتقطيع هذا العود وهو رطب ثم يترك في الظل حتى يجف ليكون أكثر صلابة. وقد صور لنا أوس بن حجر ذلك بتفاصيل دقيقة وملاحظات شعرية توحي بالإهتمام الكبير الذي كان يوليه لهذا السلاح وكذلك صنع الشماخ الذي تابع أوس بن حجر فوصف قوسه منذ أن كانت قناة من نبع إلى أن تمت تسويتها وأعدت للرمي وقد تجاوزت أبيات كل واحد من هذين الشاعرين أكثر من ثلاثين بيتاً وفي لوحتيهما يبرز الفن الشعري الرائع، وتتجسد الشاعرية الفذة التي دفعت هذين الشاعرين إلى أن يخصصا هذا الشعر للحديث عن السلاح الذي كان الوسيلة الأساسية في بناء الحياة والمجال الحقيقي الذي يمكن أن تتحرك في إطاره القصيدة الحربية لأن هذا الجانب يمثل وجهاً واحداً من وجوه الشعر الحربي وهو الوجه الذي أخذ الشعراء مهمتهم في إبرازه والإعتناء به والوقوف على مظاهره أما مضاء هذا السلاح وصور القدرة القتالية العالية التي يؤديها المقاتل والميدان الفروسي الذي تتشامخ في رحابه وطأته فهو مجال آخر يمكن الحديث عنه في موضع آخر.

لقد بقيت الحرب سبباً مباشراً من أسباب الإستثارة. وحافزاً قوياً من

حوافـز الدفع الشعري، وعاملاً حاسماً من عوامل التأثير في توجيه العواطف وإنضاج الأحاسيس وقد التفت إلى هذه الحقيقة ابن سلام فقال: (وبالطائف شعر وليس بالكثير وإنما كان يكثر الشعر في الحروب التي تكون بين الأحياء، نحو حرب الأوس والخزرج أو قوم يغيرون ويغار عليهم، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة (العداوة تقع بين القوم فتثير الشرور) ولم يحاربوا وذلك الذي قلل شعر عمان وأهل الطائف)[1] وابن سلام في هذه المقولة يتحسس الآثار الواضحة التي يعكسها الشعر، ويحققها الشعراء وهم يتبارون في ميادينها، ويعبرون عن إحساس الناس الذين تتصاعد في نفوسهم الصور الإنسانية التي تحاول أن تقدم الأعمال الجليلة والمواقف الحاسمة، وأن كل جانب من هذه الجوانب يعالج صورة من صور الحرب ويشارك في إبراز قدرة من قدرات المقاتلين، ويحقق صوتاً إعلامياً متميزاً من الأصوات الجريئة التي كانت ترتفع لتجد الموقع المناسب، والشعر في كل هذه الأطر يمثل الصورة الواسعة التي يختفي في زواياها أصداء المعارك، وملحمة اللقاء، وقدرات الشعراء الذين يحرصون على تحديد ألوان المعركة، وحركة الأحداث، وقدرات الرجال، والمآثر التي يمكن أن تضيف إلى القبيلة مجداً جديداً، أو مكرمة حميدة تزيد في اندفاع الأبناء وتترك للأجيال القادمة موروثاً من الخصال يترك لهم مجال التباهي في نوادي القوم. وابن سلام في هذا التعليل يقف على الأسباب الحقيقية التي كانت تدفع الناس إلى الحرب وتؤجج نوازع القتال وتثير كوامن الصراع، وهو كذلك يعطي المسألة الشعرية حقها في التعبير من خلال الموضوع الكبير الذي يثيرها، والدافع الأكيد الذي يلهب وقودها الجزل، ويغذي شواظها الملتهب، وابن سلام في هذا التحديد يفسر الظاهرة الأدبية تفسيراً واقعياً، بعد أن استطاع تشخيص العامل المؤثر في بروزها، وتحديد العنصر الفاعل في توسيع مداها، لأنها كانت تمد الشعراء بروافد غنية، وتهيء لهم مجالات رحبة، وتترك لهم الميادين العريضة التي تنطلق فيها المواهب وتزدهر براعم القدرات وتتبارى إبداعات الشعراء بما

---

(١) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء (١/٢٥٩).

يجدونه من موضوعات تفسح لهم الطريق واسعة، وتمهد دروب الوسائل التي تمهد لها الحرب.

وإذا كانت موضوعات السلاح قد استأثرت بجانب كبير من جوانب شعر الحرب فإن أعمال الرجال وما أبدوه من تضحيات وسجّلوه من انتصارات وقاموا به من أعمال كان لوحة أخرى من لوحات هذا الشعر الذي بقيت صفحاته الخالدة تتغنى بها وتقدمها للأجيال باعتبارها مظهراً آخر من مظاهرها، ووجهاً متميزاً من وجوهها يعبر عنه الإنسان الذي يدير دفة الحرب، ويحرك أطرافها المتباعدة، ويثير في كل جزء من أجزائها اللون الحسي وينثر في حومات نزالها خفقاته التي تخفف من احتدام توقدها، لأن المظاهر الإنسانية التي تتجلى في أخلاق المقاتلين وطبيعة سلوكهم الإنساني، وإنصافهم وخصومهم، ورعايتهم لمن يقع في أيديهم من الأسرى والجرحى كانت تأخذ الزاوية الحية في الحرب، وكانت تخفف من أوارها المتأجج وتمنح المقاتلين ظلالاً من ظلال الحس الأخلاقي الذي تميز به أبناء هذه الأمة وهم في أحلك ساعات الصراع، وأشد مواقف الحسم، ومثل ما كانت نوازع هذا الجانب تستثير حسهم الإنساني فإن مظاهر البطولة والثبات وقت الشدة، وقدرة المقاومة والصبر على المكاره ومطاردة الأعداء كانت تمتد إلى دائرة أخرى من دوائر الإحساس لتعطيه من فيض مشاعرها ما يوازن المعادلة ويحقق للحرب صورتها الحماسية، وعندها تتكامل لوحة هذا الغرض عندما تتحقق الغايات في كل طرف من أطرافها بعد أن يؤدي المهمة التي اضطلع بها. فالشاعر الذي اختلفت في نفسه الأحاسيس وتحركت في دواخله العواطف وأخذت منه مواقف الحرب مأخذها استطاع أن يصوغ الموقف بما يناسب هذا الجو النفسي ويعطيه من الألوان والضلال ما يترك لقومه المنزلة التي لا تسقطهم في دائرة الإنكسار أو الخذلان، ولا تجعلهم مجالاً لاحتمال الهوان أو عرضة لأقوال الآخرين الذين يوغلون في إيذائهم. والشاعر في كل هذه الأحوال يندفع من مواقع الحرص على أبناء قومه الذين وضعوا فيه كل ثقتهم، وتركوا له تقدير الموقف، وسلموا إليه مقاليد أمورهم وأعلامهم، وهو

يجد أمامه فنون شعرية وأبواباً فنية، ورحاباً واسعة من الموضوعات التي تعطيه مجال التحرك، وتترك له فرصة الإختيار ليأخذ منها ما يلائم ظروفه، ويوازي الواقع النفسي الذي اعترى أبناء قومه في كل الأحوال.

إن هذه الحقائق التي استأثر بها الشاعر وهو يؤدي مهمته، والشعر وهو يوظف لهذا الفن العريض تجدد الموقف الواضح الذي تسنمه وسط أحداث متراكمة وظروف معقدة وأيام متوالية وحروب مستمرة حتى أصبح بإمكانه أن يكون السبب المباشر في إشعال نار الحرب أو إنهاء جذوتها وإيقاف لهيبها واستلال الضغائن التي تتمكن من القلوب وتأخذ بكل النوازع التي تدعو إلى استمرارها.

وبإمكانه أيضاً أن يكون الصوت الذي يرسم صورة الفواجع الدامية التي تترتب عليها وينذر الداعين إلى تأجيج أسبابها ويكون الصرخة القوية التي تحفز القوم إلى التهيؤ، والنشيد الحربي الذي يشد الأبناء إلى الدفاع عن الأرض والذود عن الحمى والحرص على القيم النبيلة التي تصان حرمتها. وبإمكان هذا الشاعر أن يتحدث عن الحرب في كل غرض لأن أواصر الشد بين كل الأغراض تتصل بهذا الفن الشعري لأنها تصب فيه وتنبثق منه، وتنسجم مع كل المعاني التي يريدها الشاعر، باعتبارها عوامل أساسية في تكوين الإطار العام لها، وعناصر فاعلة في تحقيق الهدف المطلوب منها، وجزئيات متحركة في تشكيل الخطوط العامة التي تنتهي إليها وأن كل صورة من صور الحياة تتحقق في صورتها التي لا يمكن أن يوفرها الإنتصار وأن كل مجد بطولي يضفي على الأبناء هيبة الإحترام، ووقار الإعتزاز يتحدد في مجال التضحية الفذة التي يشيد بها الشاعر أو تتم في عمل يقوم به أحد أبنائها ويتحول على لسان الشاعر أبيات فخر خالدة، يتناقلها الأبناء في كل ميدان، وينشدونها عند كل محفل. وفي ألوان فنونها المتقاربة تتصاعد هواجس الإنسان وهو يقف على عتبات المراحل الحاسمة، ويتصور النتائج المتوقعة ويقدر المصير المنتظر، وفي عزمات الرجال الميامين الذين يملكون القدرة على تحقيق الموقف وفي شدة قبضاتهم التي تسدد إلى الرؤوس

والصدور، وفي سرعة انقضاضهم وهم يتحكمون في إدارة محور المعارك، وفي سعة خطواتهم وهي تصل الرماح إلى نحور الأعداء، تكتب الملاحم الخالدة، وتعظم المواقف الرائعة ويحدد الرجال الأبطال الذين تظل عيون القوم مشدودة إلى أعمالهم التي توجه المعركة، وأفكارهم التي تعطيها الوجه القتالي، وحكمتهم التي تقرر النتائج الباهرة. وأن هذه الأشكال الجديدة التي أفرزتها أحداث الحرب قد وسعت دائرة الشعر العربي حتى أصبح يتحرك فيها ويغترف من مناهلها كما أنها فرضت عليه مهمات جديدة وتبعات قبلية وقومية أصبح ملزماً بالدفاع عنها. وخاضعاً للإستجابة لها لأن التزامه بها وانصرافه إلى معالجة شؤونها كان المعيار الحقيقي لموقفه الملتزم، والمقياس الذي يترك للآخرين تقويمه من خلاله. وفي ظل هذه الحقائق أصبحت الصورة في ذهنه مترابطة ومتداخله تتماسك فيها مهمته القبلية وموقفه الشعري، وتتحدد في دائرتها قدرته الشعرية ومواكبته التي تمكنه من انتزاع المواقف الحادة والإلتزامات الحاسمة وهو في كل هذه الصورة العنصر المقتدر في توجيه الأعمال وما يترتب عليها في كل باب من أبواب الحياة الأخرى التي تجد طريقها إليه.

والشعراء كانوا يدركون أن الفارس وهو يمارس ألوان الشجاعة، ويقدم نماذج الإقتحام البطولي وهو جزء لا يتجزأ من المجتمع الذي منحه هذه الصفات ووهبه هذه المسؤوليات. وأن الأبناء الدين يتطلعون إلى هذه الصورة والنساء اللواتي يراقبن هذه الصفة الحميدة يعلمون بأنهم يخوضون ميدان تدريب، ويعيشون مجال تجربة، وأنهم سيتحملون هذه المهمة في يوم من الأيام وسيؤدون دورهم على الوجه الأكمل بما يحقق لهم مثل هذا الفخر المسجل، ومثل هذا التاريخ الخالد وأن هذا التفكير الذي كان يشغل الجميع حدد المسؤولية لكل واحد وأن التبعات المترتبة يتحملها الكل دون استثناء، فالنصر الذي يحققه أي إنسان من أبنائها هو النصر الذي يتوج حياتها، ويرفع مكانتها، ويعلي قدرها، وأن الإرث القتالي أو الظفر البطولي الذي يكتب في أية معركة هو الإرث الذي تبقى عناصره فاعلة في كل مأثرة تذكر لهذه القبيلة، ومن هنا كانت التربية

الحربية والحرص على بقاء السيادة جانباً آخر من الجوانب الشعرية التي اهتم بها الشعراء وهم يعالجون هذه الموضوعات لأن الحفاظ عليه والحرص على استمراره وبقائه كان يترك لهم فرصة التطلع إلى المكانة الرفيعة فلا يهلك منهم سيد إلا أخذ عنه الأمر غلام سيد، وقد عد ذلك من ظواهر الإعتزاز والفخر ولأن الإحساس الذي يسيطر على طبيعة التربية يصبح في مجال التأثر المستمر بالصورة التي يطمح الجميع إليها بعد أن أصبحت اللوازم مهيأة، والعناصر التي تحققها قائمة وهذا ما دفع الشعراء إلى ترسيخ هذا المعنى...

وليس يهلك منا سيد أبداً إلا افتلينا غلاماً سيداً فينا

أو كما قال لقيط بن زرارة:

وإني من القوم الذين هم هم إذا مات منهم سيد قام صاحبه

أو قول السموأل:

إذا سيد منا خلا قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول

أو قول حاتم الطائي:

إذا مات منا سيد قام بعده نظير له يغني غناه ويخلف

أو قول عروة بن الورد:

إذا مات منهم سيد قام بعده على مجده عمر المروءة سيد

فالسيادة في استكمال الصورة التربوية للنشء، والحرص على بقاء روح التطلع عندهم وتوجيه القدرات الحيوية الوجهة التي تحتاج إليها القبيلة كانت تمثل الطرف الأول من التوجيه الإجتماعي والفكري للأبناء كما أن الحرص على استمرار وجود هذا الإحساس في كيان القبيلة والتأكيد على بقائه حياً في كل مفصل من مفاصلها، يشكل النظرة الشاملة للإطار الذي كانت تدور فيه كل أعمال القبيلة، ويحدد لنا مجال التفكير الذي ترسخت قيمه في هذا المجتمع وأن

هذا التفكير كان يتشابك في الملامح المتداخلة لصورة البطل الذي كانت تتحدد في خصائصه كل الصفات التي تفتش عنها القبيلة لأن اختياره والوقوف على صفاته، والتأكد من الخصائص التي تؤهله يعني استمرار المجد والقدرة، ويعني بقاء القبيلة مؤمنة بوجود النموذج والرائد الذي ظلت تفتش عنه وتسعى إلى الإهتداء إليه من خلال القيم الإجتماعية والمثل التكوينية التي تعطيه هذه الخصيصة، وأن الإستعداد الذي كانت تهيء له القبيلة في كل أشكال التربية والإعداد والإستكمال كان يعطي القبيلة حرية الإختيار أولاً والتفضيل في حالة الإستواء ثانياً وتهيئة البديل في حالة الفقد ثالثاً، وأن هذا الحرص الذي يترك مجالات الإختيار مفتوحة كان يتيح فرصة التنافس لتقديم القدرة الأحسن، وأن ترسيخه في كل النفوس ومن خلال التجارب والممارسات يبعث في نفوس الأبناء الثقة ويعمق الإيمان بسلامة الحفاظ على سلسلة الفرسان الذين يظلون يحملون ألوية النصر ويرفعون غايات الظفر، ويحققون المطامح المشروعة.

والشعر الذي أعطى كل جوانب الحرب حقها استطاع كذلك أن يواكب دقائقها بإمعان، ويراقب وقائعها بتأمل لأنه كان يحرص على أن يعطيها حجمها الذي تستحقه في الموازنة وأن كل الصور الشعرية التي كان يقدمها كانت تستمد أشكالها من البيئة الحية والظرف الطبيعي الذي يعرفه كل المحيطين بها ويتصوره كل الذين يشقون دروبها، وعند محاولة مقارنة بين حقيقة الحرب والصور التي شبهت بها في كل مرحلة تتوضح قدرة الشعراء على هذه الإستعارات، وحكمتهم في صياغتها، ومعرفتهم بما يمكن أن تؤديه كل منها في مجال المواجهة وقد دفعهم هذا إلى أن يحسنوا الإختيار فالحرب عندهم طاحنة تهلك الناس وتبيد البشر وتفتت الجمع وتسحقهم فتجعلهم طحيناً متبدداً لا يجمع شمله ولا توحد أجزاؤه.

وفي أبيات عمرو بن كلثوم إشارة صريحة إلى ذلك حيث يقول:

متى ننقل الى قوم رحانا	يكونوا في اللقاء لها طحينا
يكون ثفالها شرقي سليمى	ولهوتها قضاعة اجمعينا

أو قول مهلهل بن ربيعة:

كـــأنـــا غـــدوة وبني ابينـــا بجنـــب عنيـــزة رحيـــا مـــديـــر

أو كقول زهير بن ابي سلمى:

فتعـــرككـــم عـــرك الرحـــى بثفـــالها وتلقـــح كشـــافـــاً ثم تنتـــج فتتئـــم

وقد أخذت هذه الصورة مساحاتها في قصائد الشعراء وهم يتحدثون عن ثقلها وقوتها وشدتها وكيف يكون الخصم طحيناً بعد أن تطبق عليه الرحى، وكيف يسحق ويتناثر على ثفالها متساقطاً من بين فجواتها ومتخذاً من دروبها ملاذاً يحاول التسلل منه والعبور من فتحاته. ولا بد أن تتعاظم هذه الصورة في ذهن الإنسان وهو يتابع المراحل التي تتهاوى فيها دورات هذه الرحى وأصواتها المتلاحقة وهي تطبق بكل قوتها على اللهوات المتوالية التي تغذى به فوهة الرحى وكيف تتحول في جولة واحدة إلى مسحوق متطاير أو شذرات متناثرة[1].

وقد وجد الشعراء في صورة النار شاهداً آخر من شواهد الحرب ولوناً متميزاً من ألوانها التي تغمر الأعداء فتحيلهم إلى رماد، ووجدوا في مفرداتها مجالاً للإستخدام الموحـي بـالتـأجيـج والإلهاب والتشبيـب والتسعير والإيقـاد والإضرام وما ينتج عن ذلك من وهج وشرر ولهب. والنار في شواظها اللاهب وسعيرها المضطرم والتهامها ما يقدم إليها من وقود جزل صورة مرعبة، وفم لا ينهي شرهه وحفرة لا تملأ أشداقها، واستعارة الشاعر لكل ما يحيط بها ويملأ زواياها تثير نوازع الخوف وتحفز عناصر الرعب وترهب قلوب المذعورين الذين يخشون دبيبها ويخافون سريانها، ويتهيبون دخولها. وأن الذي يبعثها ويحاول إثارتها يتحمل جناياتها، وتقع عليه أعباء تأجيجها، وهذا ما حمل قيس بن الخطيم على أن يقول:

وكنت امرءاً لا أبعث الحرب ظـالماً فلما أبـو أشعلتهـا كـل جـانـب

---

(١) تنظر نماذج هذه الصورة في كتاب شعر الحرب لعلي الجندي /٤١٤ - ٤١٥.

وكقوله في قصيدة أخرى:

إن بني الأوس حين تستعر الـ ... حرب لكالنار تأكل الحطبا

ويوغل عامر بن الطفيل في هذه الأوصاف حين يقول:

وأنا ابن حرب لا أزال أشبها ... سعراً وأوقدها إذا لم توقد

أما لقيط فيجعل شهاب الحرب علامة من علامات الإنذار وسطوح لهيبها إشارة من إشاراته وهو يحذر قومه من غزو فارسي تعده قوى الغدر فيقول:

ما لي أراكم نياماً في بلهنية ... وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا

وكثيراً ما كانت تقترن بهذه الصور صورة الإنسان الذي يقود المعركة ويستعد لنتائجها المتوقعة ويهيء لوازمها وأدواتها وهو في كل حالة من حالاتها يجد لها قرينة تتفق مع شدتها، وتتوافق مع حالتها وكثيراً ما كانت صورة الناقة وهي تلقح ثم تلد من الصور القريبة التي وجدوا وجه الشبه فيها واضحاً، لأنها عندما تلقح تكون محملة وكذلك الحرب التي تلقح فتكبر الأخطار وتزداد المصائب وتتعاظم الفواجع وأن ولادتها تتمخض عن ويلات ومآسي وآلام وهموم وكل ما يعود على الذين أثاروها بالدمار والخراب والإنهيار وأن غلتها ونتيجتها لا تسر وإنما عطاؤها هو كل ما تكرهون، وأن نتاجها هو كل مايبعث في نفوسكم السأم والملل والضجر وأن وطأتها وشدتها وقسوتها ستكون ثقيلة وسيتحمل أولئك الذين دفعتهم الأحقاد إلى مباشرتها كل النتائج المترتبة عليها، وسيقعون في دائرة أوزارها التي لا ترحم..

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضر إذا ضريتموها فتضرم

فتعرككم عرك الرحى بثفالها ... وتلقح كشافاً ثم تنتج فتشئم

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم ... كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

وتتوزع صور الحرب بين الأشكال المستهجنة الأخرى التي تثير الإشمئزاز وتترك مرارة الأثر وتؤدي إلى الطعم المستوخم، وبين الحيوانات التي تكشر عن

نابها، وتلقف ما تراه وتبتلع ما يقدم لها، وهي في غالبيتها صور لا يجد فيها الشاعر إلا الشؤم ولا يتوقع منها إلا الشر ولا يحس عند مجابهتها إلا الشراسة والوحشية وكأنهم كانوا يرومون من خلال كل هذه الصور استهجانها ودفع الناس عن الوقوع بها ووضع الداعين لها في مواضع النقد وحصرهم في دائرة الضوء التي تظل اللعنات تصب عليهم جراء ما اقترفت أيديهم بحق قبائلهم وشعوبهم بسبب دفعهم إلى الهاوية وإلحاق الضرر بهم، وفي كل محاولة من محاولات الشعراء كانوا يهيئون لصورة البطل الذي بقيت ملامحه ترتسم في كثير من المفاخر ،وظلت دلالاته قيمة تتوارد في كل أسلوب من أساليب الحياة، وتدخل في كل مجال من مجالات تقويم الأعمال الإنسانية من أجل أن تبقى هذه الصورة الشامخة حية في ذات الأمة، وكما بقي معنى الحرص على استمرار وجود البطل صورة من صور البقاء والخلود فقد بقي هذا المعنى نموذجاً في قصائد الشعراء لأنه يمثل زاوية أخرى من زوايا ذلك الإستمرار، وأساساً من أسس الحفاظ على دلالة البطولة في التكوين القبلي والقومي، وفلسفة التضحية التي كان يقدمها الفرسان كانت تجسيداً حياً لمفهوم القدرة على امتلاك ناصية المرحلة البطولية التي كانت تعيشها الأمة في تلك المرحلة وهي تجسيد لحيوية الأمة، وإدراك لاستمرار تحركها الدائم من أجل تحقيق الذات، ومن هنا كانت أعمالهم تمثل النضال الدائب والممارسة الفعلية لما تعانيه الأمة في ذاتها من أجل استمرارية وجودها وانتزاع كل الأشكال الضعيفة والسائبة والمتخاذلة التي كانت تلوح في بعض المواقف.

لقد حاول هؤلاء الفرسان ترسيخ مفاهيم البطولة في مقارعة الخصم، وتجاوز المواقف الضعيفة إلى المواقف الحاسمة مهما كلفتهم من تضحيات، لأنهم كانوا يعلمون أن الحفاظ على الوجود والدفاع من أجل تثبيت المفاهيم تحتم عليهم أن يتخذوا هذه المواقف. ومن هنا كانت صور الهزيمة والفرار والبخل والإمتناع عن تلبية نداء المحتاج، والهجاء بكل أشكال الصور المخيفة في المجتمع تعد من الصور التي يأنفون أن يوضعوا بها لانها تحمل الذل وتطبعهم بطابع المهانة وتصمهم بوصمة العار، لأنهم يعلمون أن وصمة الهجاء سوف تلحق بهم لأجيال طويلة.

وسوف تظل أجيالهم تعاني منها، وتتأثر من أسبابها، وتتحمل من تبعاتها، وهم يشعرون أيضاً ان تثبيت خصائص المجتمع وخصاله الأصيلة تتنافس مع هذا الجانب الذي لم يترك في بناء المجتمع إلا قيماً هزيلة، وخصائص مرذولة، فالحياة في أعرافهم وممارساتهم كانت واضحة تجلت فيها كل مظاهر تمجيد القوة، لأنها السبيل الذي يرسم طريق العز، والصورة التي تؤكد الوجود والذات، ولأنهم أدركوا أن الضعف مظهر الإنحلال وطريق الفناء وسبيل الإستسلام والضياع، لقد كان المفهوم الإنساني الذي تمثله الأمة امتداداً لبطولة تاريخية عريقة، توطدت مفاهيمها في نفوس الأجيال وتواصلت حقيقتها في السلوك القتالي المستمر الذي ظل يلح على إبراز هذا الجانب ويؤكد من خلاله الممارسة الدائبة التي كانت تتبنى الذات العربية في صفة خيرة وخصلة كريمة، وفضيلة محمودة، وهي أطراف كانت تحدد الصورة المتكاملة للشخصية العربية، وتحقق الإطار الإنساني لتكوينها المباشر، لأنها لم تقف عند حدود القوة، ولم تستمر في دائرة القسوة. أو تهوى في منزلق التجاوز اللاواعي، وإنما هي لوحة متكاملة تتداخل فيها الخصائص الإنسانية البناءة، وتتشابك في تلوينها روائع التفاني والتضحيات. وتزدهر في أعماقها خوالد المواقف الرائدة في كل مجال لأنها صورة للإنسان الفذ، ونموذج للقدرة الموجهة المتمثلة في قول بشامة بن الغدير:

لو كان في الألف منا واحد فدعوا ... من فارس خالهم إياه يعنونا

أو قول طرفة:

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني ... عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

أو قول الآخر:

إذا القوم قالوا من فتى لعظيمة ... فما كلهم يدعي ولكنه الفتى

إن صورة الإستجابة وفق الشكل الذي حدده الشعراء يعكس لنا مفهوم الوفاء الذي ظلت الأمة حريصة عليه، ومفهوم الشجاعة والمروءة الذي ظلت تتحدى به الموت، وتتعامل بموجبه مع كل الأحداث، وتستهين بكل النوازع التي تحاول الإستحواذ عليها رغبات الحياة الضائعة، وتتقدم بكل جرأة وشجاعة

لتحمل راية الإقدام بلا تردد وتنشر صوت الحقيقة بلا تخوف، لأنها لم تجد لها حياة أفضل من التقدم، ولم تجد لها عيشاً كما يكون في الإقدام، ولأن الأحدوثة الجميلة، والنجح عند الناس في الأهداف الحميدة، إنما يكون بالتقدم لا بالتأخر وبالإفتخار لا بالإنحراف، وعندها يكون العمل أخلد، والذكر أبقى، وقد استطاعت هذه الخصائص المتقاربة أن تطبع تاريخ الأمة بطابع الميل الإنساني والتعامل الواعي لكل الدواخل الأصيلة التي ظلت تتنامى في نزعات الأبناء، وتتضح في تعاملهم الحضاري من خلال تجاربهم مع الشعوب، فاستطاعت أن تشكل إتجاهاً حضارياً متميزاً، وصورة بشرية رائدة تحمل عناصر الخير، وتحدد أواصر القيم الأصيلة، وترمز إلى الشخصية الواحدة المتماسكة التي تؤمن بأهدافها في الحياة، وتدرك رسالتها في المجال التكويني للإنسان لأن هذه النفس اعتمدت الثقة المطلقة في العمل، واسترشدت بالشخصية المتكاملة التي ظلت صورتها ماثلة في الذهن من خلال شخصية البطل الحقيقي في كل مجتمع مهما كانت حدوده وتوطدت أبعادها في ظلال المجتمع الكبير الذي ظل يقدس الأعمال الخالدة، ويمجد الصفات النبيلة، ويوحي لأبنائه عن طريق الممارسة بالتربية الحسية والعقلية، والإجتماعية والأخلاقية، فالتوجه نحو الأعداء في الحرب وعدم الإعراض عنهم درس تربوي في الحرب، وتمرين في الممارسة الفعلية، وتطبيق عملي لما يجب أن يكون عليه الفرد والثبات في الميدان ومواجهة الخصم، والإيمان المطلق بالحق في كل قضية مسألة واضحة، وحالة متعارف عليها، والشعور بوحدة المصير والإحساس بالدفاع عنها، والإلتزام بمضامينها، دفاع عن الوجود، وبذل من أجل البقاء، وصورة من صور التضامن الحياتي، فالمظهر الجماعي لهذه الخصال فرض على البطل الإلتزام به والدعوة إلى تأكيده في كل جانب، والأخذ به عند كل حالة، والدعوة إليه في كل صورة.

ولم تقتصر مظاهر البطولة في الشعر الجاهلي على جانب الشجاعة أو التضحية وإنما امتدت إلى الصفات الأخلاقية الأخرى التي تتصل بالكرم والوفاء، وتمتد إلى الجرأة والإقدام، لأن هذه الخصائص تمثل القدرة الذاتية التي تضفي على تلك

الجوانب صفة الإكتمال، وتدخلها في إطار التحسس الإجتماعي. وتترك آثارها البارزة في كثير من الأعمال الجليلة لأنها عناصر تبرز ظاهرة البطولة، وتنمي قدرات الإنسان للإحتفاظ بها وتكميل أطرافها، وتوضيح دلالتها، ويعد حاتم الطائي من النماذج الشعرية التي التفتت بشكل واضح إلى تأكيد صفة الكرم، وتثبيت تقاليده والدفاع عن فلسفته، ولا نستغرب هذه الحقيقة إذا علمنا أن حاتماً يمثل التركيز الصادق لطبيعة الظاهرة والفكرة الواعية لأبعادها الإجتماعية، والقدرة المستوعبة لما تتركه في النفوس، وتحمله من خصائص ولأنها من الصفات التي ظل المجتمع حريصاً على تكريمها وملتزماً بأدائها، لأنها تعبير عن ذاته، وصورة من صور وجوده، ورابطة إجتماعية وثيقة من روابطه. وقد أصبح الكرم عند هذا الشاعر خصيصة متميزة خبرها الشاعر خبرة واعية، وهضمها هضماً حسياً، واستطاع أن يجعله فلسفة يدافع عنها وفق منطق معقول، ويلتزم بها التزاماً غير محدود، ويبذل من أجلها ما يحرص الآخرون على جمعه، فالبطولة صورة واضحة الملامح، مجسدة الرؤية تتوفر فيها عناصر المروءة بكل قيمها من وفاء وحمية وكرم ونجدة وفصاحة وتضحية وجرأة وكل الفضائل التي آمن بها المجتمع ودعا إلى التمسك بها، وهي إنسانية لها أهدافها المرسومة، تتمثل أطرافها في التعبير عن كل جانب من هذه الجوانب بمايستحق، لأنها تنبع من الوجود الحقيقي لهذا الإنسان، وتعيش في أعماقه وتسيح فوق أرضه صوراً من صور الحياة، وتتخلل وجوده الإجتماعي قيماً وتقاليد وتزهو في خوافقه سلوكاً فذاً، وإنسانية تستمد مظاهرها من الواقع البشري الذي بقيت آثاره تستقيم في الفهم، وتنطبق مع الحقيقة، وتنبسط مع كل عمل مقترن بالمعاني السامية التي لازمت دلالات الشجاعة لتتم الصورة الكاملة، ويتضح النموذج المطلوب فالبطل الذي يقارع الأعداء يدافع عن كيان القبيلة والأمة، ويحمي شرفها، ويصون حماها، ويذب عن أرضها، ويخوض المعارك بجرأة من أجل إيقاف كل تجاوز عليها يقري الجائع، ويفك العاني ويطعم المحتاج ويدفع الأذى عن كل مستجير ويدفع الظلم عن كل إنسان لا يخون عهداً، ولا يقطع وصلاً، ولا ينكث وعداً، إن

هذا المفهوم الواسع يشكل الصورة الحبيرة التي كانت تتلون زواياها بالأعمال الخالدة، وتتميز بوارقها بالإشراق واللمعان، وتتجلى روعتها عند الممارسة الفعلية، لتأخذ حجمها في الضمير العربي، وجداناً قومياً وصورة إنسانية، وصوتاً يستجيب لطبيعة المجتمع وقدرة تحقق الذات، ولساناً يمتلك كل أسباب التعبير.

إن هذه المحاولة ليست عرضاً لشعر الحرب ولا كشفاً عن صور البطولة، أو مروراً بأعمال الرجال الذين صنعوا الأمجاد وحققوا المآثر، أو وقوفاً عند الشعراء الذين وظفوا شعرهم لمتابعة الفرسان وهم يخوضون المعارك أو يناجون السلاح أو يسجلون البطولات الفذة، ولكنها محاولة لوضع بعض الملامح للشعر الحربي الذي عبر عنه الشعراء، وهو يرسم الطموح الشرعي لآمال الأمة، والأهداف الكبيرة التي كانت تسعى إليها لتحقيق الأهداف الكبيرة بعد أن تعرضت للتحديات الحاسمة وهي تستهدف وجودها، فوقفت شامخة وهي تستجلي مثلها، وتختار النموذج الذي ينطلق حياً في كل نفس، ومخلصاً في كل ضمير، ورائداً في كل مسيرة ليظل صدى رسالتها نبعاً يرفد الشعر العربي بكل ما يغني قدرته ويديم وجوده ويحقق التزامه.

ولا بد أن تتخذ أشكال المقاومة العربية ضد بقايا الإحتلال في الجزيرة أشكالاً من المناهضة، وصوراً من الكفاح الذي تجلى في بعض الأيام، وتمثل في إنهاء هذا الإحتلال عندما توجه الشعب من مختلف الأصقاع، وتعدد الجهات والأطراف ليلتقي عند أرض العراق ويجعلها ممراً لجيوشه التي كانت تتلهف لاسترجاع الأرض وتحرير الإنسان، وتحقيق اجتماع الشمل بعد أن انفرط باقتطاع تلك الأصقاع.

إن هذا الإعداد القومي والديني الذي تمثل في الحملة الكبيرة، والتضحية النادرة والإستشهاد الرائع قد مهد له وبشكل واضح (يوم ذي قار) الذي برزت أحداثه وبصورة جلية، وأخذ مجاله من خلال التحرك البشري الواسع في الدعوة

إلى الوحدة ومجابهة الرفض والتحدي الأجنبي فوق أرض الجزيرة فكان نقطة تحول في تغيير مجرى الأحداث وتوجه قومي حاد نحو قدرة الإنتماء، والتي بدأت القبائل العربية تجد نفسها ملزمة بالدفاع عنها، والتضحية من أجل استمرار وجودها، وإذا حاولنا استجلاء مظاهر الوحدة، والوقوف عند أشكال النضال الذي عرفته الجزيرة فإن الأيام التي سبقت (ذي قار) كانت تمهيداً نضالياً، واستمراراً للمقاومة التي تجلت في يوم (السلان) و(الصفقة) و(يوم الفرات) و(يوم سفوان) و(أيام الفجار) التي كانت تمثل هذه الدعوة، وتؤكد جانب المجابهة الذي عرفته القبائل العربية وهي تعبر عن نفسها تجاه المواقف التي حاولت قوى الإستعباد أن تفرضها عليها. وقد استطاع الشعر في كل هذه الأيام أن يجسد عمق هذا الحس القومي الذي كانت تتعالى أصواته من خلال الرفض العربي لكل أنواع الوصاية، وفي أبيات لبيد التي يفتخر بأيام قومه إشارة صريحة لهذا اليوم. ووقفة قومية أصيلة لما كان يدور في نفوس أبناء الأمة وهم يجابهون الخصم ويتصدون لمحاولة الإستيطان حيث يقول[1]:

إني امرؤ منعت أرومة عامر	ضيمي وقد حلفت عليّ خصوم
جهدوا العداوة كلها فأصدها	عني مناكب عزها معلوم
منها حوى والذهاب وقبله	يوم ببرقة رحرحان كريم
وغداة قاع القرنتين أتيتهم	رهواً يلوح خلالها التسويم
بكتائب تردي تعود كبشها	نطح الكباش كأنهن نجوم
نمضي بها حتى تصيب عدونا	وترد منها غانم وكليم

وكان الشعراء يعلمون أن التماسك بين أبناء القوم والإعتزاز بما يقدمونه من أعمال يمثل الخطوة الأولى التي تضع القبيلة على طريق الإنتصار، وتوحد بين الأبناء الذين يصنعون المجد التاريخي للأمة ويحققون السبل القومية لمسيرتها، وهذا ما كان يدفعهم إلى الحديث عن ذلك بصدق والوقوف عند هذا الجانب بإمعان،

---

(١) لبيد، الديوان/ ١٣٢. (٢)

وأن الأحاسيس التي كانت تساورهم وهم يقدمون هذه الأحاديث كانت تحمل الوجدان الصادق والحس القومي الواضح الذي تمتزج فيه الذات الفردية بالذات الجماعية، وتنتهي في معانيه كل الدلالات التي يمكن أن تطغى في المواقف الأخرى لأن الإحساس بالجماعة كان الصورة المطلقة للمجتمع العربي والإندفاع وراء تحقيق المستقبل الذي تطمح إليه القبيلة في نطاق القوم وهو يرسم الصورة التي ظل الشاعر يدافع عنها في كل موقف، ويقدم من أجلها التضحيات الجسيمة، وكان صوت ربيعة بن مقروم الذي تحدث عن قومه صورة رائدة في هذا المجال حيث يقول[1]:

وقومي فإن أنت كذبتني	بقولي فاسأل بقومي عليما
أليسوا الذين إذا أزمة	ألحت على الناس تنفي الحلوما
يهينون في الحق أموالهم	إذا اللزبات التحين المسيما
طوال الرماح غداة الصباح	ذوو نجدة يمنعون الحريما
بنو الحرب يوماً إذا استلأموا	حسبتهم في الحديد القروما

وتأخذ بعض الأيام جانباً من جوانب التحدي عندما تتفق القبائل العربية على مهاجمة قافلة كسرى فتأخذ ما كان معها وتقتسمه باعتباره حقاً من حقوقها وثروة من أرضها، وهو إحساس باسترداد الثروة وشعور بتحشيد القبائل والدفاع عن هذه الثروة. وتأكيد لمبدأ القدرة على مقاومة الغزاة والتصدي لقوافلهم، إلى جانب كونه نموذجاً من نماذج الإحساس بالوحدة والشعور بالترابط عن المصلحة المشتركة والمصير الموحد عندما بدأت القبائل تتجمع وتتوحد لتقاتل أقواماً غرباء احتلوا الأرض. واستعبدوا الإنسان، واستغلوا الثروة[2].

لقد أدرك الظل الأجنبي منذ أكثر من ألف وخمسمائة سنة إرادة الرفض

---

(١) المفضل للضبي، المفضليات ١/١٨١.

(٢) ينظر العقد الفريد ٥/٢٢٤ والأغاني ١٧/٣٣٧ (دار الثقافة) ومعجم البلدان ١/٣٦٨ وابن الأثير ١/٢٧٥ وأيام العرب للدكتور عادل جاسم البياتي /٣١٦، ٤٢٢.

العربي، وقد استخدم لإيقافه، والحد منه بعض أتباعه، وقد حاول هؤلاء الأتباع سلوك مسالك شتى لفرض هذا الظل، وتثبيت أقدامه، ولكنه كان يجابه بقوة حازمة، وعنف متصل وكانت الردود الرافضة تستمد قوتها من قوة الأمة، وعلو إبائها وقدرتها على المقاومة، ومن هنا كانت أعمال الأتباع الذين استخدموا للحد من هذا التحدي تتسم بطابع القوة، وتأخذ شكل الإرهاب الدموي في بعض الأحيان محاولين بذلك إيقاف المد العربي المتطلع نحو مجابهة الإحتلال، وإيقاف جبروته وقد تجسدت تلك المحاولات في المجزرة الرهيبة التي دبرتها بعض صنائع المحتلين من رجال القبائل المغرر بهم بالتعاون مع كسرى، فقد حبس كسرى عن القبائل التي اشتركت في استرداد الثروة وهاجمت قافلة الميرة في سنة مجدبة ثم أرسل إلى هوذة فأتاه، فقال: أين هؤلاء فاشفني منهم واشتف وارسل معه ألفاً من الأساورة بقيادة رجل يقال له المكعبر [1] فساروا حتى نزلوا المشقر ثم نودي: إن كسرى قد بلغه الذي أصابكم في هذه السنة، وقد أمر لكم بميرة، فتعالوا فامتاروا، فانصب عليهم الناس، وكان أعظم من أتاهم بنو سعد، فجعلوا إذا جاءوا إلى باب المشقر ادخلوا رجلاً رجلاً، حتى يذهب إلى المكعبر فتضرب عنقه وقد وضع سلاحه قبل أن يدخل فإذا مر رجل من بني تميم بينه وبين هوذة أخاء أو رجل يرجوه، قال للمكعبر: هذا من قومي فيخليه له، فنظر خيبرى بن عبادة، إلى قومه يدخلون ولا يخرجون، فقال ويلكم: أين عقولكم، فوالله ما بعد السلب إلا القتل، وتناول سيفاً، وضرب سلسلة كانت على باب المشقر فقطعها وقطع يد رجل كان واقفاً بجانبها، فانفتح الباب فإذا الناس يقتلون فثارت بنو تميم وهاجموا الحصن، وقتلوا الحرس، وأنزلوا بجيش كسرى الهزيمة فقتل من الأساورة من قتـل، وانهزم ولم يغفر العرب لهوذة بن علي خيانته بعد أن رشاه كسرى بأن وضع التاج على رأسه، فكان يقال له: هوذة المتوج، تمجده الفرس كلما مرت به، وظل اسمه رمزاً من رموز الخيانة وصورة من صور

---

(١) كان المكعبر عامل كسرى على البحرين، وسمي بذلك لكعبرته الرؤوس ولأنه كان يقطع الأيدي والأرجل.

الإستسلام، ونموذجاً من نماذج التهاون في القضايا المصيرية التي تمس وجود الأمة ويرتبط بها مصيرها.

إن مواقف التحدي التي كانت تقفها الأمة، ومواقف الرفض التي كانت ترسم صورة المجد النضالي كانت تتحدد من خلال النصوص المتوفرة وإن هذه النصوص كانت تدور في إطار الدعوة إلى توحيد القبائل ومساندة المقاومة في كل أشكالها واتخاذ المواقف التي تجسد المسؤولية القومية والإنسانية ومجابهة القوى التي تحاول السيطرة والإستحواذ، وهي مفاهيم كانت تتحدد من خلال المواقف الثابتة التي عبر بها الشعراء عن الحس القومي الذي كان يتنامى ويستثير دوافع التأكيد على القيم التي ترتبط بالمبدأ، ولم تكن توقعات الشعراء بعيدة عن التحليل والتعليل الذي يضع المسائل موضع التقويم السليم، وتحديد النتائج التي تنتهي إليها مواقف الإستسلام الأولية، والعواقب الوخيمة التي ستتركها على مستقبل الأمة وقد لمعت أسماء مجموعة من شعراء العصر الذي سبق العصر الإسلامي في سماء الأدب العربي منها جابر بن حني التغلبي والمرقش الأكبر، ويزيد بن الخذاق، والممزق العبدي، والحارث بن ظالم المري وطرفة بن العبد وزهير بن أبي سلمى ولبيد بن ربيعة والنابغة الذبياني ولقيط بن يعمر الأيادي والأعشى، وهي أسماء تؤكد قاعدة الشعراء الذين كانوا يخوضون المعركة من خلال أدبهم، ويسجلون طموح الأمة من خلال وفائهم لمبدأ التضحية الذي التزموا به، ويرسمون للأجيال المستقبل الواضح، ويحددون معالم الطريق الإنساني وحقها في الحياة، فقد ظلت قصيدة لقيط بن يعمر التي مطلعها:

يا دار عمرة من محتلها الجرعا   هاجت لي الهم والأحزان والوجعا

صرخة من صرخات الوفاء، ورمزاً من رموز التحرير، وبقيت معانيها الصادقة تعبر القرون، وتجتاز الأجيال حية تحمل قدرة الوفاء، لامعة تنشر قيم الإخلاص والتضحية لأنها نابعة من ضمير الأمة التي أنجبت هذا الشاعر وأنجبت غيره من الشعراء الذين كانت لهم مواقفهم الصريحة، وصادرة عن نوازع

القدرة النضالية التي ظلت أمالها تثير في نفوس أبنائها عوامل الإقتدار، ودوافع الرفض، ونزعات التحدي، وقد حاول هذا الشاعر أن يفتتح هذه القصيدة بالوقوف على أطلال (عمرة) التي أهاجت له الهموم والأحزان وهو لم يكن موقفاً عفوياً اقتضته طبيعة البناء الفني، أو فرضته لوازم الأداء، أو حققته نزعة المخاطبة الجامدة، وإنما وقوف يمثل الإلتصاق الحيوي بالأرض، والترابط المصيري بين الفرد والوطن المكاني، والإندماج الأصيل الذي يشد الإنسان بموطنه الذي عاش فوق أرضه وقدم له أجلّ التضحيات. ومن الطبيعي أن يتخذ الشاعر من ذلك مدخلاً إلى الموضوع الذي كان يأخذ بتلابيب الشاعر منذ البدايات الأولى بعد أن تجلى حساً قومياً، واستثارة مصيرية، ودوافع إنسانية، فدار عمرة التي وقف عندها هي الأرض التي يعتز بها، لأنها تحمل ذكريات الوجود الأول، وتحمل أحلام الأيام التي شهدت نشأته ونشأة أترابه من أبناء قومه لأن الإنسان الذي حاول أن يتحدث معه لينقل حسه هو الإنسان الذي نذر له نفسه وتحمل من أجله التضحية الخالدة وقد ظلت هذه المعاني هي المحور الذي دارت عليه الأبيات، وكانت صرخة الهم والحزن والأوجاع هي المسحة البارزة منذ البيت الأول على الرغم من التزام الشاعر بالبداية التقليدية التي حاول من خلالها الربط بين المعنى والفكرة، والرغبة والإنتماء والإحساس والمسؤولية، وقد جسد الصورة برمز المرأة لأنها صورة الإحساس ونموذج الخلود، وصوت الضمير الإنساني، وقد اتخذ منها الشاعر جسراً ليتحدث من خلاله إلى الراكب - أي راكب - يقطع الجزيرة على عجل - دون تمهل ليدرك قومه قبل أن تصل إليهم طلائع كسرى ليخبرهم بوصيته، ويبلغهم الأمانة التي حرص على نقلها، وقد حاول الشاعر أن يؤكد عنصر السرعة من خلال ألفاظه ليبدد موقف المباغتة الذي حاول كسرى أن يستخدمه لينقض على أياد وقد تجلت الملامح الوجدانية والذاتية التي كانت تساوره وهو يتطلع إلى الجزيرة، الأرض التي شهدت ميلاد قومه، وعاشت تطلع وجوده وتشهد الآن انتشار أياد برجالها وأطفالها ونسائها ومتاعها وترقب نعمهم، وتحدب عليهم، ويتطلع إليها والحرقة تؤذيه، وهو يرقب الصورة التي ستكون عليها بعد أن تدوسها أقدام الغزاة

وتستباح فوق ترابها دماء الآباء والأبناء [1].

لقد كان صوت الشاعر إيذاناً بالإحساس الذاتي الذي كان يعتمل في النفوس ويتعالى في كل قلب من أجل الحفاظ على وحدة القوم والحرص على تراب الأرض الذي ظل حمىً مصوناً.

---

(١) تنظر القصيدة في ديوان لقيط بن يعمر الأيادي من ٢٧ - ٥١، بتحقيق الدكتور خليل العطية.



مرحلة جديدة من شعر الحرب
(عصر الرسالة)

أخذ شعر الحرب مساحته في القصيدة العربية، واتسعت مدلولاتها في إطاره الشعري، وأغنيت مفرداتها من خلال استخدام الشعراء للمفردة الشعرية التي كانت تتحرك في دائرة المعاني، وشحنت ألفاظها بقدرات المقاتلين الأشداء الذين كانوا يغنون عطاءها بتضحيتهم، ويوقدون سعيرها باقتحامهم ويمتلكون زمام المبادرة بجرأتهم النادرة، وبطولتهم الفريدة. وكان الشعراء الذين يخوضون المعارك يسجلون لوحات المفاخر الخالدة، والمآثر التي يظل صداها يعيش في قلوب الرجال الذين يستذكرونها باعتزاز ويعيشونها بإباء ويتمثلون بها كل ما دعت الحاجة إليها.

ومن الطبيعي أن تتداخل فيها النزعات التي تشارك في استثارة الهمم وتتولد الأسباب التي تعطي لكل صورة من صورها ما يتناسب مع المرحلة التي كانت تجتازها. وهي في كل جانب كانت تتحرك وفق عناصر فاعلة، وتنطلق في ضوء عوامل مؤثرة، فالحرب لم تكن حركة عابرة في حياة الأمة وإنما كانت تعني الحياة بعد أن أصبحت الأمة في وضع يدفعها إلى أن تذود عن نفسها وتحقق رسالتها، وتنشر مبادءها، وتشارك في كل عمل إنساني توجبه عليها ظروف الصراع المحتدم الذي كان يحيط بها.

وظلت الصورة التي حملها الشعر العربي قبل الرسالة تتجسد في بعض مضامين الشعر في عصر الرسالة. ولكن تحولها الى حرب تحرير ودخولها في إطار أوسع من

الآطار الذي كانت فيه قد ترك لها سبلاً جديدة، وكشف لها عن ميادين مختلفة، وأدخل عليها عنصراً واضحاً ومتميزاً هو عنصر العقيدة التي كانت تأخذ بقلوب المجاهدين وتشد على سواعد المقاتلين، وتحرك فيهم كل نوازع التضحية، وتثير كل أسباب الإقدام بعد أن توحدت الأمة واتجهت قلوب أبنائها إلى تخليص الإنسان من أسباب التخلف وإعادة الحياة الكريمة إليه، وإنقاذه من جبروت الطغيان والقهر. ومن الطبيعي أيضاً ان تتغير القيم، وتتبدل المثل وتستبدل قيم الحياة بقيم إنسانية مشرقة، وتتحول إلى واقع يجد فيه الإنسان الجديد صور الحياة الحرة، وتتفتح قدرته في إطار مجتمع يحفظ له حقه ويترك له مجال الإختيار الموجه.

واستطاع شعر الحرب في عصر الرسالة أن يستوعب هذه المضامين، ويعبر عن قيم الحرب الجديدة التي أضافتها قدرة الأبطال الذين تركوا قسمات أعمالهم فوق تراب الأرض المحررة، ونصبوا راياتهم الخفاقة فوق زوايي الديار التي ظلت تئن تحت وطأة الجور الفارسي المقيت، والظلم القيصري المستبد. وقد خلد الشعراء في موضوعاتهم تلك البطولات النادرة التي ظلت ترفد الأمة بكل انتصار خالد ومجد مؤثل وفكرة نبيلة.. كما خلدوا فيها الأعمال الإنسانية التي كانت تصاحب الحرب لأنهم كانوا يمثلون حملة الرسالة السامية وحماة الكرامة والفضيلة، لأن معاني السمو كانت هي الأساس الذي حملهم على الإنسياح فحققوا المجد، وأكدوا الأصالة الحرة.

إن شعر الحرب في عصر الرسالة يشكل بداية جديدة للشعر العربي الذي جاء بعد هذا العصر، لأنه استطاع أن يفرد لمعاني الحرب صورتها الجديدة. ويبرز في أتون سعيرها الألق البطولي المتميز وهذا ما حقق له الخلود وحقق لمسيرته الظفر الذي كان يؤكد وحدة الفكر الذي ظل يوحي للشعر بمعاني التواصل ويمدهم بأسباب الشعور بمسؤوليتهم الكبيرة في بناء الحياة.

وشعر الحرب الذي ظل صورة الوجدان العربي، وبقيت ألوانه تمثل أنماط

القدرة القتالية الفذة التي عرفها العرب، وبقيت مضامينه تعني استمرار المعاني الحية التي مارسها وهو يؤدي دوره الجديد في المرحلة الإسلامية وإذا كان شعر الحرب يشكل الإتجاهات العامة لبناء القصيدة الحربية من حيث التهيؤ والبناء، ومن حيث الإستعداد والمقاومة فإن شعر الحرب في عصر الرسالة، ظل يضخ في مضامين الشعر معاني العقيدة التي رسختها قدرة الدين الجديد الذي ملأ على العرب حياتهم، وجدد فيهم روح التضحية ووحد في اندفاعهم قدرة الإجتياح، وحزر في سلامة قيادتهم نفوس البشر التي ظلت تعاني من القهر والتسلط ما قتل فيها كل مطامح التطلع.

وشعر الحرب في عصر الرسالة هو امتداد طبيعي لقدرات هذه الأمة التي ظلت تدفع أبناءها باعتزاز ليعيدوا صفاء الحياة للإنسان، ويحققوا في وجوده وجود النفس البشرية الحرة التي كتب عليها أن تعود ثانية إلى ميدان العمل لتأخذ دورها الحقيقي.. وأن هذا الشعر الذي تمثلت في معانيه دلالات الشجاعة والبطولة كانت تتمثل فيه جوانب أخرى من المعاني الأخلاقية التي حملتها القيم العربية وكانت تتعامل بموجبها مع الناس الذين دخلوا في دين الله أفواجاً، وهنا كانت المضامين الجديدة وجهاً آخر من وجوه هذا الشعر، وصوتاً واعياً من أصوات الإلتزام الشعري الواضح.

إن تميز شعر الحرب في العصر الإسلامي ببعض الخصائص الجديدة قد أضفى عليه ملامح حسية واضحة، وأغنى ينابيعه بفيض من الصور والمعاني التي أتاحت الفرصة للشاعر أن يجد فيها الإقتدار لتجاوز بعض الحالات التي كان يمر بها في حياته السابقة، بعد أن تغيرت بعض دواعي الحرب وأصبحت الحالة النفسية التي يتمثلها المقاتل حالة توثق في اعماقه قدرة التقدم، وتعمق في احساسه نوازع التمكن وتكشف له عن الصورة الأصيلة التي بدأ يتفحص كثيراً من دقائقها، وتأمل الظلال الذي تغطي وجهها بإدراك. وقد تركت هذه الآثار سماتها البارزة على اعماله وهو يعاني تجربة جديدة ويمتحن بمواقف حاسمة ومن هنا كان شعر الحرب حافزاً موثباً، ودافعاً حاداً من دوافع التحرك والإقتحام، فيه يتحدث

الشاعر عن المعاني السامية التي يريد أن يتحدث بها، وفيه من التاريخ ما يرفع فيه قدرته القتالية ومن المآثر ما يشد وجوده بسلسلة الماضي نسباً ومجداً وسؤدداً. ومن الخصائص التي تشهد له بالمواقف الحاسمة، وهي معاني أساسية تتوجه في نفس المقاتل وتمنحه صورة الإعتزاز المتحققة في تأكيد الوجود الحاضر، وتوثيق الموروث الماضي، وتأصيل المستقبل المنتظر الذي يستمد كل المعاني من المضامين الشعرية المتجمعة في الأشعار أو الأبيات والتي تظل عنصر ترسيخ في ذات المقاتل، وعنصر استلاب في ذات الخصم الذي يرى في المعاني المتتابعة التي يقدمها الشاعر عملاً بطولياً كبيراً يثير في نفسه الفزع، ويطوي في خوافقه تطلعات الإنتصار، ومن الثابت أن الشعر الذي يأخذ دوره الرائد في تسجيل هذه المواقف، ويحقق الأهداف التي كانت تختفي وراء المطامح المشروعة وقدرة الرجال الصناديد الذين كانوا يسألون الرحمن مغفرة، واستشهاداً فهذا عبدالله بن رواحة يذكر غزوة مؤته فيقول:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة	وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة	بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدثي	أرشدك الله من غاز وقد رشدا

وعندما كانت تتقدم جيوش المسلمين إلى أرض الشام علموا أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضمت اليه مجاميع من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي في مائة ألف منهم لم يفزعهم الأمر وقالوا نكتب إلى رسول الله ونخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا برجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي. وهنا يعود الشاعر ليأخذ دوره، ويعود الشعر ليؤدي واجبه ويجد عبدالله بن رواحة الفرصة مهيأة، والظرف مواتياً والمسألة لا تحتمل الصبر والانتظار ويرتقب منه القول الفصل، والكلمة الحاسمة، وينبري الشاعر ليقف على نشز من الأرض وقد أحاط به المسلمون وهم ينتظرون وهو يبدأ كلمته بسم الله الرحمن الرحيم.. يا قوم: والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي اكرمنا

الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين أما ظهور، وأما شهادة، فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة، فمضى الناس، فقال عبد الله بن رواحة في ذلك:

جلبنا الخيل من آجام قرح ... تغر من الحشيش لها العكوم
حذوناها من الصيوان سبتاً ... أزل كأن صفحته أديم
أقامت ليلتين على معان ... فأعقب بعد فترتها جموم
فرحنا والجياد مسومات ... تنفس في مناخرها السموم
فلا وأبي، مآب لنايتنها ... ولو كانت بها عرب وروم
فعبأنا أعنتها فجاءت ... عوابس والغبار لها بريم
بذي لجب كأن البيض فيه ... إذا برزت قوانسها النجوم

وفي مؤته وعند اشتداد المعركة، وتلاحم المؤمنين بالمشركين تزاحم الرجال وهم يخوضون القتال، وتواردوا مناهل التضحية بوجوه كريمة، وعيون لامعة وقلوب مشيعة، وهم يعلمون أنهم يكتبون صفحات التاريخ، ويسجلون الأيام الخوالد، ويحققون النصر المؤزر كما أنهم يدركون أن الرسالة الإنسانية التي حملها صاحب الرسالة لا بد أن تظل بخيرها القلوب المتعطشة وتمسح عن الوجوه عبودية الوثنية المقيتة، وتعيد إليها خصائصها البشرية السمحة، كان المقاتلون يعلمون أن التحرير أصبح رسالة، وأن الدعوة التي حملوها لا يمكن أن تبقى محصورة في إطار المدينة أو مكة، ما دامت قوى الشرك والطغيان تسعى لتحجيم مبادئها، واحتواء معانيها السامية، ومحاربة رجالها الذين أصبحوا يعرفون الطريق بعد أن استوعبوا دورهم القيادي واضطلعوا بمرحلتهم التاريخية وتشربوا بقيم الدين ومثل الرسول الكريم.

في مؤته كان الصراع واضحاً وشديداً، وكانت الإستماتة رائعة ورائدة وكان الإستشهاد صورة من صور الإنتزاع البطولي لمعاني النصر... وكانت الراية رمزاً من رموز الرفعة، ودليلاً من أدلة القيادة، ووهجاً تتجه إليها الأنظار عندما

يشتد أوان الشد. وأملاً تتعلق بها كل عيون المقاتلين لأن إخفاقها في سماء المعركة واستمرارها في العلو تعني المصاولة والمطاولة والصمود والإنتصار وهذا ما كان يدفع المؤمنين إلى الحرص على ارتفاع الراية وهم يقدمون لها الدماء الطاهرة والنفوس العزيزة والجحافل المجاهدة لتروي عروقها وتسقي الشرايين النقية التي تقدم العطاء سخياً لتظل صورتها عالية وتغني كل النفوس التي تحفظ لها نضارتها ورواءها وزهورها وإشراقها. وتظل الراية في شعر الحرب تحمل معاني السمو والتضحية بعد أن تمثلت بالقائد الذي توكل اليه، فالرسول الكريم صلوات الله عليه عندما جهز الجيش إلى مؤته استعمل عليهم زيد من حارثة وقال: إن اصيب فجعفر بن أبي طالب. فإن أصيب فعبد الله بن رواحة.

وبقيت وصية الرسول في قلوب القادة الذين حملوا أمانة الرسالة ومسؤولية التحرير وشرف التضحية، وباعوا لله نفوسهم رخيصة، وعندما التقى الناس واقتتلوا قاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى سال دمه في رماح القوم فقتل شهيداً، واستغفر له ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب فشدّ على القوم حتى قتل شهيداً، فشهد له بالشهادة واستغفر له، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة وتقدم بها وهو على فرسه ويقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنه	طائعة أو فلتكرهنه
ان أجلب الناس وشدوا الرنة	مالي أراك تكرهين الجنة
قد طالما قد كنت مطمئنة	هل أنت إلا نطفة في شنة

ثم تقدم وقاتل وهو يحمل الراية وعندما تعالت الصيحات وحمي وطيس المعركة واحمرت أسنة الرماح، وتهاوت السيوف واشتد وقع النبال كان يقتحم الموت وهو يقول:

يا نفس الا تقتلي تموتي	هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد اعطيت	ان تفعلي فعلهما هديت

وأثبت قدميه وتقدم وقاتل حتى قتل شهيداً فاستغفر له.

وكان الرسول الكريم يقود المعارك في كثير من الأحيان ويبلي فيها البلاء الحسن ويمد المقاتلين بأواصر الثبات، ويثير فيهم روح الإستماتة وكثيراً ما كان يتعرض للمخاطر كما وقع في أحد حيث اصيبت رباعيته (السن التي بين الثنية والناب) السفلى، وشقت شفته وكلم في وجنتيه وجبهته وأصول شعره وكان الدم يسيل على وجهه وهو يقاتل ويقاوم ويدعو المشركين إلى الله عز وجل وكان الصحابة الأخيار يترسون دون رسول الله ﷺ وكان أبو دجانة يوم أحد قد أحاط به وكان النبل يقع في ظهره وهو منحن عليه حتى كثرت في النبل، ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله ﷺ فقال سعد: فلقد رأيته يناولني ويقول: ارم فداك أبي وأمي حتى أنه ليناولني السهم ما فيه نصل فيقول: أرم به.

وكما كانت مواقفه في أحد كانت في بدر وبعدها في فتح مكة وحنين والطائف وغيرها.

ولا بد أن تجد هذه القيادة وهي تتولى إدارة المعركة، وتقود زمام القتال وتحقق النصر صداها في الشعر وهو يتابع الحرب، ويواكب وقائعها الحاسمة. فهذا مالك بن عوف يذكر بطولة الرسول وقيادته فيقول:

ما أن رأيت ولاسمعت بمثله	في الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى	ومتى تشأ يخبرك عما في غد
وإذا الكتيبة عرّدت أنيابها	بالسمهري وضرب كل مهند
فإنه ليث على أشباله	وسط الهباءة خادر في مرصد

وفي الطرف الثاني كان المشركون يجدون في الشعر صوتاً كما كان يجده المؤمنون، وعندما تضيق بهم السبل، وتشدد عليهم دائرة الحصار يهرعون الى شعرائهم يستغيثون بهم، ويطلبون مساعدتهم، ويرجون منهم أن يكونوا عوناً لهم بلسانهم، ولكنهم عندما يجدون أنفسهم قد اسروا بما منّ عليهم الإسلام، أو أحسن إليهم يتخلون عن المناصرة، ويتجنبون المشاركة فهذا أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي قد منّ عليه رسول الله ﷺ يوم بدر وكان فقيراً ذا بنات

وعيال، وكان في الأسارى، فقال: يا رسول الله، إني فقير ذو عيال وحاجة قد عرفتها، فامنن عليّ صلى الله عليك، فمنّ عليه رسول الله ﷺ. فقال صفوان ابن أُمية: يا أبا عزة، إنك امرؤ شاعر فاعنّا بلسانك، فاخرج معنا. فقال: إن محمداً قد منّ علي فلا اريد أن اظاهر عليه.

إن مشاركة الرسول الغزو وحضوره فيها وإدارته لها كانت تعطي الحرب قيمتها، وتدفع المقاتلين إلى الإندفاع، وتثير في نفوسهم نوازع التضحية لا سيما وهم يرون القائد والرسول يتقدم الغزوات، ويقود الجيوش، ويندفع لتحقيق النصر الذي وعد به، وقد بلغت غزواته التي قادها ستاً وعشرين غزوة وقيل هي سبع وعشرون غزوة، قاتل في تسع غزوات منها هي بدر واحد والخندق وقريظة والمصطلق وخيبر والفتح وحنين والطائف.

وتحاول بعض القبائل العربية أن ترتد بعد وفاة الرسول الكريم ويطل النفاق وتشرأب أعناق اليهود، وتنبري عقابيل الكفر تبث سمومها لتشق وحدة الصف، وتفرق ما توحدت عليه الأمة، وهنا تتجلى حكمة الخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو يسير وفق خطى الرسول بإنقاذ جيش اسامة حيث الوجهة التي اختارها الرسول الكريم فيقول قولته المشهورة: لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه... ويعقد أحد عشر لواءً لمحاربة المرتدين ويجعل لكل لواء أميراً، ويوزع الألوية توزيعاً يتناسب مع قوة القبائل المرتدة، وكانت رغبة الصديق أن يرافق الألوية الذاهبة لقتال المرتدين وألا يعود إلى المدينة حتى تعود إلى رشدها، فجعل عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما يكلمانه في الرجوع إلى المدينة لما رأيا عزمه على المسير بنفسه وقال عمر: ارجع يا خليفة رسول الله تكن للمسلمين فئة وردأ فأنك أن تقتل يرتد الناس ويعلو الباطل على الحق، وأبو بكر يظهر المسير بنفسه، فلما برز واستوى على الراحلة أخذ الإمام علي بزمامها وقال: إلى أين يا خليفة رسول الله، أقول لك ما قال لك رسول الله ﷺ يوم أُحد: شم سيفك ولا تفجعنا بنفسك وارجع الى المدينة، فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام، ولما ألحوا عليه في

الرجوع، رجع بعد أن بعث الأمراء في كل ناحية لقتال أهل الردة وكان للشعر دور متقدم وصورة جلية، تتغنى بانتصار المؤمنين الذين دافعوا عن الحق، ووقفوا بوجه النزعة الحمقاء التي حاولت إيقاف الرسالة، وجالدوا المرتدين بعزائم قوية ومقاومة صلبة وتفان مخلص. وكانت قصائدهم تشير إلى اعتزازهم بهذه المواقف، وإخلاصهم في سبيل الإيمان، وتضحيتهم من أجل تثبيت المبادىء التي جاءت بها، وترسيخ القيم التي ترعرعت اصولها في وجودهم عقيدة وإيماناً فهذا زياد بن حنظلة يذكر بيوم الأبرق فيقول:

ويوم بالأبارق قد شهدنا على ذبيان يلتهب التهابا
أتيناهم بداهية نسوف مع الصديق إذ ترك العتابا

وفي ردة اليمامة التقى المسلمون بالمرتدين في حرب لم يلقهم حرب مثلها من حروب العرب قط، فاقتتلوا قتالاً شديداً صمدت فيه العقيدة، وامتحنت النفوس واستقرت أسباب الحياة، وتجلت حقيقة الموقف الإنساني الذي وقف عند المجابهة الحاسمة، وارتفع إلى المستوى الذي تكون التضحية بالنفس فيه أغلى غاية الجود، فاندفعت قوافل المؤمنين وهي تستذكر صورة الرسول الكريم وكلماته الأخيرة ودعواته المباركة، وخطبة الخليفة الراشد التي وضعت فيها خطوط الرسالة بأدق معانيها، ودلالات الإيمان بأروع صورها، كانت هذه الحقائق ترتسم لهم في صورة المعركة التي خاضوها وهم يعلمون أن الإنتصار فيها يعني انتصار المبادىء الخيرة، وتجاوز الواقع البائس، وانسلاخ الإنسان من حياته التي ظل فيها حبيس الإنقسام والتخلف والتسلط، والشعراء الذين ساهموا في هذه الحرب كانوا قادرين على نقل الأحاسيس الصادقة والتعبيرات الإنسانية التي كانت تجول في خواطرهم وهم يتحركون فوق أرض المعركة ويتوجهون بتوجهات قيادة خالد ابن الوليد التي تمثل فيه سيف الله المسلول يقول بشر بن قطبة الفقعسي في معركة اليمامة:

أروح وأغدو في كتيبة خالد على شطبة قد ضمها الغزو خيفق
إذا قال سيف الله كروا عليهم كررنا ولم نجعل وصاة المعوق

أقول لنفسي بعد مارق بالها رويدك يا نفسي ولما تشققي
وكوني مع الراعي وصاة محمد وان كذبت نفس المنافق فاصدق

ولم يقتصر الشعراء في أحاديثهم عن التحرير على الجانب الذاتي للمقاتل وإنما كانوا يتجاوزون ذلك إلى الإشادة ببلاء أقوامهم، وقوة بأسهم، وقدرتهم على المجالدة، وانتصارهم للحق، ومعاونتهم على تجاوز المواقف الصعبة وأن الرجال الأشداء كانوا ملاذاً لغيرهم في ساحات المعركة، وحصوناً منيعة للذين يحصرون في المواقع الحرجة، فهذا يزيد بن الحارث الشيباني يذكر بلاء قومه وكيف كانت تدور رحاهم في حرب اليمامة فيقول:

تدور رحانا حول راية عامر وتسمو بنا بالأبطح بالمتلاحق
يلوذ بنا ركنا معد ويتقي بنا غمرات الموت أهل المشارق

وسليك العقيلي شاعر آخر شهد اليمامة وقاتل فيها قتالاً محموداً، ودافع عن القضية التي آمن بها دفاع المستميتين حتى قطعت كفه في قتال أهل الردة فقال:

كيف تراني وأخي عطاردا نذود من حنيفة المذاودا
وأنشد كفاً ذهبت وساعدا أنشدها ولا أراني واجدا

وعندما تقدمت سرايا المسلمين إلى الدهناء وهجر تجمع المشركون إلى الحطم إلا أهل دارين، وتجمع المسلمون إلى العلاء الحضرمي وخندق المسلمون والمشركون وكانوا يتراوحون القتال ويرجعون إلى خندقهم، وفي إحدى الليالي سمع المسلمون في عسكر المشركين ضوضاء شديدة كأنها ضوضاء هزيمة أو قتال، وعندما استطلعوا الخبر بواسطة أحد عيونهم علموا أن القوم في ضجيج، فخرجوا عليهم حتى اقتحموا عليهم عسكرهم فوضعوا فيهم السيوف حيث شاءوا، واقتحموا الخندق، وتوزع المشركون، وتناثرت فلولهم بين متردد دهش ومقتول وأسير، واستولى المسلمون على ما في المعسكر، ولم يفلت رجلاً إلا بما عليه ولحق قيس بن عاصم أبجر بن بجير ولما خشي أن يفوته طعنه في العرقوب فقطع العصب، فقال في ذلك عفيف بن المنذر:

فإن يرقأ العرقوب لا يرقأ النسا وما كل من يهوى بذلك عالم
ألم ترانا قد فللنا حماتهم بأسرة عمرو والرباب الأكارم

وكتب العلاء بن الحضرمي إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل، وأرسل إلى عتيبة بن النهاس وإلى عامر بن عبد الأسود بلزوم ما هم عليه والقعود لأهل الردة بكل سبيل وأرسل إلى خصفة التميمي والمثنى بن حارثة الشيباني فأقاموا لاولئك في الطريق، فمنهم من أناب فقبلوا منه واشتملوا عليه، ومنهم من أبى ولج فمنع من الرجوع، فرجعوا عودهم إلى بدئهم، حتى عبروا إلى دارين فجمعهم الله بها وقال في ذلك شاعر من بني ضبيعة بن عجل يدعى وهبا يعير من ارتد من بكر بن وائل:

ألم تر أن الله يسبك خلقه فيخبث أقوام ويصفو معشر
لحي الله أقواماً اصيبوا بخنعة أصابهم زيد الضلال ومعمر

وعندما قويت شوكة المسلمين، وأمدهم الله بنصر من عنده، وتقدمت رايات المؤمنين وهي تحقق النصر وتسجل المآثر وتُطوى فلول المرتدين وهم يجرون أذيال الخيبة، ويسحبون مرارة الخسران، وندب أبو بكر العلاء بن الحضرمي الناس إلي دارين ثم جمعهم وخطبهم فقال: إن الله قد جمع لكم أحزاب الشياطين وشذاذ الحرب في هذا البحر، وقد أراكم من آياته في البر لتعتبروا بها في البحر، فانهضوا إلى عدوكم، ثم استعرضوا البحر إليهم فإن الله قد جمعهم فقالوا: ولا نهاب والله بعد الدهناء هولاً ما بقينا فالتقوا بها، واقتتلوا قتالاً شديداً فما تركوا بها مخبراً، وقد تغنى الشعراء بهذا الانتصار البحري بعد أن أجازوا الخليج فقال عفيف بن المنذر:

ألم تر أن الله ذلل بحره وأنزل بالكفار احدى الجلائل
دعونا الذي شق البحار فجاءنا بأعجب من فلق البحار الأوائل

ولما رجع العلاء إلى البحرين وضرب الإسلام فيها بجرانه، وعز الإسلام وأهله وذل الشرك وأصحابه ووجد الشعراء في هذا النصر المؤزر تعزيزاً لموقفهم

انطلقت ألسنتهم بالإشادة وتحدثت قصائدهم عن المعارك، وسجلت أحاديثهم مواقف الرجال الأشداء الذين اندفعوا بكل قوتهم لمقاومة المشركين والمرتدين وخنق أصوات الباطل التي حاولت أن ترتفع، وإزهاق المطامع الفردية التي حاولت أن تجد لنفسها موقعاً، ولتطلعاتها غير المشروعة وجوداً، وإيقاف النزوع الذاتي الذي تصور أن المرحلة قد أتاحت له فرصة التحرك فهذا عباد الناجي يشير إلى هروب لقيط بن مالك الأزدي الذي ادعى بمثل ما ادعى به من كان نبياً ويذكر قدرة المقاتل المؤمن الذي وهن الله به أهل الشرك فيقول:

لعمري لقد لاقى لقيط بن مالك ... من الشر ما أخزى وجوه الثعالب
وبادى أبا بكر ومن هل فارتمى ... خليجان من تياره المتراكب
ولم تنهه الاولى ولم ينكأ العدا ... فألوت عليه خيله بالجنائب

وعندما لاذت جماع من الأزد وبجيلة وخثعم وفر حميضة بن النعمان الذي أعلن ارتداده وتمكنت منه جنود الحق ودعاة الرسالة وقف عثمان بن ربيعة ليعلن عن تسجيل هذا الموقف وليذكر تمزق جموع المرتدين الذين حاولوا أن يصدوا تيار الإيمان.. فقال:

فضضنا جمعهم والنقع كاب ... وقد تعدى على الغدر الفتوق
وأبرق بارق لما التقينا ... فعادت خلبا تلك البروق

وتستمر حجافل المؤمنين تطارد المرتدين في أطراف الجزيرة وهي مؤمنة بالله وبالرسالة التي بلغ بها الرسول الكريم وبالقيم الروحية التي دعا إليها، وبالتشريع الذي نظم الحياة، وتتوزع جموع المرتدين مذعورة، وتترك خلفها أسلابها وأموالها وسلاحها وقد استطاع الشعر أن يؤرخ الكثير من هذه الهزائم التي منيت بها هذه الفئات المشركة فهذا الظاهر بن أبي هالة يذكر هزيمة الأخابث بعد أن التقت بهم جيوش المسلمين فيقول:

ووالله لولا الله لا شيء غيره ... لما فض بالإجراع جمع العثاعث
فلم تر عيني مثل يوم رأيته ... بجنب صحار في جموع الأخابث

قتلناهم ما بين قنة خامر إلى القيعة الحمراء ذات النبائث
وفئنا بأموال الأخابث عنوة جهاراً ولم نحفل بتلك الهثاهث

ولم يقف شعر الردة عند الموضوعات التي عالجت الحروب أو أشارت إلى المعارك وإنما كان يأخذ بعداً آخر من أبعاد مسألة الإرتداد لأنه كان يتعرض إلى مناقشة الموضوع مناقشة عقلية تتولى القضايا التي تنكر على الناس هذا المروق وقد حاول الشعراء أن يتولوا هذه المهمة ويبدأوا بمناقشة أقوالهم وكثيراً مما كانوا يحاولون تثبيتهم على مبادىء الإسلام وترسيخ عقيدتهم بعد أن تلمسوا ضعف معتقدهم، وسهولة انقيادهم، وتخلخل موقفهم، وان هذا التزعزع كان يدفع الشعراء إلى اتخاذ المواقف الحادة لحسم الأمور لصالح أقوامهم، والحد من حالة التداعي التي كانت تتعرض إليها وهي تجابه بمثل هذه الهزة الكبيرة التي قد تؤدي بها وتفقدها سيطرتها، وتدخلها في مداخل هي في غنى عنها.

وتركت هذه المواقف للشعراء مجالاً محموداً، وهيأت لهم الفرص الصالحة للتوجيه والريادة والإمساك بزمام المبادرة القادرة الى صد تيار الإنهيار فهذا خويلد بن ربيعة ينبه قومه إلى هذه الحالة ويدعوهم إلى الثبات على الإسلام.

أراكم اناساً مجمعين على الكفر وأنتم غداً نهب لخيل أبي بكر
بني عامر ان تأمنوا اليوم خالداً يصبكم غداً منه بقارعة الدهر

ومثله يصنع الحارث بن مرة النفيلي الذي حمل لواء النصح لقومه، ودعاهم إلى نصرة الله، وحذرهم من الخذلان والهزيمة إذا هم حاولوا الخروج على الدين أو الوقوف إلى جانب خصومه،

بنو عامر إن تنصروا الله تنصروا وإن تنصبوا لله والدين تخذلوا
وإن تهزموا لا ينجكم عنه مهرب وإن تثبتوا للقوم والله تقتلوا

وتحفل كتب الأدب والتراجم بأسماء الشعراء الذين وقفوا يدعون أقوامهم إلى الثبات، ويحذرونهم من الإرتداد وكثيراً ما كان الشعراء يتحسسون بالألم

ويتجرعون الغصص وهم يشاهدون أقوامهم وقد ارتدوا، ولم يجدوا بدا من إعلان السخط والحسرة وإظهار الندم والأسف لما أصبحوا عليه فقد أساءت ردة بني أسد ضرار بن الأزور فقال مخاطباً إياهم:

بني أسد قد ساءني ما صنعتم   وليس لقوم حاربوا الله محرم
واعلم علم الحق أن قد غويتم   بني أسد فأستأخروا أو تقدموا

ويصل الحد ببعض الشعراء إلى التبرؤ من أقوامهم المرتدين ومن الأشخاص الذين أعلنوا أنفسهم أنبياء كذابين فقد كتب صهبان بن شمر الحنفي معتذراً ومتبرئاً مما انتحل مسيلمة فقال:

اني بريء إلى الصديق معتذر   مما مسيلمة الكذاب ينتحل

لقد كان شعر الحرب في الأدب الإسلامي إستمراراً لشعر الحرب قبل الإسلام لأن كثيراً من المقاتلين الذين جربوا حظهم في الحروب الأولى كانوا من المقاتلين البارزين في هذا العصر، ولأن القيم التي عرفوها في أدب الحرب والمثل التي عاشوا عليها في تقديس السلاح ظلت ملازمة لهم في هذا العصر، وربما أصبحت الحاجة ملحة إلى التأكيد على تلك القيم والإندفاع نحو تحقيقها بوفاء أكثر التزاماً، ومجابهة أشد حرصاً وقدرة أعنف تمكناً واقتحاماً، إلى جانب العامل الديني الذي أغنى مجال الإستشهاد ووثق نوازع الجهاد ورسخ قواعد الدفاع عن الأرض. مما دفع المقاتلين إلى التضحية بإيمان أشد، وجرأة أقدر، لأن ارتفاع راية التوحيد وإيداع أمانة تبليغ الرسالة بالعرب وانطلاق مواكب التحرير من أرضهم وتحميلهم مسؤولية تحرير الإنسان من عوامل الإستغلال والقهر والتسلط كانت من العوامل الكبيرة التي ظلت تثير في نفوسهم اداء هذه الأمانة وتقديم كل التضحيات التي تكفل وصولها إلى حيث أراد الله لها أن تكون، لتعود الأرض بخيرها إلى الإنسان الذي قدم لها جهده وليعيش أبناء البشرية فوقها ينعمون بثروتها ويحققون وجودهم وإنسانيتهم في ظل أنظمة العدل والمساواة والسماحة والحرية.

ان هذه العوامل مجتمعة كانت تأخذ طريقها إلى الحياة، وتمتد قنواتها إلى كل سبيل من سبلها، ولما كان الشعر ديوان العرب فيه مآثرهم ومجامدهم وفي أبياته تتحقق أهدافهم ومطامحهم، ومن خلال معانيه تتحدث بطولاتهم ومواقفهم فقد عرف تلك المعاني واحتوى كثيراً من تلك المضامين وعبر عنها بما ينسجم مع كل موقف ويتلاءم مع كل حالة ولهذا كان الشعر في هذا العصر صورة للأحداث العظيمة التي جابهت الدعوة، ولوناً من ألوان مواقفها الحادة وصوتاً مرتفعاً من أصوات قدرتها التي وقفت بكل قوتها تتحدى الشرك وتقاوم الطغيان وتنهي اسطورة الإستغلال والعبودية، لتعيد الإنسان إلى إنسانيته الحقيقة ولتبعد عنه عبودية الحجارة والوثن التي لم تملك لنفسها نفعاً ولم تحقق لغيرها ما ظل يرجوه منها آلاف السنين، وهنا كانت تشرق قسمات الإيمان، وتظهر حالات الإقتدار، وتمتحن نوازع الإنسان وهو يغير بكل اقتدار معالم عالم تاهت في رحابه كثير من المظاهر واختلطت في نزعات أبنائه كثير من المطامح المشروعة.

إن الحياة العربية التي استطاعت أن تبلور قيم المجتمع، وتوحد الخصائص الإنسانية التي دافع عنها الإنسان العربي، وثبّت اشكالها، كانت جديرة بتحمل المسؤولية الجديدة التي أوكلت إليها، وحرية بامتلاك زمام المبادرة للوقوف بوجه التحديات التي بدأت تأخذ شكلاً جديداً بعد أن أدركت قدرة القوة الجديدة. وتحسست حجمها الإنساني الذي بدأ الرسول الكريم يدعو إليه، ويبشر به وينشر تعاليمه. وإن هذا الحجم الجديد أخذ مكانته في نفوس الناس حين اندفعوا إلى قبوله، والإيمان به والدفاع عنه والموت من أجل الحفاظ عليه، وكانت أهدافه السمحة تتسرب إلى القلوب بلا استئذان، ومعانيه الصادقة تلامس المشاعر الحسية النابضة التي كانت تشعر بالفراغ الكبير الذي يسد عليها منافذ الحياة، ويغني حياتهم بالقيم التي هيأت لها ظروفها، وأعانت على استكمال أجزائها كل المبررات التي أهابت بهؤلاء الناس إلى التطلع بجرأة لنزع ما علق بعقولهم من أوهام، والتمسك بما كان يتلى عليهم من آيات بينات، وتشريعات تضع الأسس الحقيقية لحياتهم القادمة. ولم يكن الشعر بعيداً عن هذه الأحاسيس

التي كانت تتجسد في السلوك اليومي والعلاقات الإجتماعية والتعامل الحياتي وتظهر من خلال التعامل الذي ظلت وسائله مرتبطة بالواقع الحي الذي تعيشه هذه المجاميع ، ولم يكن الشعراء الذين أخذوا على أنفسهم مهمة الدفاع عن الدين بعيدين عن هذا التصور الذي فتح عقولهم للإستنارة بهدى الدعوة فأسلموا نفوسهم رخيصة لله ، وباعوا حياتهم لنشر رسالته المباركة ووضعوا قدراتهم وما يحيطون به من علم وثقافة ومعرفة في تأكيد مبادىء الدعوة . وتوضيح أبعادها المختلفة وتوسيع آفاق حدودها التي عرفتها وتزويد أصحابها بما يجعلهم أكثر قدرة على المقاومة وأشد صبراً على الجهاد ، وأصدق التزاماً على مصاولة المشركين ، ومثل ما وقف الشعراء إلى جانب هذه الدعوة المباركة بعد اقتناعهم بعدالتها ، وإيمانهم بما جاءت به من آيات ، فأن مجموعة أخرى من الشعراء كانت تقف في الطرف الثاني من المعركة ، وهي تصد عن سبيل الله ، وتصر على الكفر ، بعد أن جردت نفسها وما تملك لتحارب الدعوة خوفاً من المصير الذي أصبح يتهددها وخشية من الضياع الذي ستصبح فيه بعد أن تفرغ من الإدعاء الباطل الذي بقيت متمسكة به ، وتجهد نفسها من أجل الحفاظ عليه والدفاع عنه والإمتناع عن الرضوخ لما تدعو اليه دعوة الرسالة الكريمة .

وكان الشعر عند هذه الفئة يأخذ الدور الذي أخذه عند الفئة الأخرى ، وكانت نزعات الشعراء تدور في إطار النزعات المضادة التي كان يتحرك في دائرتها شعراء الدعوة ، وقد أدى التحدي الجديد الذي حمل لواءه شعراء الرسول الكريم إلى أن يندفع شعراء المشركين إلى إشهار أسلحتهم بوجه المؤمنين ورفع راية المقاومة لإيقاف الزحف الجديد ، وقد انطلقت ألسنتهم وتوقدت شاعريتهم ، وتفتقت قدراتهم وبدأت شاعرية شعرائهم تستيقظ وتقوى بعد أن وقفوا بكل قوتهم يناهضون الدعوة ويردون عن أنفسهم أسلحتها التي كانت تحاصرهم في كل موقع وترهبهم في كل ميدان ، وتستلب من نفوسهم كل القدرات التي كانوا يعتمدونها في المقاومة ، وهذا ما دفع ابن سلام إلى أن يقول « والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ، ولم يحاربوا » ومن الطبيعي أن يأخذ الشعر في إطار

هذا الصراع حالة تختلف من حيث المضامين والمعاني والتناول ما أخذه الشعر قبل الإسلام بسبب التغير الأساسي في المعايير والتبدل الجوهري في معالجة المسائل وأساليب المخاطبة التي بدأت تتغير لهجتها وطرق المحاجة التي استخدمت فيها الصيغ الحديثة، والتوجه نحو الإلتزام بالغايات الرئيسة والمبادىء التي تمثلت في معالجة كل مشكلة من المشكلات التي أفرزتها الأحداث أو دعت الحاجة إلى تقويمها أو إصلاحها أو توجيهها الوجهة التي تخدم البناء العام وتشارك في إيصال المجتمع إلى الحالة التي تتطلبها المرحلة. وبهذا يكون الشعر قد خرج من نطاق الجانب القبلي وابتعد عن بعض الأغراض التي كانت أهدافها محصورة في اطر ضيقة، وتطورت مضامينه وقف توسيع الحدود المعروفة واستيعاب الأفكار التي تتلاءم مع الواقع الجديد الذي يحفظ للأمة وحدتها، ويصون عقيدتها ويوثق الصلة بين أبنائها لخدمة أغراضها بعد أن توجهت فنون الشعر إلى تعميق مفاهيم العقيدة وترسيخ معانيها في النفوس والدعوة إلى الثبات والحض على الجهاد والتغني بنصرة الحق. والوقوف بوجه المشركين والاستبسال في مقاومتهم والذود عن حمى القيم الإنسانية التي جاءت بها الدعوة، ودعت المؤمنين إلى الحرص عليها.

وقد تجلت كثير من هذه المعاني في دلالات الأغراض التي كانت تجد مجالاتها الواسعة في قنواتهم الشعرية فالفخر كان يزخر بالإعتزاز بالقوم والإشادة بفضائل الرجال، وكثيراً ما كان يمتزج بالحماسة التي تستمد من فروسيتهم وهم يشيرون فيها إلى شجاعتهم وبلائهم وقدرتهم أو يتداخل في شعر الحرب الذي كان يمثل قمة هذا الضرب الشعري لوقوفهم فيه على العناصر الرئيسة التي تحدد النتائج المترتبة والتي تنحصر في الحديث عن الخيل والسلاح، وفي هذا الجانب تستمر الصورة القديمة للخيل، وتتطاول المعاني التي عرفت بها، وتتطابق الأوصاف التي ألحقت بكل عضو من أعضائها فهي عارية القوام، مكتنزة اللحم، سريعة في الحرب عابسة عند لقاء العدو، تردي الخصوم، وتطارد فلولهم، تنازع أعنتها إذا سمعت من يناديها وتجيب دعوة من يدعوها.. وقد تمثلت هذه المعاني في قول كعب بن مالك:

نصبحكم بكل اخى حروب — وكل مطهم سلس القيادِ
وكل طمرة خفق حشاها — تدف دفيف صفراء الجرادِ
وكل مقلص الآراب نهد — تميم الخلق من آخر وهادي
خيول لا تضاع إذا اضيعت — خيول الناس في السنة الجمادي
ينازعن الأعنة مصغيات — إذا نادى إلى الفزع المنادي

وكما وقف الشاعر الجاهلي وقفة طويلة عند سلاحه وهو يناجيه ويتحدث إليه ويتأمل قدرته ومضاءه، ويتابع تاريخه وبلاءه فقد وقف الشاعر الإسلامي عند هذا الحديث وبالصيغ التي تقارب تلك الصيغ فالقوس التي ذكرها أوس بن حجر وتحدث عنها بتعاطف الشنفرى وأطال وأسهب في متابعة مراحلها الشماخ، فكان كعب بن مالك يذكر تلك المراحل ويشير إلى صنعها والشجر الذي تؤخذ منه وقلل الجبال التي تكون عادة موطناً للنبع ولكن وقوفه لم يكن طويلاً عند متابعة الدقائق الأخرى التي عاشها الشاعر الجاهلي لأنه في الغالب كان يقتطع الحديث لغرض الإيفاء بالتزامات الجودة التي يريد أن يضيفها على سلاحه، والمشاركة التي حملها هذا السلاح والذي يدخل في أوصافه وهي إشارة جديدة إلى أن الشاعر ذكر السهام التي ترش بالسم لتكون قاتلة ومصمية، ولتظل آثارها واضحة فيمن تصيبه وقد فصل كعب بن مالك ذلك بقوله:

تهادى قسي النبع فينا وفيهم — وما هو إلا اليثربي المقطع
ومنجوفة حرمية صاعدية — يذر عليها السم ساعة تصنع
تصوب بأبدان الرجال وتارة — تمر بأعراض البصار تقعقع

وقد حاول كعب بن مالك أن ينصف خصومه كما أنصفهم من قبله الشعراء بقصائد حملت معنى الإنصاف واعترفت لهم بمعنى البلاء والمقاومة، وأشادت بصمودهم الذي كان مثار الإعجاب، فهو يشيد برميهم وسهامهم ويذكر فعلها في قومه كما هي تفعل في المشركين ،، وبذلك يعبر عن قدرة السلاح وتصويب الرمي ودراية القتال وهي تذكرنا بأبيات عمرو بن كلثوم التي يقول فيها:

كـان سيـوفنـا فينـا وفيهـم مخاريـق بـأيـدي لاعبينـا
كـأن ثيـابنـا منـا ومنهـم خضبن بـأرجـوان أو طلينـا

وللسيف في الشعر الإسلامي حديث طويل تناوله الشعراء وعبروا عن أحاسيسهم تجاهه وهم يخوضون معارك شديدة، ويجابهون الشرك، ويمتحنون في صلابة العقيدة ومن الطبيعي أن يكون قاطعاً وحاسماً ولامعاً، واهتموا بالرماح فوصفوها وذكروا قوتها ومضاءها وتحدثوا عن استقامتها وذكروا الدروع ونسجها وما تضاعف منها وفضل وما عرف بنسبه إلى داود وتبع وفي كل وصف من أوصافهم لهذه الأنواع من السلاح كانوا يدللون على فضل حاملها وبطولته ليخلصوا من ذلك إلى مدح الفرسان والإشارة إلى أعمالهم الكبيرة التي يقدمونها وينتقلوا إلى الفخر الذي يعتمد السلاح بكل ضروبه أداة من أدوات النصر ووسيلة من وسائل الظفر ومن الطبيعي أن تكون معركة بدر حافزاً جديداً، ومصدر إلهام للشعراء المسلمين وهم يخوضون التجربة الأولى، ويسجلون القدرة القتالية الكبيرة، ويحققون انتصار العقيدة التي تمثلت في قلوب المؤمنين وهم الفئة القليلة لتكتسح الفئة الكبيرة وقد فتح الله على رسوله، وأخزى أئمة الكفر، وشفى صدور المسلمين منهم. وكان المسلمون يتقون اليأس برسول الله ﷺ حيث كان من أشد الناس بأساً وما كان من المؤمنين أحد أقرب إلى العدو منه. وكان صاحب راية رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة.

وقد تمثل الشعر بكثير من المعاني التي كانت تدور على ألسنة المقاتلين وهم يعبرون عن التزامهم بالدفاع عن الدعوة، وتحقيق المطامح المشروعة التي جاءت بها، وصلابة العقيدة التي كانت تتمثل في القول والفعل وفي استجابة الأنصار لدعوته ما يؤكد هذه الحقيقة وفي مقولة سعد بن معاذ التي خاطب بها الرسول الكريم ما يشير إلى هذا التوجه الصادق حين وقف مع قومه فقال: والله كأنك تريدنا يا رسول الله، قال: أجل. قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة،

فآمض يا رسول الله كما أردت، فوالذي بعثك بالحق، إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك. فسر بنا على بركة الله، وكما كانت العقيدة عاملاً حاسماً من عوامل الإندفاع وتأكيد حقيقة الشروع في المجابهة فقد كان الإستشهاد صورة من صور الإقتحام البطولي الذي سجله المجاهدون الأوائل وهم يستمعون إلى الرسول الكريم وهو يقف في مقدمة جند المؤمنين يوم بدر ويقول: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة، فقال عمير بن الحمام، أخو بني سلمة وفي يده تمرات يأكلهن، بخ بخ، فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل وهو يقول:

ركضـــا إلى الله بغيـــر زاد ... إلا التقـــى وعمـــل المعـــاد
والصبـــر في الله على الجهـــاد ... وكـــل زاد عـــرضـــة النفـــاذ
غر التقى والبر والرشاد

وكثير ما كان الشعراء يذكرون الخصوم المشهورين الذين تنوشهم الرماح أو السيوف وعندما قتل ابن أبي الحقيق اليهودي وهو بخيبر بعد أن عرض له نفر من المسلمين قدموا إلى رسول الله ﷺ وأخبروه بقتله واختلفوا فيمن قتله بعد أن كان كل واحد منهم يدعيه فقال رسول الله ﷺ هاتوا أسيافكم فجاءوا بها فنظر إليها فقال: لسيف عبد الله بن أنيس: هذا قتله أرى فيه أثر الطعام. فقال حسان بن ثابت وهو يذكر قتل كعب بن الأشرف وسلام بن أبي الحقيق:

لله در عصـــابـــة لاقيتهـــم ... يا ابن الحقيق وأنت يا ابـن الأشرف
يسرون بـالبيـض الخفـاف إليكـم ... مرحـاً كـأسـد في عـريـن مـعـرف
حتـى أتـــوكم في محـــل بـلادكـم ... فسقـــوكم حتفـــاً ببيـــض ذفـــف
مستبصريـــن لنصر ديـــن نبيهـــم ... مستضعفين لكـــل أمـــر مجحـــف

وبقي الشعر يخلد الوقائع والغزوات ويتحدث عن مواقف المسلمين وهم يتعرضون لتحديات المشركين واليهود والمنافقين الذين وجدوا في أحكام الدعوة إسقاطاً لمواقعهم وإنهاءً لسيطرتهم وإيقافاً لتجاوزاتهم التي حاولت وبكل الأشكال إسكات الأصوات المؤمنة التي بدأت تشق طريقها، وتعبر عن نفسها وتكشف عن قدرتها وعقيدتها.. وبقيت أبيات هذا الشعر تحمل صيحات الفرسان وهم يجوبون الساحات الكبيرة، ويطرقون أرجاء الغزوات وهم يسجلون آيات التضحية وقد تجلت في مضامين معانيه صلابة المقاتلين وهم يخلدون الجهاد ويعززون الحياة، ويعطون لكل جانب من هذين الجانبين الدور الذي يستحقه باعتبارهما متكاملين من حيث الأداء، والمهمات والمسؤولية، وتلوح في صوره وألفاظه لمعات الأسنة وصليل السيوف وهي تهوي على رؤوس المشركين والمكابرين وتشتد عندما تلتحم بالرقاب والنحوروترتفع من جرس عباراته وتراكيبه زمزمة المواكب وهي تندفع مؤمنة ومتمكنة وحمحمات الخيل وهي تضرب الأرض بسنابكها القوية وقد توثقت حول جنبيها ركاب الرجال الأشداء يقودون المعركة، ويطاردون الخصوم وينزلون بهم أشد الضربات، والشعر في كل حالة من هذه الحالات لا يكتفي بسرد أخبار المعركة التي يريد الحديث عنها مجردة وإنما يستحضر الصور التي سجلها الأبطال ويستذكر المواقف الحاسمة التي عاشت في ذهن كل مقاتل وهو يقتحم هذه الأهوال بعد أن استردت نفسه تلك الصور، واعترت مسيرته تلك الأمجاد، ووقفت شامخة في دروب نصره ومآثر المعارك، والشعر في هذه المواقف لا يترك الرجال مجردين، ولا يتحدث عنهم معزولين بعد أن دخل عنصر العقيدة بشكل مجسد وتوضحت تأثيراته بصورة عميقة وقد امتدت جذوره فامتلكت زمام المبادرات، وتأصلت وشائج إيمانه في قلوب الرجال الذين وجدوا في الإستشهاد طعماً لم يألفوه، وتذوقوا في حلاوة الجهاد لوناً لم تكتحل به عيونهم بعد أن تفتحت البصائر وتألقت نوازع التضحية وهي تحمل نسغ الحياة الجديد، وتتشرب بأقباس السعادة التي بدأت تراود كل رجل من المؤمنين، وقد تحسست في دواخلهم قدرات الإيمان الذي أخذ بكل

أسباب وامتلك كل نوازع التعلق بما يمت إليها بصلة، ومن الطبيعي أن تشرق هذه المعاني زهواً إنسانياً جديداً، وتنبعث خلقاً عربياً مؤمناً، تمازجت في دواخله أمانة الزهو ومسؤولية الإقتدار، وتطاولت في ضميره محنة الإنسان الذي كان يراه وقد أغرقت حياته بكل لوازم الدنيا، وضاعت نزعته الكريمة في متاهات الوثنية، وشعاب الإنغماس المستبد، وأصبح لا يملك من وجوده إلا ما يوازيه من حيث الإعتقاد بالبشر الذين يحيطون به، بعد أن تهاوت في إحساسه تطلعات المؤمنين الذين امتدت أبصارهم إلى عالم جديد، تدفقت فيه المعرفة الواعية وتحركت في دائرته مكامن الذات الناهضة، فاستعاد إنسانيته وأحس بوجوده. إن هذا الوضوح في الرؤية، وهذا الإحساس بالنزعة كان يدفعه إلى أن يكون شيئاً جديداً يختلف من حيث البناء مع الماضي الذي حاول أن يحجب أيامه بكل الستر الثقيلة، ويطوي حياته بكل الأحداث الكبيرة التي يروم تحقيقها في هذا العالم الجديد الذي اتسعت فيه حقيقة الإنسان، وامتدت في أطراف مساحته آماله الكبيرة ومطامحه المشروعة.

إن هذه العقيدة الراسخة كانت موحية للشعراء بالتطور الجديد، وقادرة على مدهم بما يجعل الصورة الجديدة أكثر إشراقاً وأوسع مدى وأوفق للمرحلة الجديدة وهذا ما كان يحمل الشعراء على أن يستمدوا من هذا المعين ما يوفر لهم الزاد الشعري الخصب، والعطاء الذي يترك لهم باب الشعر مفتوحاً لأكثر من حالة وغنياً بنماذج فريدة يمكن أن تعطي الدفق الشعري نفساً أطول، وتلهم الشعراء بما يرفد قدراتهم ويوسع آفاق المجال المحدود في معالجاتهم. بعد أن أصبحت نماذج البطولة واضحة المعالم وصور الفداء مجسدة الأجزاء.

وتتسع قاعدة الرسالة الجديدة، وتزداد قوافل المؤمنين الذين بدأوا يدخلون في دين الله أفواجاً، وبدأت المبادىء الأساسية تتضح في القلوب والأبصار، وكلما جوبهت هذه الجماعات بتحديات جديدة ازدادت إيماناً، واشتدت قدرة وانطلقت وهي تعطي الناس من تضحيتها وصلابتها ورسوخها ما يضاعف إيمانهم بها، ويوثق صلتهم بعقيدتهم، فكان الرسول الكريم وصحبه الأخيار يبدون

ضروباً من البسالة ويظهرون ألواناً من الشجاعة وهم يحملون على المشركين، ويجهزون على أصحاب الألوية منهم، ولم تكن هذه الصور بعيدة عن تناول الشعراء، ولا غريبة على قصائدهم التي كانت تعرض لها وهي تؤرخ لوقائعها وتسجل أحداثها، وترثي قتلاها من المسلمين الذين حفت بهم الملائكة وأحاطتهم الرعاية الإلهية، وتجد في كل مناسبة مجالاً تعبر فيه عن إيمانها، فهذا عبد الله بن رواحة يأخذ بخطام ناقة رسول الله ﷺ حين دخل مكة وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله   أني شهيد إنه رسوله
خلوا فكل الخير في رسوله   يا رب إني مؤمن بقيله
أعرف حق الله في قبوله   نحن قتلناكم على تأويله
كما قتلناكم على تنزيله   ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله

وتمضي قصائد الشعراء مؤرخة أحداث الردة وحروبها التي استمرت ورجالها الذين حاولوا الخروج على الدين، بعد أن شعروا بأن فرصة مؤاتية قد حانت لأخذ الموقع الذي يمكنهم من السيادة، وتسنم المركز الذي يجعلهم قادرين على السيطرة على المناطق التي يسكنون فيها تمهيداً لمد نفوذهم، وعندما شعر هؤلاء وشعرت معهم القبائل الأخرى بأن انتقال الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى لا يعني تفرد الآخرين بالسلطة، وأن التنظيم الديني والدولة الجديدة قد أخذت حجمها المحدد من خلال الممارسة الفعلية لإدارتها والإلتزام بالسنة النبوية التي تركها، وبقدرة الصحابة على إدارة الوضع وبما يحقق للدين مسيرته، ويحفظ له أصوله وتعاليمه. ومن الطبيعي أن يكون ضعف الإيمان وعدم استيعاب الحقيقة الدينية، وفقدان دافع الإستقرار العقائدي الذي يعطي الإنسان إمكانية الدفاع عن القضية التي يؤمن بها، وحدة الصراع النفسي العميق الذي ظل يعتمل في بعض قلوب هؤلاء الذين مست العقيدة جانباً من جوانب حياتهم، وتمكن التعصب القبلي المتين في طبيعة العلاقات التي كانت تشد بين الأفراد، وصعوبة تقبلهم مشروعية دفع الزكاة لما كان يساورهم من أحاسيس وهم يؤدونها. هذه

العوامل كانت تمثل الجانب الحاد في تأجيج هذه الحركة التي اختلف في تحديدها المؤرخون كما اختلفوا في وقوعها وفي المعاني التي كانت تدور فيه هذه الحركة وفي مدى توثيق الروايات التي ذهبت تفسر حالاتها وتحلل أسبابها أن هذه التحليلات التي أدخلها المؤرخون على الردة لا تغير من طبيعة التوجه الذي قصدت إليه، ولا تبدل من أساليب التعامل التي طغت على جماعات المرتدين وهم يشهرون السلاح بوجه المؤمنين، ويناصبونهم العداء، ويمنعونهم عن تطبيق ما جاءت به التعاليم الدينية، ومارسته قيادة الرسول الكريم في حياته، وإن كتائب المجاهدين التي شقت دروب الجزيرة، وارتفعت راياتها وهي تطوي كثبانها الممتدة، وتسيح فوق رمالها المتناثرة كانت تحمل الحق الذي يعطي الرسالة مضمونها الإنساني، ويكتب لها أن تصل كل الناس لتعيد إليهم ما بدأوا يتذوقونه من سعادة الحياة وطمأنينة العمل الذي يؤديه الإنسان، والإيمان الذي بدأ يتجاوز في كل نفس، ويتحرك في كل خطوة، ويصاحب كل توجه.

وعندما قيض الله للمسلمين أن يذلوا المرتدين، ويسكتوا أصواتهم الباطلة ويقطعوا دابرهم، وعندما ارتفعت راية التوحيد فوق ربوع الجزيرة العربية لنشر القيم السمحة، ولتحقيق المبادىء الخيرة طلب الخليفة الراشد أبي بكر الصديق إلى خالد بن الوليد بعد أن فرغ من أمر اليمامة أن يسير إلى العراق. فسار خالد ونزل بقريات من السواد، فصالحه أهلها ثم أقبل بمن معه حتى نزل الحيرة فخرج إليه أشرافهم مع قبيصة بن أياس بن حية الطائي - وكان أمره عليه كسرى بعد النعمان بن المنذر - فقال له خالد ولأصحابه: أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم الجزية فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم.. وإذا كانت خيول خالد تضرب بسنابكها أرض الحيرة فإن جحافل المثنى كانت تتجه إلى المدينة وهي تطوي الطريق لتضع نفسها في خدمة الرسالة، ولتستأذن الخليفة الراشد (أبا بكر الصديق) لتقاتل أهل فارس ولتكون عوناً مع جيوش خالد في تحرير أرض العراق وإنسانه من

التسلط الفارسي المقيت الذي قهر إرادته واستلب منه إحساسه الإنساني..

لقد كانت بداية التحرير بداية لمرحلة جديدة توجهت فيها قدرة المقاتل العربي نحو أرض عربية لتحرير إنسان عربي حاول القهر الساساني أن يمسخ عروبته ويقتل انتماءه، ويمسح عن وجهه كل دلالة من دلالات أصالته الحقيقية ولكن هذا الإنسان الذي ارتبطت جذوره بأصوله، وتوحدت في نفسه مشاعر الإحساس بعروبته المتمثلة في حركة القبائل العربية التي ظلت تطوف أرض العراق وهي تحمل معها عناصر وجودها، وقيم تقاليدها، والتزامات أبنائها كانت تعيد إلى هذا الإنسان صوته الذي لم تبدده ضجة الصخب الفارسي، ولم تقتله رطانة المجوسية المقيتة، ولم تستحوذ عليه تسلطية التواطؤ المقيت التي ظلت تنحت في أصوله ما شاء لها النحت..

وكان الشعر في هذه المرحلة الجديدة شعراً مشرقاً، تألقت في قسماته معاني المشاعر الروحية، وتجلت في معانيه قدرة العقيدة وفكرتها وفي صوره سماحة البذل وسخاؤه، وعظمة التضحية ووفاؤها، لأن الشعر كان تعبيراً عن التغير الحقيقي الذي حملته هذه الروح، وكان إحساساً بالواقع الجديد الذي أمسك بزمام النوازع الوجدانية، ووحد الخطوات التي كانت تتحرك في طريق التقدم، وشد الوشائج التي أرادت لطريق المجد أن يأخذ دروبه الواضحة. ومن هنا كانت قنوات الشعر تصب في هذا المجرى، وتنثال في الروافد التي أغنت حياة المقاتلين بنبع القوة الذاتية، وحلاوة الدفاع عن المبدأ، والجهاد من أجل ترسيخه مهما كانت التضحيات. لأنها قنوات جديدة تنوعت بها الموارد وتوزعت في أرجائها ألوان الإتساع وأشكال الإمتداد بعد أن بدأت تستوعب إطار البطل الجديد والفارس المهيء الذي أدرك الحقائق المرحلية، واستشرف مهمات الإيمان الذي أحاط بالقلوب والأبصار، وامتلك المشاعر والأحاسيس.

ولا بد لهذا الشعر من أن يطفح بكثير من الخوافق النفسية التي كانت تعلو وجه الأحداث، ويسجل همسات الإنسان العربي وهو يدخل هذه الأرض، ويعيش في هذا العالم الغريب، ويختلط ببيئته التي كانت تمده بما هو بعيد عنه

ويسجل أنماط سلوكه وعلاقاته التي كانت تتأثر بطبيعة العلاقات السائدة وبأشكال التصرفات التي يراها في هذه المجتمعات وقد تحركت في دواخلها الكوامن واستثارت الهواجس، وتفاوت المشاعر، كما يسجل النتائج التي تمخضت عنها حركة التحرير ومدى تأثر النفوس بما وقفت عليه أو شاهدته من مظاهر غريبة وهي تبتعد عن أرضها ومواطنها، وما خالج النفوس من شعور بالغربة وإحساس بالحنين، ونزوع إلى الديار، وتشوق إلى الربوع، واستذكار للاحبة وتطلع إلى كل حبة رمل، أو ثنية ربع، أو عرصة دار، واعتزاز بالأرض وحب لها وتعلق بأهلها، وكثيراً ما كان يخالط هذه المشاعر التلهف الشديد، والتحسر المحزن وفي ظل هذه الحقائق الواضحة كان شعر التحرير سجل مفاخر، وعنوان بأس، وأناشيد زهو، وأغنيات بطولة، ومجالات اعتزاز، بقيت خفقاتها تزهو علواً وتشمخ إباء وتفوح تضحية ووفاء، لأنها كانت تنبثق من حقيقة الجهاد الذي بلور الوجدان وصاغ من نموذج الحياة قدرة الإندفاع، وحقق في وجود الإنسان ذاتية التمكن وأثار في كوامنه سعادة الإستشهاد بعد أن أدرك هذا الإنسان واقتنع بثواب الآخرة، وخلود الحياة، واستبشاره بلقاء الموت بأي شكل من الأشكال، واستدبار الحياة بكل متاعها الزائل، وهذا ما كان يدفعهم إلى الحرص على الموت أكثر من حرصهم على الحياة، واندفاعهم من اجل الإستشهاد أكثر من تراجعهم حباً في الدنيا.

ولقد كان الشعر أميناً على نقل هذه الأحاسيس صادقاً في إيصال مضامينها الحية إلى كل سبيل من سبل حياتهم، وهذا ما كان يعبر عنه قادة التحرير وهم يتقدمون الصفوف ويحققون الإنتصار، ويقتحمون دورب التحرير التي حاول الطغاة أن يوصدوا كل ابوابها، ويغرقوها بصنوف الأسلحة، وأسباب الدمار ولكن العقيدة الصادقة، والإيمان الثابت كان يملأ كل حركة من حركاتهم ويتجلى في كل تعبير من تعبيراتهم فالمغيرة بن شعبة، أحد دهاة العرب الأربعة الذين عرفوا للأمور العظائم كان رسول سعد بن أبي وقاص إلى رستم وكانت له محاورة طويلة، عرض فيها الأمور جليلة وكشف فيها عن الأسباب التي تختفي

وراء هذا النصر العظيم، والتربية الأخلاقية التي عرفها الصحابة والتزمت بها مواكب الفاتحين، هذا القائد العربي يختتم مقابلته لكسرى بقوله وهو يجيب كسرى بعد ان قال للمغيرة: إذاً تموتون أو تقتلون، يقول المغيرة إذاً يدخل من قتل منا الجنة، ويدخل من قتلنا منكم النار، ويظفر من بقي منا بمن بقي منكم... ويستمر في حديثه الذي يدل على عمق الثقة التي يتصف بها المغيرة، وقدرة الإيمان المتمكن الذي يعمر قلبه، ويشد نفسه، وهو يخاطب جبروتاً متسلطاً فيزعزع الأرض من تحته، وهو يقدم له صورة المقاتلين والخلق الرفيع الذي يحكم سلوكهم وتصرفاتهم، وتظل أمثال هذه العبارات تدور على ألسنة القادة والمقاتلين، وتنقل إلى دهاقين الفرس الذين لم يعرفوا لغة غير هذه اللغة، ولم يفقهوا حديثاً غير هذا الحديث، ولم يتسطعموا مرارة غير هذه المرارة التي تصل إليهم عن طريق الكتب أو الرسائل أو الحوار المباشر. ومثل المغيرة بن شعبة يصنع خالد بن الوليد في كتابه إلى رؤساء فارس وإلى أرباب المجوسية الذين حسبوا أن غطرستهم ستديم لهم الملك.

وهو في مضمونه ينتهي الى النتائج التي انتهى اليها كتاب المغيرة، وفي دلالته يقف عند المطامح المشروعة والأهداف الكبيرة التي تبناها الإسلام وعلم أبناءه الحفاظ عليها، والحرص على تطبيقها والدعوة إلى الأخذ بها.

ولقد كانت معاني الإقتدار والتمكن والصمود تتوزع في قصائد الشعر وتتحرك أصواتها في المضامين التي كانوا يطرقونها، وتحمل صورها صور المجاهدين الذين استبد بهم شوق الجهاد. وأخذ بمجاميع قلوبهم الإندفاع لتحقيق النصر الموعود، حتى أوشكوا أن ينقطعوا إلى هذه الدعوة، إستجابة لهذا النداء الأصيل، وتحقيقاً لهذه الدعوة التي كانت تلف حياتهم وتثبيتاً لدعائم الإيمان الذي أصبح جزءاً لا يتجزأ من واقعهم. وكأنهم وجدوا في هذه الدعوة تطميناً لكل رغبات الحياة، وهي تتمثل في الإنقطاع الى الواجب المقدس، وتتوجه إلى الله تعالى. وكانت روح الإندفاع تنسيهم علاقاتهم بذويهم الذين يناشدونهم البقاء، ويطلبون منهم التأخر ويدعونهم الى الإنصراف، ولكن هذه النداءات على

الرغم من الأسلوب العاطفي الذي يستخدم فيها، وطريقه المخاطبة التي تعالج بها كانت غير قادرة على إيقاف ذلك الإندفاع، ورد موجة العواطف التي كانت تساورهم. فالنابغة الجعدي الذي أراد أن يستجيب لدعوة الجهاد لم تثنه مناشدة زوجته عن السير، ولم توقفه دعوتها له عن التوجه إلى ساحة المعركة، لأنه يمتلك كل مقومات المقاتل ولم يقعد به سبب من الأسباب الموجبة للقعود. فيقول:

باتت تذكرني بالله قاعدة ... والدمع ينهل من شأنيهما سبلا
يا بنت عمي كتاب الله أخرجني ... كرها وهل امنعن الله ما بذلا
فإن رجعت فرب الناس أرجعني ... وإن لحقت بربي فابتغي بدلا
ما كنت أعرج أو اعمى فيعذرني ... أو ضارعاً من ضنى لم يستطع حولا

ويظل داعي الحق أشد تأثيراً، ونداء الحق أقوى قدرة في نفوس المقاتلين الذين نذروا نفوسهم إلى الله وباعوا أرواحهم رخيصة لدعوته الحقة، وتظل أصوات الأبوة التي امتلكت العواطف، وصيحات الشيوخ الذين أتعبتهم السنوات غير مقنعة للأبناء الذين يستطيبون لذة الجهاد، ويستشعرون نشوة التضحية في سبيل نشر الرسالة. فهذا شيبان بن المخبل السعدي يخرج مع سعد بن أبي وقاص لتحرير العراق من الفرس وتصاحبه آهات الفراق التي يصعدها أبوه وهو يخاف الفراق، ويخشى لوعة البعاد، وتواكبه صور الكبر والشيخوخة التي يحاول هذا الوالد أن يضعها أمام ابنه الذي عرف الجهاد واستطاب الشهادة وآمن بحق الرسالة التي أوجبت عليه أن يؤديها بكل وفاء، ويخلص لها بكل أمانة ويحقق مفرداتها بكل ما يستطيع، فيقول شيبان:

أيهلكني شيبان في كل ليلة ... لقلبي من خوف الفراق دبيب
ويخبرني شيبان ان لم يعقني ... تعق إذا فارقتني وتحوب
فإن يك غصني أصبح اليوم بالياً ... وغصنك من ماء الشباب رطيب
فأني حنت ظهري خطوب تتابعت ... فمشي ضعيف في الرجال دبيب
إذا قال صحبي يا ربيع ألا ترى ... ارى الشخص كالشخصين وهو قريب
أشيبان ما يدريك ان كل ليلة ... غبقتك فيها والغبوق حبيب

وتعلق في آذان الفتى المؤمن أصوات النداء الحارة، وتستقر في نفسه تحسرات الوالد الذي بذل كل ما يستطيع لإظهار الوجد المؤلم، والهلع المخيف والغربة القاتلة ولكن المقاتل الشجاع حفظ لكل هذه العواطف آثارها، وتصور قدرتها التي ستتركها في قلب الوالد المفارق، ولكنها كانت تمده بالعزم وتدفعه إلى تحقيق النصر ليعود إلى الوطن والأهل وقد تحققت في نفسه العقيدة التي آمن بها، واستقرت في ذاته عظم الرسالة التي حملها، وبلاء الحرب الذي قدمه، وعظم التضحية التي يعرف حقها، فكان يعلم أن ما يطلبه من والده يمثل الواجب الذي يفرض عليه مراعاة الشيخوخة ويعلم أيضاً الراجب الذي تفرضه عليه حقوق المواطنة وحقوق الرسالة وحقوق الإنسان الذي حملته الرسالة إنقاذه من واقع الظلم وظروف الإستعباد وعوامل القهر.

ومثل شيبان بن المخبل السعدي كلاب بن أمية بن الأسكر الذي لقي طلحة والزبير فسألها أي الأعمال أفضل؟ قالا: الجهاد في سبيل الله فسأل عمر فأغزاه، وكان أبوه قد كبر وضعف ولكنه كان يشعر أن صوت الجهاد أعلى من كل صوت. وأن العقيدة التي ترسخت في نفسه هي أكبر من العاطفة التي تحاول أن تشده الى العودة، أو تقاوم رغبته الأكيدة التي كان يتطلع اليها من خلالها إلى لقاء الله وإلى البلاء الحسن. ووجد في جند سعد بن أبي وقاص الرفقة الصادقة، والأخوة الحميمة والصحبة التي لا تضعفها أسباب الدنيا، وكانت خطواته السريعة تتسابق إلى حيث اللقاء الموعود للوقوف بوجه أعداء الله والعقيدة من الفرس الذين حاولرا بكل أساليبهم أن يقاوموا الدين ويوقفوا حركة الأمة الناهضة ليعيدوا أمجاد آبائهم الأكاسرة، ولكن ارادة الإيمان كانت أقوى، وعزيمة الأمة كانت أشد، وقدرة الرجال المؤمنين كانت أكبر من أن يحيط بها محيط أو يوقف زحفها مكابر.. وبقيت عواطف الأبوة تتفجر في ابيات الأب الكبير حيث يقول في بعض قصائده:

لمن شيخان قد نشدا كلابا   كتاب الله ان حفظ الكتابا

إذا هتفت حمامة بطن وج   على بيضاتها ذكرا كلابا

تـركـت أبـاك مـرعشـة يـداه وأمـك مـا تسيـغ لها شرابـا

ويستبد بالشيخ الحنين، وتتعالى في نفسه هواجس الخوف من الموت، ويشتد به حنان الأبوة العنيف، فيكتب لإبنه وهو يتشوق إليه:

أعـاذل قـد عـذلـت بغير علم ومـا يـدريـك ويحك مـا ألاقـي
فـأمـا كنـت عـاذلتي فـردي كلابـاً إذ تـوجـه للعـراق
فتـى الفتيـان في عسـر ويسـر شـديـد الركـن في يـوم التلاقـي
فلا وأبيـك مـا بـاليـت وجـدي ولا شغفـي عليـك ولا اشتيـاقـي
وإيقـادي عليـك إذا شتـونـا وضحكـك تحت نحري واعتنـاقـي
إن الفـاروق لم يـردد كلابـا على شيخين هـامهما زواقـي

وتبلغ الأبيات مسامع الخليفة الراشد عمر بن الخطاب فيكتب إلى سعد بن أبي وقاص يأمره بإقفال كلاب فلما قدم أرسل عمر إلى أبيه (أمية بن الأسكر) فقال له:

أي شيء أحب إليك. قال: النظر إلى ابني كلاب، فدعاه له فلما رآه اعتنقه وبكى بكاءً شديداً، فبكى عمر، وقال يا كلاب: إلزم أباك وأمك ما بقيا، وارتضى كلاب بتوجيه الخليفة وخضع لإرادة أمير المؤمنين، وفي نفسه حب للعودة، وشوق للمشاركة، وحنين إلى أرض المعركة التي وجد فيها السعادة.

وتبقى ينابيع الخير تمد ساحة المعركة بالأبطال، وترفد قوافل المؤمنين بالأبناء الذين كانوا يتسابقون إلى المعارك، ويتزاحمون لورود مناهل التضحية فيندفعون إرضاءً لطاعة الله، وإيماناً بحبه، وتقرباً لمرضاته وتقترب في صور إندفاعهم صورة الإنتصارات الرائدة، وتتحقق في دلالات تضحياتهم نماذج البطولة الفريدة التي بقيت تمد الأجيال بالمعاني الكبيرة وتغني تجربتها بتجاربهم الجريئة وتبقى صورة الخنساء وهي تحمل لواء الجهاد فتقدم إلى المعركة أعز ما تملك، وتعطي من أجل إستمرارها أغلى ما يحرص عليه الإنسان من أجل الصور وأكبر النماذج فعندما حضرت حرب القادسية ومعها بنوها الأربعة قالت لهم من أول

الليل: يا بني انكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد كما إنكم بنو امرأة واحدة... قد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾. فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستنصرين. وبالله على أعدائه مستنصرين فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطرمت لظى على سياقها، وجللت ناراً على أوراقها فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة، فخرج بنوها قابلين لنصحها عازمين على قولها، فلما أضاء لهم الصبح باكوراً مراكزهم وأنشأ أولهم يقول:

يا أخوتي إن العجوز الناصحة … قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
مقالة ذات بيان واضحة … فباكروا الحرب الضروس الكالحة
وإنما تلقون عند الصائحة … من آل ساسان الكلاب النابحة
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة … وأنتم بين حياة صالحة
أو ميتة تورث غنماً رابحة

وتقدم فقاتل حتى قتل (رحمه الله) ثم حمل الثاني وهو يقول:

أن العجوز ذات حزم وجلد … والنظر الأوفق والرأي السدد
قد أمرتنا بالسداد والرشد … نصيحة منها وبراً بالولد
فباكروا الحرب حماة في العدد … أما لفوز بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم عز الأبد … في جنة الفردوس والعيش الرغد

فقاتل حتى استشهد (رحمه الله) ثم حمل الثالث وهو يقول:

والله لا نعصى العجوز حرفاً … قد أمرتنا حدباً وعطفاً
نصحاً وبراً صادقاً ولطفاً … فبادروا الحرب الضروس زحفاً
حتى تلفوا آل كسرى لفاً … أو تكشفوهم عن حماكم كشفاً



إنـا نـرى التقصير منكـم ضعفـاً   والقتـل فيكـمْ نجدة وزلفـى

فقاتل حتى استشهد (رحمه الله) ثم حمل الرابع وهو يقول:

لسـت لخنسـاء ولا للأخـرم   ولا لعمـرو ذي السنـاء الأقـدم

ان لم أرد في الجيش جيش الأعجم   مـاض على الهـول خضـم خضرم

أمـا لفـوز عـاجـل ومغنـم   أو لـوفـاة في السبيـل الأكـرم

فقاتل حتى قتل رضي الله عنه وعن اخوته، فبلغها الخبر فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعطي الخنساء أرزاق أولادها الأربعة لكل واحد مائتي درهم حتى قُبض رضي الله عنه.

وفي معاني هؤلاء الشهداء تتجلى العقيدة التي دفعت الرجال المؤمنين إلى مجالدة الفرس وقتال المشركين من المجوس، وهم يجودون بالنفوس، بقدرة لا تقاوم، ومقاومة لا تقهر، وإحساس عميق يؤكد حقيقة التمسك بالفكرة، وأصالة الإنتماء إلى الأرض، والإيمان بعدالة القتال وشرعية المجابهة استجابة لنداء الرسالة وصوت العدل الذي ملأ آفاق حياتهم، وفي خيبر أخذ أبو بكر راية رسول الله ﷺ وقاتل قتالاً شديداً، ثم رجع فأخذها عمر بن الخطاب وقاتل قتالاً شديداً، وهو أشد من القتال الأول ثم رجع فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال الرسول الكريم: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» فلما كان من الغد تطاولت لها قريش، ورجا كل واحد منهم أن يكون صاحب ذلك فدعا علياً عليه السلام وأعطاه الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله وخرج مرحب صاحب الحصن وعليه مغفر معصفر يمان وحجرقد ثقبه مثل البيضة على رأسه وهو يرتجز ويقول..

قـد علمـت خيبر أني مـرحـب   شـاكـي السلاح بطـل مجرب

أطعـن أحيـانـاً وحينـاً أضرب   إذا الليـوث أقبلـت تلهـب

فقال علي عليه السلام:

أنـــا الذي سمتني أمـــي جيـــدرة أكيلكـم بـالسيـف كيـد السنـدرة
ليـوث بغـابات شديـدة قســورة

فاختلفا ضربتين فبدره علي (عليه السلام) فضربه فقد الحجر والمغفر ورأسه حتى وقع في الأضراس فسمع أهل العسكر صوت ضربته فماتتام آخر الناس مع علي عليه السلام حتى فتح الله له ولهم.

كان الفرس يشكلون أداة تحريك البواعث، وإثارة أسباب الإرتداد بعد أن شعروا بأن رسالة الإسلام سوف تضعف قوتهم، وتزيل سلطانهم وتبدد كلمتهم، وقد وجدوا في إثارة الفتن ضعضعة للعزائم، وتفتيتاً للوحدة، وتمزيقاً لأسباب التلاحم، وقد انعكس هذا التأثير في البلدان التي استوطن فيها الفرس الممتدة من اليمن إلى عمان والبحرين وتمكنوا من السيطرة على أبنائها والإستحواذ على ثرواتها وبسط نفوذهم على كل مرفق من مرافقها لأنهم كانوا يخشون ثورة أهلها العرب الذين لم يتركوا فرصة إلا قاوموا نفوذهم وقد وجد الفرس فرصتهم المواتية لتحريك هذه المواطن إلا أن المسلمين استطاعوا أن يبطلوا كيدهم، ويسقطوا حججهم ويبددوا أحلامهم ويسكتوا أصوات الردة وكل التحركات التي كانت تختفي وراء هذا الإدعاء، وعند هذه البدايات التي كانت تتحقق فيها انتصارات المسلمين كانت جحافل المؤمنين من أبناء هذه الأقطار تنخرط في سلك المجاهدين فكان المثنى بن حارثة الشيباني وعتيبة بن الهناس وحرملة ومذعور وكان غيرهم ممن آمن بالدين واعتقد برسالة الرسول الكريم صلوات الله عليه ورضي أن يكون جندياً من جنود التحرير، وكانت لمواقفهم الشجاعة في تلك الأيام الحاسمة الأثر الأكبر في تحقيق الإنتصارات العظيمة التي أحرزها المسلمون على امتداد الساحل الشرقي وعلى طول الخليج العربي، وبدأت طلائعهم تهدد مواقع الفرس الذين وقفوا إلى جانب المرتدين يمدونهم بأسباب القوة ويؤيدنهم في إيقاف حركة التحرر.

لقد شغل أمر العراق ذهن المثنى منذ الأيام الأولى، لأن السواد يمثل الأرض

العربية التي عاث فيها الفرس خراباً، فأذلوا إنسانها، واستغلوا أرضها، ونهبوا خيرها، وحاولوا بكل وسائلهم قهر إرادة شعبها العربي وقتل طموحه في التحرير بما استخدموه في أساليب، واستعانوا به من أعوان وعملاء وظلت أمنيته الكبيرة تتألق في ذهنه كلما امتد نظره إلى هذه الأرض وسمع المظالم التي كان يقترفها أبناء المجوس بحق شعبها العربي.

وتقدم الفارس العربي بمن تبعه من بني شيبان وهم ثمانية الآف مقاتل بعد أن مهد الجو للعرب المقيمين ليرد إليهم الإعتبار، ويحقق لهم الحياة الكريمة، ويرفع عن رؤوسهم جبروت الكسروية الضالة.

وتقدمت جيوشه حتى دانت له القطيف وهجر وكانت قواته تكتسح المدن والأرياف وتنتزع النصر تلو النصر، وعندما قويت شوكته وارتفعت رايته أوعز الفرس إلى القبائل الساكنة عند مصب الفرات لتتعرض له وتصد جوعه ولكنها كانت صيحة اليأس، ونداء الهزيمة بعد أن أبت هذه القبائل أن تحمل السلاح في وجه أخوة لهم من العرب حملوا السلاح لتحريرهم، ورفعوا راية الحق من أجل إنقاذهم من المجوسية المشركة، لقد وجدت قبائل لخم وتغلب وأياد والنمر وشيبان التي كانت تسكن العراق في عرب الجزيرة إمتداداً لنسبها، وفي أحاسيسهم صلة بمشاعرها وفي هواجسهم وهم يتوجهون إليهم مطامحها المشروعة وفي نزوعهم إلى التوحد وانقاذهم من جبروت الدهاقين إنقاذاً لكرامتهم التي حاول الفرس هدرها.. وتأبى عروبة هذه القبائل إلا أن تستجيب لصيحات المثنى، فتختلط الأصوات العربية وتتوحد الجيوش، وتلتقي في أكف الرجال سيوف الحرب المواضي، وتموت دسائس الفرس ويقطع دابر مكرهم، وتنتهي محاولاتهم التي حاولوا من خلالها أن يمرروا دعواتهم المريبة. وعلى الرغم من محاولة اصطناع بعض الكيانات التي كان الفرس يؤملون فيها حصوناً تقيهم إنطلاقة المواكب العربية التي كانت تتحرك من الجزيرة العربية لتحرير أرض العراق والوقوف بوجه التسلط الفارسي فأن ذلك لم يحل دون توحد قبائل العراق وقبائل الجزيرة إحساساً بالمصير الواحد، وإدراكاً للمصلحة المشتركة التي تلتقي

في حدودها آمالهم. وهذا ما جعل القبائل العربية في العراق تشعر بأنها على صلة وثيقة بقبائل الجزيرة وأنهم يتصلون من حيث الوجود والإمتداد إتصالاً وثيقاً، ويتفقون معهم في الأهداف والنوازع.

وتتعاظم رحلة المثنى وصحبه ممن نذروا أنفسهم لله ليخوضوا أول معركة تحت قيادة خالد بن الوليد في معركة ذات السلاسل، لأن رجال هرمز الذي كان من أسوأ أمراء الفرس معاملة للعرب، ومن أشدهم حقداً عليهم كانوا مقيدين ومقرونين بالسلاسل خوفاً من الهزيمة كما فعلوا في المعارك الأخرى، وفي هذه المعركة دعا خالد هرمز إلى واحدة من ثلاث بعد أن كتب له: اسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة واقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ولا بد أن تميل كفة الحرب لجيش العقيدة الذي اكتسح بقدرته جحافل الفرس، وتنتهي المعركة لصالح قوى الخير التي حملت قيم الإنسان، ودافعت عن أسباب وجوده في التطبيق والممارسة، ولا بد أن ينتهي هرمز إلى النهاية التي يؤول إليها كل المارقين الذين امتلأت قلوبهم بالحقد، وتنازعت أهواءهم شهوات الحكم، وضاقت عقولهم بدواعي الغطرسة الفارغة، ولا بد أن يكون الفرار نصيب أولئك الجند الذين غامت أمام عيونهم رؤية القضية التي يدافعون عنها وتلاشت في قلوبهم صور العقيدة التي تدفعهم الى الدفاع، وتبدد أحلام الأرض التي لا يعرفون مواقع أقدامهم فوقها. ويكتب خالد بن الوليد إلى المثنى ليأتيه فيلتقي الفارسان ويمد أبو بكر خالداً بالقعقاع ابن عمرو التميمي الذي قال عنه الخليفة الراشد (رضي الله عنه) لا يهزم جيش فيهم مثل القعقاع ويخوض الجيش العربي سلسلة من المعارك يتحقق فيها النصر وتمنى جيوش الفرس بالهزيمة والخذلان وتسند قيادة الحيرة إلى القعقاع بن عمرو وفيها يستذكر إنتصارات جيشه التي وطئت هرمزاً وأحاطت بقصورهم بعد أن نزلت عليهم جيوش المسلمين نزول المنايا، وهووا بسيوفهم على رؤوسهم الفارغة فتركوهم بين قتيل وأسير وهارب.

سقى الله قتلى بالفرات مقيمة   وأخرى بأثباج النجاف الكوانف

فنحن وطئنا بالكواظم هرمزاً — وبالثني قرني قارن بالجوارف
ويوم أحطنا بالقصور تتابعت — على الحيرة الروحاء إحدى المصارف
حططناهم منها وقد كان عرشهم — يميل بهم، فعل الجبان المخالف
رمينا عليهم بالقبول وقد رأوا — غبوق المنايا حول تلك المحارف
صبيحة قالوا نحن قوم تنزلوا — إلى الريف من أرض العريب المقانف

وفي اليس على صلب الفرات تتجمع قوى الفرس والمسالح التي كانت بإزاء العرب في محاولة لإستعادة ما خسرته في المعارك التي خذلوا فيها ويشتد القتال ويصابر المسلمون ويدعو خالد الله سبحانه وتعالى وهو يخاطبه، اللهم إن لك عليّ ان منحتنا أكتافهم ألا أستبقي منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم.. ويكشفهم الله عز وجل للمسلمين ويمنحهم أكتافهم وترتفع سيوف العقيدة وقد حملتها السواعد المؤمنة، وتمتد الرماح الصلبة الصادقة، بعد أن امتشقتها الأيادي التي تحسن استعمالها وتعرف مضاءها، وتعلم قدرها وتتوحد قدرة المقاتلين وقوة السلاح، وتتفق وحدة الإيمان وسلامة العقيدة وتدور الدائرة على المشركين الذين سيقوا إلى الأسر زمراً، وذاقوا مرارة الموت قوافل وجماعات وكان أبو محجن الثقفي قد شارك في هذا اليوم وقد أبلى بلاءً حسناً وذكره في قصيدة منها:

وما رِمتُ حتى خرّقوا برماحهم — ثيابي وجادت بالدماء الأباجل
وحتى رأيت مهرتي مزوئرة — من النبل يدمى نحرها والشواكل
وما رحت حتى كنت آخر رائح — وصرع حولي الصالحون الأماثل
مررت على الأنصار وسط رحالهم — فقلت لهم هل منكم اليوم قافل
وقربت رَوّاحاً وكُوراً ونمرقاً — وغودر في أُلّيس بكر ووائل

ووفق قيادة حكيمة ودرس عسكري يلتقي القادة العرب ليصنعوا النصر ويحققوا اكتساحاً عسكرياً جديداً، وتسجل معهم جيوش المسلمين من العرب ملحمة أخرى من ملاحم النصر، وتكتب فوق ربوع العراق قصيدة بطولية

أخرى تضيف إلى أمجادهم مجداً، ويتحول الجميع إلى أبطال ميامين، وفرسان بواسل،وأسود مقتدرة تقتحم الموت بلا تخوف، وتزاحم المنايا بلا تردد، وتلقن الفرس أعداء الله والأمة درساً آخر من دروس الحرب، وقد ارتسمت على وجوههم إمارات النصر وختم على قلوبهم بالإيمان الذي لا تزعزعه القوة مهما كانت عظمتها وقدرتها وجبروتها، بعد أن وضعوا أمامهم المقولة الخالدة (النصر أو الشهادة) فدانت لهم الدنيا وتوالى عليهم الإنتصار، وتحققت لهم الكرامة، وذلت لسيوفهم رقاب الطغاة وخضعت لمقدرتهم غطرسة المجوس، وتناثرت فوق تراب العراق الطاهر رؤوس (قارن) و(قباذ) و(أنوشجان)، وولت بقاياهم الإدبار وهي تتجرع كؤوس الهزيمة، وتذوق مرارة الخذلان، ويبقى صوت الإيمان يرتفع في أجواء المدن العربية وهي تتحرر من ربقة العبودية، وتتخلص من تسلط الأسترقاق والإستغلال، ويصور أبو مقرن الأسود بن قطبة هول هذا اليوم وما قدم فيه المقاتلون العرب من بلاء وما صنعوه بفلولهم المنهزمة، وكيف تفرقوا، فيقول:

لقينا يوم اليس وامغي ... ويوم المقر آساد النهار

فلم أر مثلها فضلات حرب ... أشد على الجحاجحة الكبار

قتلنا منهم سبعين ألفاً ... بقية حربهم غب الأسار

سوى من ليس يحصى من قتيل ... ومن قد غال جولان الغبار

ويتجه القعقاع إلى حصيد، على مقربة من الكوفة، ولما علم روزبه أن القعقاع قد قصده استخلف على عسكره المهبوذان، والتقوا عند حصيد ودارت رحى معركة طاحنة قتل الله العجم فيها مقتلة عظيمة، وقتل القعقاع زرمهر، وقتل روزبه وأوقع المسلمون بهم وقعة منكرة، وتزهو في نفس القائد لذة الإنتصار، وهو يرى جنده يخوضون المعركة، ويحققون الفوز ويسجلون المفاخر والمآثر، وتتجدد في نفسه روح الحنين والذكرى، ولم يجد أحد يبلغ الخبر لحليلته وهو يقف على أعتاب البطولة بعد أن أودى بالقائد الفارسي، فيطلقها عامة لكل الذين يحملون الأخبار، وينقلون أصوات المعركة، ويتابعون أحداث التحرير ليبلغوا حليلته

بالخبر فيقول:

ألا أبلغـــا أسماء أن حليلهـــا قضى وطرا من روزمهـر الأعـاجـم
غداة صبحنـا في حصيـد جموعهـم بهنـديـة تعـزى فـراخ الجماجـم

ويسير أبو ليلى بن فدكي بمن معه ومن قدم عليه نحو الخنافس قرب الأنبار لمقابلة المهبـوذان ومـن انهزم مـن جيش الفـرس في يـوم حصيـد، ولما أحس المهبوذان بقدومه هرب ومن معه وكانت انتصاراً آخر لجيش المسلمين وباعثاً جديداً من بواعث المشاعر التي تغنت بهذا اليوم فقال أبو ليلى يذكر ذلك:

وقـالـوا مـا تـريـد فقلت ارمـي جموعـاً بـالخنـافس بـالخيـول
فـدونكـم الخيـول فـألجمـوهـا إلى قـوم بـأسفـل ذي أثـول
فلما أن أحسـوا مـا تـولـوا ولم يغـررهـم جنـح الفيـول
وفينـا بـالخنـافس بـاقيـات لمهبـوذان في جنـح الأصيـل

وعندما توجه خالد بن الوليد إلى الشام لمواجهة جيش الروم إلتزاما بأمر الخليفة الراشد أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) تولى المثنى قيادة الجيش في العراق، ولم يكن صحابة رسول الله ﷺ الذين خرجوا من المدينة يحملون الراية، وينشرون الرسالة، ويحققون الأهداف السامية التي جاء بها الدين بعيدين عن المعركة وإنما كانوا يتقدمون الصفوف، بما عرف عنهم من صبر في الحرب، وجلاد في المعارك، وقدرة على الثبات، وحب للموت من أجل الحياة، فتوزعوا بين الجيشين بعد أن صحب القائد خالد بعضهم وبقي بعضهم الآخر مع المثنى، وتعانق القائدان وهما يؤديان رسالة الحياة ويحملان أمانة الدين، ويضربان بسيف الأمة، وتبادل البطلان أحاديث الوداع وكلمات الإعتزاز، وتوجيهات القيادة وكانت (قراقر) الأرض التي عرفت هـذا العنـاق، وشهـدت هـذا الموقـف، وسمعت صدق المشاعر وهي تنطلق مع أحاديث البطلين، وبقيت (قراقر) بكل إحساسها وحنينها تستذكر صـدى تلـك الكلمات وهـي تحمـل معـاني العـزيمة والإصرار، وتشد الجيش المؤمن بالقيادة الحكيمة وهي تتحرك في إطار المعركة،

وتندفع بكل قوتها لتحقيق الأهداف العظيمة التي كانت تنتظر النهايات الحاسمة لكل معركة من هذه المعارك.

وكانت مهمة المثنى بعد رحيل خالد صعبة، ومسؤوليته عظيمة وواجباته خطيرة بعد أن تحول الصراع إلى مرحلة جديدة، وتبدل الموقف وفق خطة تستلزمها الظروف المستحدثة، وتغيرت المسارات في إطار التحرك العسكري المطلوب. فالدفاع عن الأرض المحررة واجب أساسي في خطته الجديدة، والإستمرار في إنجاز ما بدأ به وإكمال الرسالة تحقيقاً لمعطيات المرحلة. وفي ظل المبادىء التي خطط لها في تحرير القبائل العربية. وتخليص أبنائها من عبودية التسلط. وكعادة الفرس في تاريخهم الطويل والذي عرف عنهم الكثير من المواقف، والمتمثل في تهويل الأحلام، وتكبير التصورات عندما تساورهم أوهام النصر المزعوم، أو تداعب خيالاتهم أحلام الغطرسة فقد ظن (شهرزان بن أردشير) أن رحلة خالد إلى الشام قد هيأت لهم فرصة استعادة معنويات جيشهم المنهزم، ومنحتهم أسباب استرجاع ما يمكن استرجاعه مما فقدته جيوشهم المخذولة، أو خسره قوادهم المنهزمون، وقد أعد هذا الملك المجوسي جيشاً كبيراً لمواجهة المثنى ويضيف عليه (هرمز جاذويه) وهيأ له كل الإمكانات المتاحة، والإستعدادات التي اعتقد أنها تحقق له بعض ما يمكن أن يتحقق ومنحه من السلطة ما يكفي لرد جيش المسلمين، والمثنى الذي عرف بمبادراته في الموقف، وخططه المحكمة في المعارك كان أسبق من القائد المجوسي في التحرك ليأخذ زمام المبادرة في توجيه الضربة الأولى، والإستحكام في المواقع التي تؤهله للسيطرة على ميدان المعركة فكان تحركه سريعاً بعد أن أحكم تنظيم قواته، وحدد مهام قواده الذين توزعوا على الميمنة والميسرة، أما هو فكان له مكان القلب ليشرف على المعركة ويدير أطرافها بتمكن، ويقف على تحريك جنده عن كثب.

وتولى الحرب رستم الذي حاول أن يكاتب أهل السواد ويدس إليهم الرؤساء ليثوروا بالمسلمين، فثار جابان ونزل بالنمارق، فسار إليه أبو عبيد بن خفان

فالتقوا به فيها فاقتتلوا قتالاً شديداً إنهزم على أثره الفرس وأسر جابان وظلت جيوش المسلمين تطاردهم وكان أبو عبيد ينادي الجند ويدعوهم إلى مطاردتهم وقد أشار عاصم بن عمرو التميمي إلى ذلك فقال:

لعمري وما عمري عليّ بهين ... لقد صبحت بالخزي أهل النمارق
بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم ... يجوسونهم ما بين درنا وبارق
قتلناهم ما بين مرج مسلح ... وبين الهوافي من طريق البذارق

واستمر أبو عبيد في مطاردة جالنوس وأصحابه حتى نزل (بباقسياثا) من (باروسما) فنهد إليه أبو عبيد بن مسعود في المسلمين وهو على تعبيته فالتقوا على (باقسّياثا) فهزمهم المسلمون وهرب الجالنوس وأقام أبو عبيد وقد غلب على تلك البلاد وفي ذلك يقول عاصم بن عمرو:

صبحنا بالبقايس رهط كسرى ... صبوحا ليس من خمر السواد
صبحناهم بكل فتى كمي ... وأجرد سابح من خيل عاد

وكان عليه أن يعبر الفرات وفق خطة أعدها إعداداً سليماً، ويتحرك نحو آثار بابل الشاخصة، وهي بقايا تلول المدينة البابلية، لأنه وجد في بعض مرتفعاتها حصوناً يمكن استخدامها، وقلاعاً تقيه وجنده الخسائر البشرية إلى جانب كونها لا تبعد عن أرض العدو أكثر من خمسين ميلاً. وتبدأ المعركة بعد أن تقدمت جحافل المسلمين وهي كالبنيان المرصوص توحدت في قلوبهم العقيدة، وشدت آمالهم الكلمة الصادقة، واتفقت في تضحيتهم الشهادة أو النصر، وهي الغاية السامية التي يتمناها كل مؤمن، أما أولئك الذين عميت قلوبهم وتاهت في مخيلتهم حقائق الحياة بعد أن غرقوا في الشرك واستحوذت على عقولهم طقوس المجوسية التي لم تعرف إلا النار عبادة والإيمان بآلهين عقيدة.. فقد كانت الهزيمة تنتظرهم في كل معركة والهلع ينتابهم عند كل ملحمة.

وأقبل هرمز وهو يقود جيشه الجرار بعد أن تقدمهم بفيله الضخم وكانت إمارات الغرور تعلو كل قسمات وجهه، ودلائل الصلف تشد كل تصرفاته غير

الإرادية التي يؤديها وقد ترك لفيله هذا مرونة الحركة يميناً وشمالاً، يزيح بخرطومه جند المسلمين الذين وجدوا في هذا الحيوان غرابة لأنهم وخيلهم لم يشتركوا في معركة تشترك فيها الفيلة، وكان المنظر غريباً وجفلت منه الخيول، فتراجعت وهي تحمل أبطالها الذين حاولوا تثبيتها والإقدام بها وظن القائد المجوسي أن هذا السلاح الجديد سيحقق له بعض ما يمكن أن يتحقق وأن قدرة هذا الحيوان الغريب ستعيد له بعض ما فقده في معاركه الحاسمة وأدرك المثنى أن المسألة التي فوجئوا بها لا بد أن تقترن بعمل يوقف هذا السلاح ويحول دون استخدامه، وعلم أن علاج هذا الموضوع أصبح بحاجة إلى حسم سريع فتحرك إلى أواسط قومه وهو يدعو بعضهم لمحاربة هذا السلاح، ويتداعى له المؤمنون وكلهم عزيمة لتحقيق هذا النصر، ويعرض لهم القائد الخطة التي أعدها ويتلقى أبطال الجهاد أوامر القائد بعد أن بدأت مراوغته للفيل بسيفه وقد أحاط به أصحابه الميامين، وبضربة محكمة يصيب منه مقتلاً فيسقط الفيل ارضاً وكأنه الجبل، وتتهاوى مع سقوطه أحلام هرمز وتتطلع إلى الفيل عيون المجوس والدم ينزف من جسمه وقد رانت عليهم دلائل الإنهزام بعد أن ارتعدت الفرائص، وارتعشت الأطراف، ووجفت القلوب، وشاهت الأبصار، وكانت ضربة المثنى للفيل إيذاناً بالهزيمة، وصوتاً من أصوات الحق التي علت سماء ا المعركة فأحالتها إلى ملحمة، شهرت فيها السيوف العربية، وارتفعت الرماح الردينية، وقد امتدت معها الأذرع السمر وهي تهوي على الرؤوس الفارغة وتلاحق الفلول المنهزمة، وتقطع عليها طرق الفرار، وكتب على جيش هرمز أن يلوذ ثانية وثالثة بالشعاب التي وجدوا فيها ملاجىء ومواقع الهزام، وبقيت خيول المسلمين تطاردهم حتى أبواب المدائن التي فتحت ذراعها للأبطال المجاهدين، وأشاحت بوجهها عن رؤية الهزيمة وهي تتجسد في وجوه الفرس الذين لم يعرفوا إلا الفرار. ولم يتجرعوا إلا كؤوس الخذلان. وتجد صورة الفيل وهي صورة جديدة مجالاً واسعاً في أحاديث الشعراء لغرابتها وحداثتها. ولما صاحب المعركة التي اشترك فيها هذا السلاح الجديد وفي ذلك يقول عبدة بن الطبيب السعدي الذي

شهد وقعة بابل:

هل حبل خولة بعد البين موصول	أم أنت عنها بعيد الدار مشغول
وللأحبة أيسام تذكرها	وللنوى قبل يوم البين تأويل
حلت خويلة في حي عهدتهم	دون المدائن فيها الديك والفيل
يقارعون رؤوس العجم ضاحية	منهم فوارس لاعزل ولا ميل

ويقول الفرزدق وهو يعدد بيوتات بكر بن وائل: وذكر المثنى وقتله الفيل..

وبيت المثنى قاتل الفيل عنوة	ببابل اذ في فارس ملك بابل

وتتقدم جحافل المثنى حتى تصل إلى مرج السباخ بين القادسية وخفان ثم يأخذ طريقه إلى وسط السواد فيطلع على النهرين ثم يتجه إلى الخورنق حتى ينتهي إلى البويب، وكان مهران الهمذاني قد وقف وراء الفرات بإزاء المثنى، ويطلب مهران من المثنى أن يعبر إليه أو يعبر هو وجنوده إلى المثنى، وبجرأة المقاتل الشجاع والبطل المقتدر يقول له: اعبروا إلينا فيقبل العجم لما أذن لهم في العبور في صفوف ثلاثة مع كل صف فيل، ورحلهم أمام فيلهم، فيقبلون ولهم زجل ويخاطب المثنى جيوشه قائلاً: إن الذي تسمعون فشل فالزموا الصمت واتمروا همساً، وتندفع الجموع المؤمنة وقد توزعت أقساماً، وتعبأت طلائع ومجنبات، وخرج المثنى إلى صفوفهم يعهد إليهم عهده ويقف على الرايات راية راية يحضهم على القتال، ويأمرهم بأمره ويهزهم بأحسن ما فيهم، وتلتقي في سماء المعركة عيون المقاتلين والقائد وتندفع النظرات المؤمنة وهي تتجسد وتتوثب الهمم وهي سيوف مشهورة ورماح مهزوزة، ويلتقي الزحفان، ويسقط القائد الفارسي مضرجاً بدمائه، ويفنى قلب المشركين، وتهز المجنبات بعضها بعضاً ويطبق المسلمون ليردوا الأعاجم على أدبارهم وتتلاشى جحافلهم بعد أن وهن الله كيدهم، فيصبحون كالبهائم أينما توجههم يتوجهون وكان الظفر والنصر وكانت ملحمة أخرى من ملاحم البطولة تبع المسلمون فلولهم إلى الليل، ومن الغد إلى الليل وكان الإقدام والصبر صورة بارزة من صور المقاتلين وكانت قدرة المؤمنين

لوناً من ألوان المجد الذي دعا الأعور الشني إلى أن يقول في البويب هذه الأبيات:

هاجت لأعور دار الحي أحزانا ... واستبدلت بعد عبد القيس خفانا
وقد أرانا بها والشمل مجتمع ... إذ بالنخيلة قتلى جند مهرانا
أزمان سار المثنى بالخيول لهم ... فقتل الزحف من فرس وجيلانا
سما لمهران والجيش الذي معه ... حتى أبادهم مثنى ووحدانا

وتتراجع الفلول الفارسية المنهزمة وهي تحتمي بكل مدينة تصل إليها أو ضاحية تجد فيها حماية تقيها الضربات الماحقة، وتظل جيوش المسلمين تطارد بقاياهم في كل موقع، وتنحسر ضلال بغيهم عن أجزاء عربية أخرى، ولكنها تظل تحلم بالعودة، وتتوق إلى روح الهيمنة والسيطرة لإرضاء رغباتها الجامحة وتحقيق نزعتها التسلطية، فاندفعت تحتشد في معية يزدجرد الذي شعر بالخيبة وذاق مرارة الهزيمة، فراح يجمع البقايا التي أدمتها قسوة المعارك، ويعيد صفوف أرتاله المندحرة، إستعداداً لمعركة كبيرة. وقد بذل جهوداً شاقة في تجميع أعداده بعد أن شعر بقدرة المقاتلين العرب، وتلمس عمق الجراح المثخنة التي تركتها ضربات الرجال الأشداء والصناديد الفرسان. ومن المدينة المنورة كتب الخليفة الراشد عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص بانتخاب ذوي الرأي والنجدة ممن كان لهم سلاح أو فرس، ويرد عليه سعد: إني قد انتخبت لك ألف فارس ممن اكتملت عدتهم وكلهم من ذوي الخبرة والرأي، وصاحب حيطة يحوط حريم قومه، ويمنع ذمارهم، وتجمعت الجيوش من كل حرب، والتقت الجحافل وهي تتشوق إلى الجهاد، وتتسابق إلى أرض التحرير. وتندفع بكل عزيمة لملاقاة المشركين ويوصي الخليفة قائده بأن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعاقبة ويدركون ما عنده بالطاعة، ولما أراد أن يسرحه دعاه، فقال: إني قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص

منه إلا الحق، فعود نفسك ومن معك الخير، واستفتح به، واعلم أن لكل عادة عتاداً، فعادة الخير الصبر، فالصبر على ما أصابك أو نابك يجتمع لك خشية الله، وأعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته واجتناب معصيته وإنما أطاعة من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة.. وأن الله إذا أحب عبداً حببه، وإذا أبغض عبداً بغضه فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس فخرج سعد بن أبي وقاص من المدينة قاصداً العراق في أربع آلاف وبلغ مجموع من شهد القادسية بضعة وثلاثون ألفاً وقدم المعنى بن حارثة وسلمى بنت خصفة التيمية وهم يحملون وصية المثنى، وكان قد أوصى بها وأمرهم أن يعجلوها على سعد بزرود. وأوصاه فيها بأن يقاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدرة من أرض العجم، فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم، وإن تكن الأخرى فاءوا إلى فئة ثم يكونوا أعلم بسبيلهم، وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة عليهم.

وقد ساهم في معركة القادسية بضعة وسبعون بدرياً، وثلاثمائة عشر ممن كانت لهم صحبة، فيما بين ربيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك وثلاثمائة ممن شهد الفتح، وسبعمائة من أبناء الصحابة في جميع أحياء العرب وعندما اقتربت أيام المعركة تسلم سعد كتاباً آخر من عمر بن الخطاب أكد فيه مجابهة الخصوم بالشدة ومنازلتهم بالضرب وحذره من مناظرة جموعهم لأنهم خدعة مكَرَة، ولما بلغ سعد وصول رستم إلى ساباط أخذ المسلمون مصافهم وكان سعد لا يستطيع أن يركب ولا يجلس وكان إنما هو مكب. وأرسل سعد إلى الذين انتهى إليهم رأي الناس والذين انتهت إليهم نجدتهم فكان منهم من ذوي الرأي النفر الذين أتوا رستم المغيرة وحذيفة وعاصم وأصحابهم ومن أهل النجدة طليحة وقيس الأسدي وغالب وعمرو بن معد يكرب وأمثالهم ومن الشعراء الشماخ والحطيئة وأوس بن مغراء وعبدة بن الطبيب. وهنا كان لا بد للشعراء من أن يأخذوا دورهم في المعركة الحاسمة التي حشد لها الرجال وذووالرأي والنجدة، واهتزت الأرض بجموع المؤمنين الذين تقدموا لرفع راية الحق والإنتصار وتأكيد مبدأ العدالة

الإنسانية وظل سعد يخاطب جنده وكل صفوفه وكان خطابه يخص الشعراء والخطباء بعد أن وضعهم في مقدمة المخاطبين وطلب منهم أن يسيروا في الناس ويذكرونهم ويحرضونهم على القتال ويكشفون لهم عن أبعاد الحرب، ويبينون لهم الدور الحقيقي والأسباب الدفينة التي تختفي وراءها، مستلهمين من روح المقاتلين الإصرار والعزيمة ومستمدين من الإنتصارات التي سجلتها مواكب المجاهدين قدرة المجابهة وصمود المؤمنين وكان كل خطيب من الخطباء يؤكد هذه المعاني ويطلب منهم أن يجعلوا السيوف حصوناً ويكونوا على الأعداء كالأسود ويتربدوا تربد النمور ويدرعوا العجاج ويدعوهم إلى الثقة بالله وإذا كلت السيوف فإنها مأمورة أن يباشروهم بإرسال الجنادل فتكون عليهم أشد من السيوف وأقسى من الحديد، ويؤكدوا في نفوسهم الإيمان بالله ويذكرونهم بأنهم أعيان العرب يخاطرون بالجنة ويخاطر المشركون بالدنيا ويطلبون منهم ألا يحدثوا أمراً يكونون به شيناً على العرب غداً، لأن الله قد هداهم للإسلام وجمعهم به لأن في الصبر راحة، وفي تعويد النفس عليه فائدة وكان أهل فارس عشرين ومائة ألف معهم ثلاثون فيلاً مع كل فيل أربعة آلاف أحاط بهم ثلاثون ألف مسلسل وقد وقف ملوكهم على الفيلة لا تقاتل. وفي هذا الموقف تتضح حقائق الحرب التي يحمل المسلمون صدق الدفاع، وعدالة الفكرة، وسلامة التوجه، ويحمل المشركون أوزار الضياع، وحب الدنيا، وضعف الإيمان، وقد اتضحت سمات الإيمان في طلب القائد بإلزام المواقف والدعوة إلى الصلاة والإستماع إلى تكبيرته وهو يكبر والإستعداد إلى مطاردة العدو والزحف عليهم والشد على النواجذ والأضراس والتهيؤ كما اتضحت خصائص هذا الإيمان في طلب القائد من القراء تلاوة سورة الجهاد، لتستقر القلوب وتهش العيون، وتسود السكينة، ويبرز أهل النجدات وينشب القتال ويعتور الطعن والضرب ويخرج غالب بن عبد الله الأسدي وهو يقول:

قد علمت واردة المسائح ... ذات اللبان والبنان الواضح
إني سمام البطل المشايح ... وفارح الأمر المهم القادح

فخرج إليه هرمز وكان متوجاً ـ فأسره غالب أسراً، وخرج عاصم بن عمر وهو يقول:

قد علمت بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين إذ تغشاه الذهب
إني امرؤ لا من تعيبه السبب مثلي على مثلك يغريه التعب

ولما تطاردت الخيل والفرسان خرج رجل من القوم ينادي: مرد ومرد، فانتدب له عمرو بن معديكرب وهو بحياله فبارزه فاعتنقه، ثم جلد به الأرض فذبحه.. ويظل صوت الشعر يرتفع في كل موقف، ويسهم في كل معركة وهو يؤدي دوره في التعبير عن الحس القتالي، والإيمان الواثق، والعزيمة الرائدة وتظل في مضامينه الحية تستقر القيم التي حملها المقاتلون. ودللوا عليها وهم يقدمون، وأكدوها في نزوعهم وهم يتولون مهمات القيادة الفكرية بعد أن أخذوا مواقعهم في صفوف أقوامهم وقبائلهم، وتوزعوا في فيالق الجيش يثيرون فيهم قدرة القتال، ويعمقون همة المجابهة، ويوسعون قاعدة المشاركة في كل مجال من مجالات الحرب، ويظل الشعراء يتقدمون صفوف المقاتلين. وهم يشيدون بمعاني البطولة، ويحرصون على تثبيت معاني الحماسة التي تعطي المقاتل حق الإستذكار في المجد القبلي المتحقق في ظل هذه المعاني، وتعطيه صورة المستقبل المتوقع في إطار التضحية الكريمة التي تفرضها عليه طبيعة القتال، وتعطيه مجال التفكير في امتلاك السعادة الواسعة التي تتحقق في الجهاد المقدس لانتزاع النصر أو نيل شرف الاستشهاد.. لقد كانت هذه المعاني تملأ قلب المقاتل وهو يخوض يوماً مشهوداً، ويكتسب شرفاً قومياً فذاً، ويحقق مجداً دينياً كريماً.

وتتصاعد بدايات المعركة وتحمل الفيول على الميمنة والميسرة على الخيول وتحاول أن تطبق عليها وعلى الرجال، وتحجم عنها الخيول وتحيد، وتلح فرسانهم على الرجل يشمسون بالخيل فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو فقال: يا معشر بني تميم، ألستم أصحاب الإبل والخيل؟ أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة، قالوا: بلى والله، ثم نادى في رجال من قومه رماة وآخرين لهم ثقافة فقال لهم: يا معشر

الرماة ذبّوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل، وقال: يا معشر أهل الثقافة فقال لهم: استدبروا الفيلة فقطعوا وضنها.. وأقبل أصحاب عاصم على الفيلة فأخذوا بأذنابها، فقطعوا السيوزر التي تشد بها الهوادج وارتفع عواؤهم، فما بقي لهم يومئذ فيل إلا أعرى، وقتل أصحابها، وتقابل الناس واقتتلوا حتى غربت الشمس، وذهبت هدأة من الليل فقال عمرو بن شاس الأسدي وهو يذكر هذا اليوم:

جلبنا الخيل من أكتاف نيق ... إلى كسرى فوافقها رعالا
تركن لهم على الأقسام شجوا ... وبالحقوين أياماً طوالا
وداعية بفارس قد تركنا ... تبكي كلما رأت الهلالا
قتلنا رستما وبنيه قسراً ... تثير الخيل فوقهم الهيالا
تركنا منهم حيث التقينا ... فئاما ما يريدون ارتحالا
وفر البيرزان ولم يحامي ... وكان على كتيبته وبالا
ونجى الهرمزان حذار نفس ... وركض الخيل موصلة عجالا

لقد ظل الشعر صورة للمعركة التي تشتد نوازعها، ومجالاً للإستشهاد الذي تتبارى فيه بطولات الرجال، وقناة تتسرب في معانيها دقائق المعارك وتمر في مفاصلها أخبار الأحداث، لأن الرجال الذين كانوا يسجلون الأحداث كانوا حريصين على تسجيل المفاخر والتضحيات، وترسيخ المبادىء التي تؤكد في روح المقاتلين قدرة المقاومة وإدامة روح الإنتصار والقدرة على مجابهة كل القوى مهما كانت وفي أي موقف تقف.

وكانت معاني الحماسة والفخر تزهو فوق ألق الألفاظ وتلتمع في سطور القصائد وقد ازدهرت فيها الجرأة واندفع في سيل مضامينها حب الإستشهاد، فالإشادة بالإقدام والإعتزاز بالبلاء الحسن، والموت في سبيل الدفاع عن العقيدة كانت مكارم محمودة، وغايات مقصودة، تثير في قلوب المؤمنين برسالة الحياة نوازع التضحية، وتبعث فيهم دوافع الصمود والإقتحام.. وبمقدار ما كانت تثيره في نفوسهم قدرة الإنتصار فقد كانوا يتسابقون إلى الإطاحة برؤوس الشرك، وقتل طواغيت الإستعباد، وهذا ما جعل مجموعة الشعراء تتحدث عن

قتل رستم كما أشار إلى ذلك عمرو بن شاس الأسدي وكما أشار إليه زهير بن عبد شمس حين قال:

أنـــا زهير وابــــن عبـــد شمس ... أرديت بـالسيـــف عظيم الفـــرس

رستـــم ذا النخـــــوة والدمقـــس ... أطعـــت ربي وشفيـــت نفســـي

ويستمر عمرو بن شاس في تسجيل انتصارات العرب وهو في كل لون من هذه الألوان يجدد ترسيخ القيم الأصيلة، ويعيد إلى الأذهان الأيام الكبيرة التي استطاعت القبائل أن تكتب فيها ملاحم المجد، وتخوض معارك التحدي التي أكدت فيها الأمة قدرتها في المصاولة، ومقاومتها لكل ضروب الإستعباد، وتسجيلها روائع الإنتصارات. ونفيها للمطـامـع الفـارسيـة التي أرادت فـرض سلطانها على القبائل العربية، واستغلالها بأبشع صور الإستغلال، وهذا ما كان يدور على ألسنة الشعراء وهم يؤدون واجبهم في التصدي لهذه المحاولات، وإنهاء هذا الجور الجائر، وإسقاط كل الحجج التي ظل يستخدمها لإدامة سلطانه.. فهذا عمرو بن شاس يعود ثانية إلى تأكيد هذه الحقائق فيقول:

لقـد علمـت بنـــو أســـد بـــأنـــا ... أولو الأحلام إن ذكـروا الحلـومـا

وإنــا النــازلــون بكــل ثغـــر ... ولـــو لم تلفـــــه إلا هشيمـــا

تـرى فينـا الجيــاد مسمـــومـات ... مـع الأبطـــال يعلكـــن الشكيمـا

تـــرى فينـــا الجيــاد مجلحـــات ... تنهنـه عـن فـوارسهـا الخصـومـا

بجمـــــع مثــــل سلم مكفهـــــر ... تشبههـم إذا اجتمعـوا قـرومـا

بمثلهـــم تلاقـــي يـــوم هيـــج ... إذا لاقيـت بـأسـاً أو خصـومـا

نفينـــا فـــارســـاً عمـــا أرادت ... وكـانـــت لا تحاول أن تـــريما

وفي اليوم الثاني من أيام القادسية طلعت نواصي الخيل من الشام وقدم القعقاع على الناس فسلم عليهم وبشرهم بالجنود ثم تقدم ونادى: من يبارز؟ فقالوا فيه بقول أبي بكر: لا يهزم جيش فيه مثل القعقاع وسكنوا إليه فخرج إليه ذو الحاجب فقال له القعقاع: من أنت؟ قال: أنا بهمن جاذويه، فنادى يا لثارات

أبي عبيدة وسليط وأصحاب يوم الجسر فآجتلدا، فقتله القعقاع.. وانكسرت الأعاجم لذلك، ونادى القعقاع من يبارز؟ فخرج إليه رجلان: أحدهما البيرزان والآخر البندوان، فآنضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان بن الحارث أخو بني تيم اللات، فبارز القعقاع البيرزان، فضربه فأذرى رأسه، وبارز ابن ظبيان البندوان، فضرب فأذرى رأسه، وتوردهم فرسان المسلمين، وجعل القعقاع يقول: يا معشر المسلمين، باشروهم بالسيوف، فإنما يحصد الناس بها، فتواصى الناس. وتشايعوا إليهم، فاجتلدوا بها حتى المساء فلم ير أهل فارس في هذا اليوم شيئاً مما يعجبهم، وأكثر المسلمون القتل فيهم، ولم يقاتلوا في هذا اليوم على فيل بعد أن تكسرت توابيتها بالأمس.

لقد كان يوم أغواث كيوم أرماث امتحنت فيه العقيدة، وتجالد فيه الأبطال والتقت الجموع وقد تجلى في وجوه المؤمنين العزم وارتسمت على محياهم علامات الإستبشار وهو تؤمن بالنصر وتسعى من أجل تحقيق الكرامة وتزهو في عيونهم بوارق الإيمان، وتشتد في قدراتهم التصميم الذي لم يعرف غير الحق سبيلاً، ولم يرض غير العدالة منهجاً وأسلوباً، وتقوي في همم الرجال نوازع التحرير التي أخذت على عاتقها تحرير الإنسان وتخليصه من عبودية الإستغلال، وانتزاعه من هوة الإستعباد، وإعادته إلى الحياة الحرة الكريمة، وزرع الإنسانية الحقة في كل مفصل من مفاصله، وتتنامى في دواخل القلوب تصورات المجد الذي يطمح إليه الرجال. وقد تعلقوا بالمبادىء السمحة التي تلمسوها في التعامل الجديد الذي بشر به القادة، وعرفوه في الخلق النبيل الذي كان يسود علاقات جند المؤمنين، ووجدوه حقائق ثابتة في احتدام المواقف التي تفرز المسائل.. وعند كل حقيقة من هذه الحقائق كانت تتعاظم قدرة القتال، وتشتد مطامح الإنسان الذي أغرقته صنوف القهر، وتجاوزته أشكال التسلط.

وهذا ما كان يدفع النساء إلى أن تقدم من صنوف البطولة ما يقف إلى جانب بطولة الرجال، بعد أن أصبحت المشاعر واحدة، والمصير الذي تسعى إليه الجموع واحداً، والغاية التي يرجو تحقيقها الجميع واضحة وقد ازدحمت قصص

بطولة النساء في هذه الأيام، وأخذت كل جانب منها حكاية، تدل على عظم المسؤولية التي بدأت تتحكم في كل نفس. فهذه امرأة من النخع كان لها بنون أربعة شهدوا القادسية، فقالت لبنيها إنكم أسلمتم فلم تبدلوا، وهاجرتم فلم تثوبوا، ولم تنب بكم البلاد، ولم تقحمكم السنة، ثم جئتم بأمكم عجوز كبيرة فوضعتموها بين يدي أهل فارس، والله إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره، فأقبلوا يشتدون، فلما غابوا عنها رفعت يديها إلى السماء، وهي تقول اللهم ادفع عن بني، فرجعوا، وقد أحسنوا القتال، ما كُلم منهم رجل كلما..

وكان الشعر في يوم أغواث مثله في بقية الأيام، يسجل الوقائع، ويكشف عن البطولات ويروي المفاخر، لتظل أصداء الأيام خالدة ولتبق خوافق السيوف مشهورة، وروائع الأعمال خافقة حية، تعيد إلى الأجيال بطولة القادة الأماجد وترسم لهم طريق النصر المشهود. فهذا القعقاع بن عمرو يقول:

لم تعرف الخيل العراب سواءنا	عشية أغواث بجنب القوادس
عشية رحنا بالرماح كأنها	على القوم ألوان الطيور الرسارس

وكان لا بد للعرب من أن يجدوا طريقاً لمجابهة الفرس بعد أن جوبهوا بالفيلة في يوم أرماث وكان عليهم أن يهيئوا وسيلة يصدوا بها خطر الفيلة التي تقدمت للمعركة سلاحاً جديداً، وسداً منيعاً وقلعة متحركة تخشى مجابهتها الخيل، وترهب بطشها عزائم المقاتلين، وكانت الإبل بديلاً جديداً لهذا السلاح، ومحاولة إعاقة يمكن أن تصد بعض ما يمكن أن يصد فقد ألبسوها قماشاً وجللوها بالبراقع، وأرخوا على جوانبها ذيول تلك البراقع لتكون أكثر هيبة، وأقوى تأثيراً في نفوس الخصوم، وقد أطافت بها الخيول تحميها من وقع السهام وتقيها هجمة المهاجمين، وقد أعد القعقاع لهذه الخطة عدتها بعد أن أمر الفرسان بأن يحملوا على خيلهم من الصفين يتشبهون بالفيلة ففعلوا بهم يوم أغواث كما فعلت

الفرس يوم أرماث بعد أن حمل فرسان العرب عشرة عشرة من الرجالة، وركبتهم خيول المسلمين ولقي الفرس من الإبل يوم أغواث أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة يوم أرماث.

وخرج رجل من أهل فارس فنادى: من يبارز؟ فبرز له الأعرف بن الأعلم العقيلي فقتله ثم برز له آخر فقتله، وأحاطت به فوارس منهم فصرعوه وندر سلاحه عنه فأخذوه، فغبر في وجوههم بالتراب حتى رجع إلى أصحابه وقال في ذلك:

وأن يأخذوا بزي فإني مجرب خروج من الغماء محتضر النصر
وإني لحام من وراء عشيرتي ركوب لأثار الهوى محفل الأمر

وحمل القعقاع في هذا اليوم أكثر من ثلاثين حملة، كلما طلعت قطعة حمل حملة، وكان في كل واحدة منها يبلي بلاء حسناً، ويضرب مثلاً في الشجاعة والإستبسال، ويصبح قدوة متقدمة في التضحية والبسالة وكان يجد في الإرتجاز موثباً وحافزاً، وهو يستثير به العزائم، ويحفز الهمم، ويرسخ دعائم العقيدة، ويكتب غاية الإستشهاد بعد أن يسلب من خصومه كل أسباب الثبات، ويقتل فيهم روح الصمود:

أزعجهم عمداً بها إزعاجاً أطعن طعناً صائباً ثجاجاً
أرجو به من جنة أفواجا

وكان القعقاع يقتل في كل حملة واحداً حتى كان آخرهم بزرجمهر الهمداني وقال فيه:

حبوته جياشة بالنفس هدارة مثل شعاع الشمس
في يوم أغواث فليل الفرس أنخس بالقوم أشد النحس
حتى تفيش معشري ونفسي

ولما رأى سعد الفيلة تفرق بين الكتائب، وعادت لفعلها يوم أرماث أرسل

إلى القعقاع وعاصم بن عمرو وقال لهما: إكفياني الأبيض، فأخذ القعقاع وعاصم رمحين أصمين لينين ودبا في خيل ورجل فقالا: اكتنفوه لتحيروه، فحمل القعقاع وعاصم والفيل متشاغل بمن حوله، فوضعا رمحيهما معاً في عيني الفيل الأبيض وقبع ونفض رأسه، فطرح سائسه ودلى مشفره، فنفحه القعقاع، فرمى به ووقع لجنبه فقتلوا من كان عليه فأقعى ثم استوى ثم ولى فأتبعته الفيلة فخرقت صف الأعاجم فأتت المدائن في توابيتها وهلك من فيها.

فلما ذهبت الفيلة وخلص المسلمون بأهل فارس، ومال الظل تزاحف المسلمون وحماهم فرسانهم الذين قاتلوا أول النهار، فاجتلدوا بها حتى أمسوا على حرد، لأن المسلمين حين فعلوا بالفيول ما فعلوا، تكتبت كتائب الإبل المجففة، فعرقبوا فيها، وكفكفوا عنها فقال القعقاع بن عمرو في ذلك:

حَضّض قومي مَضرَ حيٌّ بن يعمرِ	فلله قومي حين هزوا العواليا
وما خام عنها يومَ سارت جموعُنا	لأهل قُديس يمنعون المواليا
فإن كنت قاتلتُ العدو فللتُه	فإني لألقي في الحروب الدواهيا
فيولاً أراها كالبيوت مُغيرة	أسمل أعياناً لها ومآقيا

وكانت توجيهات القادة تأخذ في دورها توجيه دفة الحرب، وتؤشر الدلالات التي تعطي مجال الحرب حركتها الدائمة لتحقيق النصر، وتضع العلامات الكبيرة التي تمهد لحركة الجيش قدرة التقدم والفوز فهذا الأشعث بن قيس يقول: يا معشر العرب إنه لا ينبغي أن يكون هؤلاء القوم أجرأ على الموت، ولا أسخى أنفساً على الدنيا، فلا تجزعوا من القتل، فإنه أماني الكرام، ومنايا الشهداء. ووقف حنظلة بن الربيع فقال: ترجلوا أيها الناس، وافعلوا كما نفعل، ولا تجزعوا مما لا بد منه، فالصبر أنجى من الفزع، ودارت الدائرة على المشركين فتناثروا فَرَقاً وتوزعوا فرقاً، وتناهبتهم الفيافي، وهم يولون الأدبار، واستقرت بالمنهزمين منهم بطون البوادي، فقبعوا فيها ينتظرون المصير، وكمنوا في كهوفها خشية الموت المحقق، وكتب على المؤمنين أن ينالوا الفوز، ويذوقوا

طعم الإنتصار ويحققوا للإنسان المؤمن الحياة الكريمة، وبقيت راية المجد تخفق فوق أرض العرب باعتزاز، وبقيت قوافل المؤمنين تشق الهضاب الشرقية لتذل الكفر وتميت العدوان، وتقتل في نفوس المجوس روح الإنتقام والمكابرة.

وتنتهي أيام القادسية بقتل رستم، ويكتب لأهل اليرموك الذين شهدوا انتصار العرب فيه أن يشهدوا يوم القادسية مع سعد بن أبي وقاص بعد أن وصل إلى ساحة المعركة المغيرة بن شعبة الثقفي في أربعمائة رجل مدداً من المدينة، ووصل قيس بن مكشوح المرادي في سبعمائة رجل ووصل عياض بن غنم الفهري في ألف رجل وكان لكسرى مرابطة في قصر بني مقاتل وعليها النعمان بن عم قبيصة بن أياس بن حية الطائي صاحب الحيرة. وكان النعمان يمثل اليد التي يستطيع بواسطتها الفرس من مقاومة العرب بعد أن وضع هذا الرجل نفسه في خدمة الدولة الساسانية وبعد أن أخذ على نفسه أن يقاتل إلى جانب الفرس إيغالاً في الخيانة ولكن عبد الله بن سنان الأسدي الذي تحركت في نفسه الدماء العربية وهو يتطلع إلى الرايات الكبيرة التي حملتها السواعد القوية، واستظلت بظلال الدين الجديد، واندفعت بعقيدة الرسالة الحقة، كان يستمع إلى تهديداته بصمت، ويكتم غضبه بإناة ويتابع تحركه بذكاء وقد أمهله وهو يتطلع إليه حتى اذا دخل إلى مكانه باشره فوضع الرمح بين كتفيه فقتله، ثم لحق بسعد فأسلم وقال في قتله النعمان:

لقد غادر الأقوام في ليلة أدلجوا	بقصر العبادي ذا الفعال مجدلا
دلفت له تحت العجاج بطعنة	فأصبح منها في النجيع مرملا
أقول له والرمح في نُغض كتفه	أبا عامر عنك اليمينُ تحللا
سقيت بها النعمان كأساً رَويّة	وعاطيتُه بالرمح سماً مُثَمَّلا
تركتُ سباع الجوّ يعرفن حوله	وقد كان عنها لابن حيَّة معزلا
كفيتُ قريشاً إذ تغيّب جمعُها	وهدّمت للنعمان عزاً مسؤثلا

وتقدمت مواكب التحرير بعد أن اكتمل تعدادها، وتوحدت قيادتها وأخذ

كل قائد منهم مهمته وسار إلى جانب سعد بن أبي وقاص المغيرة بن شعبة وقيس ابن مكشوح، وهم يتوجهون صوب رستم الذي نزل قادس ونزل سعد وجيشه في قصر العذيـب، وقد بلغت جموع فارس ستين ألفاً مما أحصي سوى التباع والرقيق وحاول رستم وقد استبدت به الغطرسة الفارغة، وأخذته نزعة الإستعلاء أن يظهر آخر ما في نفسه من إحساس، ويبدي ما تبقى له من هيبة، حاول هذا الرجل المخذول أن يطلب رجلاً من المسلمين ليكلمه، وكان المغيرة بن شعبة هو الرجل المختار، وكانت كلمته التي يقولها أمام رستم هي الكلمة الحق، والقول الفصل، والرأي الذي انتهت إليه كل الآراء وعلى عادة أسياده من الساسانيين انطلقت كلماته وهي تحمل الحقد، وارتفع صوته وهو يطوي البغضاء، وتعالت صرخاته وهو يكيل التهم وانتفخت أوداجه وهو يهدد. وبهدوء المؤمن المتمكن وبقدرة الإنسان الواعي وبرحابة صدر القائد الواثق بنفسه انسابت الكلمة صادقة وتهادت الأفكار واضحة وهي تكشف لهذا المتغطرس رسالة الدين الحنيف وتضع أمامه أهدافه.. «بعث الله فينا نبياً، وأنزل عليه الكتاب، فدعانا إلى الله وإلى ما بعثه به، فصدقه منا مصدق، وكذبه منا آخر فقاتل من كذبه، حتى دخلنا في دينه. من بين موقن به، وبين مقهور، حتى استبان لنا أنه صادق، وأنه رسول من عند الله، فأمرنا أن نقاتل من خالفنا وأخبرنا أن من قتل منا على دينه فله الجنة. ومن عاش ملك وظهر على من خالفه فنحن ندعوك إلى أن تؤمن بالله ورسوله، وتدخل في ديننا، فإن فعلت كانت لك بلادك، لا يدخل عليك فيها إلا من أحببت، وعليك الزكاة والخمس وإن أبيت فالجزية، وإن أبيت ذلك قاتلناك حتى يحكم الله بيننا وبينك. وسكت القائد المؤمن الذي تكلم بلسان الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبلسان القائد المنتصر سعد بن أبي وقاص وبلسان المقاتلين الذين كانوا يؤمنون بالهدف الموحد، والقضية العادلة وبلسان المقاتلين الذين وضعوا ثقتهم بالقيادة التاريخية أنها كلمة واحدة تمر عبر كل المتحدثين، وهدف واحد يتجلى في صدق كل الكلمات وغاية واحدة ترتسم فوق كل القدرات المعبرة. وكان جواب رستم يتسم بالطيش، ويعبر عن الكبرياء الفارغة

والهيبة الضالة التي كان يتبختر فيها ريرتدي نبوسها، كان الحقد يلف كل صيحة من صيحاته، ويحيط بكل صرخة بائسة من صرخاته، وهو يتفجر غيظاً ويقطر كرهاً للعرب والمسلمين الذين حاولوا تخليص البشر من براثن ظلم دولته وإنقاذهم من طغيان تسلطها بعد أن أذاقهم الخسف، وجرعهم الذل، وانطلقت عبارته: ما كنت أظن أني أعيش حتى أسمع منكم هذا معشر العرب: واحتاط المسلمون لهذا الصراخ وتحشدوا للرد عليه فجعل سعد على جماعة الناس خالد بن عرفطة وعلى ميمنتهم جرير بن عبد الله البجلي وعلى ميسرتهم قيس بن مكشوح المرادي.

ثم زحف إليهم رستم، وزحف إليه المسلمون، وما عامة جننهم غير براذع الرجال، قد عرضوا فيها الجريد، يترسون بها عن أنفسهم، وما عامة ما وضعوه على رؤوسهم إلا انساع الرحال، يطوي الرجل نسع رحله على رأسه يتقي به، والفرس فيما بينهم من الحديد واليلامق، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فلما رأى أبو محجن ما تصنع الخيل حين جالت، وهو ينظر من قصر العذيب قال:

كفى حزناً ان تردى الخيل بالقنا ... واترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وأغلقت ... مصاريع دوني لا تجيب المناديا
وقد كنت ذا مال كثير واخوة ... فقد تركوني واحداً لا أخاليا

وتمتد أيام القادسية لتصل إلى الليلة الرابعة بعد يوم أرماث وأغواث وعماس وتشهد هذه الليلة ضروباً من الشجاعة، ويكتب الله الهزيمة على جموع الفرس على الرغم من شد خيولهم بعضها ببعض لئلا تفر وعلى الرغم من إلقاء مسامير الحديد تحت أرجل خيل المسلمين وعلى الرغم من السلاح الكثير الذي توفر لديهم وقتل الله رستم وكان الذي قتله هلال بن عُلّفة التميمي، وولت جحافله مهزومة، وتناثرت بقايا جيشه مخذولة متجهة إلى المدائن، تريد نهاوند ويستمر جيش المؤمنين في مطاردتهم حتى تنتهي جموعهم إلى جلولاء التي كانت بها وقعة مشهودة، ويهزم الله الفرس فيقول شاعر من المسلمين:

يـا رب مُمْـر حسـن مطهـم يحمـل أثقـال الغـلام المسلـم
ينجـو إلى الرحمن مـن جهنـم يـوم جلـولاء ويـوم رستـم
ويـوم زحـف الكـنوفـة المقـدم ويـوم لاقـى ضيقـه مهـزم
وخـر ديـن الكافريـن للفـم

وكانت رسائل الخليفة الراشد تتوالى على القائد المنتصر وهو يوجهه وفق التخطيط الذي يجمع عليه المسلمون ويرشده إلى الطريق الذي يحقق له سبل الفوز وأسباب الظفر، وكان القائد سعد بن أبي وقاص يوافي الخليفة بكل ما يستجد من أخبار، وتظهر من حالات جديدة توجب الإستشارة.

ولم تكن المرأة بعيدة عن يوم القادسية، وإنما كان حضورها مشهوداً، ومشاركتها قائمة، فقد ذكرت أم كثير إمرأة همام بن الحارث النخعي أنها شهدت القادسية مع سعد بن أبي وقاص وكثير من النساء بصحبة أزواجهن وقالت: لما أتانا أن قد فرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا، وأخذنا الهراوي، ثم أتينا القتلى، فما كان من المسلمين سقيناه ورفعناه، وما كان من المشركين أجهزنا عليه، وتبعنا الصبيان نولهم ذلك، ونصرفهم به وهي إشارة تؤكد أن الناس كلهم يقاتلون وأن كل واحد منهم يؤدي دوره ووفق المرحلة التي يستطيع أن يقوم بها، والفئة العمرية التي تؤهله لأداء هذه المهام ومثل ما كانت المرأة في القادسية تشارك في مهمة القتال كانت المرأة في اليرموك تقاتل بالقدرة ذاتها وتتجاوزها في بعض الأحيان فعندما سار المسلمون إلى الروم وهم أربعة وعشرون ألفاً عليهم أبو عبيدة بن الجراح التقوا باليرموك في رجب سنة خمس عشرة، فاقتتل الناس قتالاً شديداً حتى دخل عسكر المسلمين وقاتل نساء قريش بالسيوف حتى دخل العسكر منهن أم حكيم بنت الحارث بن هشام حتى سابقن الرجال وهي إشارة أخرى تقف شاهداً آخر من شواهد الإندفاع الجمعي لكل الناس الذين حاولوا أن يشاركوا في هذا المجد، ويصنعوا روائع التاريخ ويخلدوا صفحات الزهو البطولي الفذ الذي حقق لأبناء الأمة قدرتهم في النصر وسجل لأبطالها الميامين خوالد الأعمال الصالحة، وكانت المرأة جزء من هذا البناء العظيم الذي

تطاول في الشموخ حتى استقام قدرة .رينة، وتجلى معالم خلود إنساني نادر، وتجسّد مظاهر تضحية فريدة في صور جهاد صادق، وبسالة أصيلة.

وكانت القادسية رمزاً من رموز الصمود لأن العرب كانت ترى أن ثبات ملكها وزواله، موكول بنهيتها، ورهين بما تقرره من نتائج، وقد شدت إليها الآمال، وعقدت عليها المطامح واتجهت الأنظار، وتعلقت بها كل القلوب التي وجدت في نتائجها بداية الطريق وفي انتصاراتها بواكير التحول، وفي كسب معركتها تتحقق الخطوات الأولى التي تعطي الأمة قدرة النهوض، وتدفع أبناءها إلى كل ما يجعلها قادرة على تخطي عقبات التعويق، وتجاوز حدود التضييق التي بدأت تبرز في كل مجال من مجالات المجابهة الحاسمة. حتى الرجل إذا كان يريـد أمراً يقول لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية، ومن هنا كانت القادسية تمثل الهدف الكبير الذي يحمل معاني التوجه، والغاية الأساسية التي تتحقق فيها مطامح المؤمنين الذين وجدوا فيها صورة الإنطلاق وربطوا بها مصير المسيرة الجادة التي حملت أعباءها رسالة الإسلام الخالدة وبقيت هواجس الناس تتغنى بانتصار هذا اليوم الخالد وبدأت تنقل أخبارها الجن - كما يزعم البعض - لأنها دخلت في الموروث الشعبي، وعاشت أحداثها في خضم الاحداث الكبيرة التي تخرج عن نطاق التصور وتخللت قصص الأبطال فيها روايات الأعمال العظيمة التي لا تأتي إلا من باب الخوارق، ولا تؤدى إلا من قبل الأبطال الأسطوريين، وهنا كانت أخبار الجن تسبق أخبار الإنس حتى قيل أن امرأة قد بدرت ليلاً على جبل بصنعاء لا يدرى من هي؟ وهي تقول:

حييـت عنـا عكـرم ابنـة خـالـد ... ومـا خير زاد بـالقيـل المصرد
وحيتك عني الشمس عند طلوعها ... وحيـاك عني كـل نـاج مفـرد
وحيتـك عني عصبـة نخعيـة ... حسان الوجـوه آمنـوا بمحمـد
اقـامـوا لكسرى يضربـون جنـوده ... بكـل رقيـق الشفـرتين مهنـد
إذا ثوب الداعي أنـاخـوا بكلكـل ... مـن الموت تسـود الغيـاطـل مجرد

وسمع أهل اليمامة مجتازاً يغني بهذه الأبيات:

وجـدنـا الأكثريـن بني تميـم غـداة الروع أصبرهـم رجـالا
هـم سـاروا بـارعـن مكفهـر إلى لجـب فـزرتهم رعـالا
بحور للأكـاسر مـن رجـال كـأسد الغـاب تحسبهـم جبـالا
تـركـن بقـادس عـز فخـر وبـالخيفين أيـامـاً طـوالا
مقطعـة أكفهـم وسـوق بمردى حيث قـابلـت الرجـالا

وقيل: إن بلاد العرب قد سمعت مثل ذلك في كثير من أجزائها وهي حالة توحي بانشغال الناس بأمرها وانصرافهم إلى متابعة أحوالها وتعلقهم بالنتائج التي ستترتب عليها، وانتهت بانتصار الحق، وتقدم جيوش المؤمنين، وتوسيع قاعدة الناس الذين دخلوا الإسلام، فلم يبق في غربي دجلة إلى أرض العرب سوادي إلا آمن واغتبط بملك الإسلام، وأقامت الجيوش على (بهر سير) شهرين يرمونها بالمجانيق، ويدبون إليهم بالدبابات، ويقاتلونهم بكل عدة، وجاء في بعض الروايات أن المسلمين نزلوا على بهر سير وعليها خنادقها وحرسها وعدة الحرب، فرموهم بالمجانيق والعرادات. فاستصنع سعد شيرزاذ المجانيق (أي مجانيق صغيرة) فنصب على أهل بهر سير عشرين منجنيقاً فشغلوهم بها.

إن هذه الإشارة التي تؤكد مهارة العرب بصنع السلاح، وتؤكد اهتمامهم باستصحاب الصناع الماهرين الذين كانوا يبدون خبراتهم في هذه الصناعة ويقدمون معرفتهم التي تستند إلى عراقة في العمل، وأصالة في البراعة وقدرة في الإستعداد، إنها تعني إحاطة شاملة، واستيعاباً كاملاً لابعاد المعركة وهي تهيء كل لوازمها، وتعد كل العناصر التي تشارك في توفير أسباب النصر وتحقيق عناصر الظفر.

وانساحت الجيوش المؤمنة وهي تطوي أرباض العراق، وتقدمت قوافل الرجال وهي تطارد المنهزمين من المشركين الذين اعتصموا بالمدائن فتبعتهم خيول المسلمين وقد طبقت دجلة حتى ما يرى الماء من الشاطىء وخرجت بهم وهي

تنفض أعرافها فلما رأى القوم ذلك انطلقوا لا يلوون على شيء وكان الذي يساير سعداً في الماء سلمان الفارسي - فعامت بهم الخيل في الماء وسعد يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليه، وليظهرن الله دينه، وليهزمن الله عدوه... فقال له سلمان: الإسلام جديد، ذللت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن أفواجاً كما دخلوه أفواجاً فطبقوا الماء حتى ما يرى الماء من الشاطىء، ولهم فيه أكثر حديثاً منهم في البر لو كانوا فيه، فخرجوا منه - كما قال سلمان - لم يفقدوا شيئاً ولم يغرق منهم أحد. ونزل سعد القصر الأبيض واتخذ الإيوان مصلى وأن فيه لتماثيل جص فما حركها وكان يقرأ قوله تعالى: ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾ كذلك أورثناها قوماً آخرين وصلى فيه صلاة الفتح - ولا تصلى جماعة واندفعت كواكب المؤمنين قادرة ومتمكنة، وتحرك القادة الميامين وهم يطبقون على بقايا فلول الفرس المنهزمة وقد اتخذت من جلولاء موقعاً خندق فيه مهران القائد الفارسي بعد أن هيأ لنفسه الخندق الكبير ولكن هاشم بن عتبة القائد العربي الذي قاد الناس من المدائن سنة ست عشرة للهجرة في اثني عشر ألفاً فيهم وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب حتى قدم عليهم وأحاط بهم فحاصرهم وطاولهم أهل فارس، وزاحفهم المسلمون بجلولاء ثمانين زحفاً كل ذلك يعطي الله المسلمين عليهم الظفر، وكان سعد يمده بالفرسان وكانت كلمات القائد العربي تشق صفوف المشركين وهي تردد: ابلوا الله بلاءً حسناً يتم لكم عليه الأجر والمغنم واعملوا لله.. وانتهى القعقاع وجنده إلى الوجه الذي زاحف إلى باب خندقهم فأخذ به وسد منافذه. ولما لم يجد جند المشركين قدرة على المقاومة انهزموا مدبرين، وتفرقوا مذعورين، فعقرت دوابهم فسميت جلولاء بما جللت من قتلى المشركين الوقيعة.

وكتبوا إلى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب بفتح جلولاء ونزول القعقاع حلوان واستأذنوه في اتباعهم فأبى وقال: لوددت أن بين السواد وبين الجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم، حسبنا من الريف السواد، إني آثرت سلامة

المسلمين على الأنفال وتتجلى حكمة القائد الواعي بخطر الجبهة الشرقية وتبدو فراسته وهو يدرك خطر أولئك الأقوام الذين أرادوا بالإسلام سوء وبالعرب شراً وبالدولة الإسلامية كل ما يوقف زحفها وينهي رسالتها، ويطمس معالم إنسانها الذي عرف دوره التاريخي، واستوعب مرحلته الزمانية. وتظهر حكمته من الحرص على قيمة الإنسان الذي كان لا يعدل في حسابه أكبر قيمة مادية ولهذا كان يؤثر سلامته على كل الغنائم ويفضل حياته على كل الهبات، فهو أداة التغيير ووسيلة التحرير، والقدرة الدافعة لكل تحول في البناء الثقافي والحضاري والفكري، ولما بعث هاشم القعقاع في آثار القوم أدرك مهران بخانقين فقتله وأدرك الفيرزان، وفي يوم جلولاء يقول هاشم بن عتبة:

يوم جلولاء ويوم رستم ... ويوم زحف الكوفة المقدم
ويوم عرض النهر المحرم ... من بين أيام خلون صرم
شيبن أصداغي فهن هرم ... مثل ثغام البلد المحرم

وقال أبو نجيد:

يوم جلولاء الوقيعة أصبحت ... كتائبنا تردى بأسد عوابس
ففضت جموع الفرس ثم أنمتهم ... فتبا لأجساد المجوس النجائس
وأفلتهن الفيرزان بجرعة ... ومهران أردت يوم حز القوانس
أقاموا بدار للمنية موعد ... وللترب تحثوها حجوج الروامس

وخرج القعقاع بن عمرو في آثار القوم إلى خانقين حتى إذا كان بقصر شيرين على رأس فرسخ من حلوان خرج إليه خسرو شنوم وقدم الزينبي دهقان حلوان فلقيه القعقاع فاقتتلوا فقتل الزينبي.

وكانت جيوش المؤمنين تحرر الجانب الشرقي من أرض العرب بعد أن بدأ الهرمزان يهدد أهل ميسان، فاستمد عتبة بن غزوان سعداً فأمده بنعيم بن مقرن ونعيم بن مسعود وأمرهما أن يأتيا على ميسان ودستميسان حتى يكونا بينهم وبين نهري تيري، وأمدهم عمر بن الخطاب بحرقوص بن زهير السعدي وكانت له

صحبة من رسول الله ﷺ وأمره على القتال فاقتتلوا فبينا هم في ذلك أقبل المدد وأتى الهرمزان الخبر بأن مناذر ونهر تيري قد أخذتا، فكسر الله ذرعه وذرع جنده، وأصابوا منهم ما شاءوا واتبعوهم حتى وقفوا على شاطىء دجيل (الكارون) وأخذوا ما دونه، وعسكروا بجبال الأهواز.. وقال الأسود بن سريع في ذلك، وكانت له صحبة:

لعمرك ما أضاع بنو أبينا ... ولكن حافظوا فيمن يطيع
اطاعوا ربهم وعصاه قوم ... اضاعوا امره فيمن يضيع
مجوس لا ينهنهها كتاب ... فلاقوا كبة فيها قبوع
وولى الهرمزان على جواد ... سريع الشد يثفنه الجميع
وخلى سرة الأهواز كرها ... غداة الجسر اذ نجم الربيع

وقال حرقوص:

غلبنا الهرمزان على بلاد ... لها في كل ناحية ذخائر
سواء برهيم والبحر فيها ... إذا صارت نواجبها بواكر
لها بحر يعج بجانبيه ... جعافر لا يزال لها زواخر

وتظل أحاسيس الخليفة القائد تتابع جنده وتتلمس كل الطرق التي تحفظ لهم الحياة الكريمة، والراحة التي تجعلهم قادرين على تحقيق الانتصار والعدالة التي تجعل الجمع يعيشون باطمئنان في ظل حماية إجتماعية واعية وتكافل حياتي مضمون.. وكانت لا تغيب عن باله أدق الأمور وأيسرها فعندما استقدم وفداً من صلحاء جند البصرة يسألهم عن أحوال الرعية وجد ثوب أحد الوفود وقد خرج طرفه من عيبة فشمه. وبدأ يسأل عن صاحبه وثمنه حتى قال له: فهلا بدون هذا، ووضعت فضلته موضعاً تغني به مسلماً.

ثم قال: إجعلوا الأمور حصصاً وضعوا الفضول مواضعها تريحوا أنفسكم وأموالكم. ولا تسرفوا فتخسروا أنفسكم وأموالكم. وعندها بلغة أن حرقوص ابن زهير السعدي نزل جبل الأهواز والناس يختلفون إليه، الجبل كؤود يشق على

من رامه، كتب إليه: بلغني أنك نزلت منزلاً كؤوداً لا تؤتي فيه إلا على مشقة فأسهل ولا تشق على مسلم ولا معاهد.. وقم في أمرك على رجل تدرك الآخرة وتصف لك الدنيا ولا تدركنك فترة ولا عجلة فتكدر دنياك وتذهب آخرتك.

وتشتد المعارك ويخوض جند الله الحروب بعقيدة ثابتة، ويبدون من البسالة ما يفل حصون المشركين، ويزعزع ثقتهم، وتكتب عليهم الهزائم في كل المعارك وتحرر بجهادهم المدن والأمصار حتى انتهوا إلى نهاوند وقد توافد إليها من بين خراسان إلى حلوان واجتمعوا فيها من كل الأمصار من سجستان وفارس. وبلغ الخبر سعداً فشخص إلى المدينة لينقل الخبر إلى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويعلمه بجموع الفرس وما يعدون له بعد أن شعروا ببداية النهاية، وبقرب زوال ملكهم وقد أجمعوا على المبادرة بالشدة قبل أن يزدادوا جرأة وقوة وأن التعجيل بضربهم يعني إنهاءهم إلى الأبد، وإسقاط كل الأحلام التي يمكن أن تراودهم.. ونودي في الناس: الصلاة جامعة فاجتمع الناس وقام على المنبر خطيباً فأخبر الناس الخبر واستشارهم وقال: هذا يوم له ما بعده من الأيام، ألا وإني قد هممت بأمر، وإني عارضه عليكم فاسمعوه، ثم أخبروني وأوجزوا، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، ولا تكثروا ولا تطيلوا، أفمن الرأي أن أسير فيمن قبلي ومن قدرت عليه حتى أنزل منزلاً واسطاً بين هذين المصرين، فاستنفرهم ثم أكون لهم ردء حتى يفتح الله عليهم ويقضي ما أحب.. فقام عثمان ابن عفان وعلي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف في رجال من أهل الرأي من أصحاب رسول الله ﷺ... فقام طلحة... وتشهد ثم قال: أما بعد يا أمير المؤمنين: فقد أحكمتك الأمور، وعجمتك البلايا، واحتنكتك التجارب وأنت وشأنك، وأنت ورأيك، لا تنبوأ في يديك، ولا نكل عليك، إليك هذا الأمر فمرنا نطع، وأدعنا نجب، واحملنا نركب، ووفدنا نفد، وقدنا ننقد، فأنك ولي هذا الأمر، وقد بلوت وجربت واختبرت فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء الله لك إلا عن خيار. ثم جلس...
فعاد عمر فقال: إن هذا يوم له ما بعده من الأيام، فتكلموا، فقام عثمان بن

عفان فتشهد، وقال: أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شأمهم، وتكتب إلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصرين، الكوفة والبصرة فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين، فإنك إذا سرت بمن معك وعندك قل في نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم وكنت أعز عزاً وأكثر. فعاد عمر وقال: إن هذا يوم له ما بعده من الأيام فتكلموا فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: أما بعد يا أمير المؤمنين، فأنك أن أشخصت أهل الشام من شأمهم سارت الروم إلى ذراريهم، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم، وإنك إن أشخصت من هذه الأرض إنتفضت عليك من أطرافها وأقطارها أقرر هؤلاء في أمصارهم، وأكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق.: ثم قال: إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا: هذا أمير العرب، وأصل العرب فكان ذلك أشد لكلبهم، وألبتهم على نفسك... أما عددهم فأنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، ولكننا نقاتل بالنصر.. وهنا شخصت الأبصار إلى الخليفة الراشد لتقرأ في وجهه صورة الرد، ولتقف على الموقف الذي استقر عليه بعد أن وجمت القلوب، وتقطعت الأنفاس في الصدور...

وتنطلق عبارات الخليفة بهدوء واتزان، أشيروا عليّ برجل أوّله ذلك الثغر غداً.. وبصوت واحد وإيمان صادق تعلو كلمة واحدة هي: أنت أفضل رأياً، وأحسن مقدرة، ويأتي صوت الخليفة ثانية ليقول، أشيروا عليّ به واجعلوه عراقياً، قالوا يا أمير المؤمنين أنت أعلم بأهل العراق، وجندك قد وفدوا عليك ورأيتهم وكلمتهم، فقال والله لا أولين أمرهم رجلاً ليكونن لأول الأسنة إذا لقيها غداً، فقيل: من يا أمير المؤمنين؟ فقال: النعمان بن مقرن المزني. فقالوا: هو لها.. وكان حديث القائد مع الصحابة حديث الصدق والإيمان، وصورة التعامل الحقيقي الذي يعطي القيادة قدرة الإندفاع ويحقق لها سلامة القرار العسكري الصائب، لأنه ينطلق من المسؤولية الواعية، ويتحدد في ظل التجربة المدركة، ويستمد أصوله من الرجال الذين عاشوا مع الرسول القائد فعرفوا

الإتجاه الذي تسير فيه المعركة .. وتولى النعمان القيادة وأمر جنده بالتبعية وسار القائد المظفر وعلى مقدمة جيشه نعيم بن مقرن وعلى مجنبتيه حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن وعلى المجردة القعقاع بن عمرو وعلى الساقة مجاشع . وقد توافى إليهم بنهاوند كل من غاب عن القادسية والأيام من أهل الثغور وأمرائها وأعلام من أعلامهم.. فلما رآهم النعمان كبر وكبر الناس معه فتزلزلت الأعاجم فسار في الناس فجعل يقف على كل راية ويحمد الله ويثني عليه ويقول:

« قد علمتم ما أعزكم الله به من هذا الدين، وما وعدكم من الظهور.. والله منجز وعده ومتبع آخر ذلك أوله، فأنتم عباد الله حقاً وأولياؤه، فلا يكونن على دنياهم أحمى منكم على دينكم، وأتقى الله عبد صدق الله، وأبلى نفسه فأحسن البلاء، فإنكم بين خيرين منتظرين إحدى الحسنيين من بين شهيد حي مرزوق أو فتح قريب وظفر يسير.. ثم قال: فإذا قضيت أمري فاستعدوا فإني مكبر ثلاثاً فإذا كبرت التكبيرة الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيأ، فإذا كبرت الثانية فليشد على سلاحه، وليتأهب للنهوض، فإذا كبرت الثالثة، فإني حامل إن شاء الله فاحملوا معاً، اللهم أعز دينك، وانصر عبادك واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك.

وحمل النعمان وحمل الناس وراية النعمان تنقض نحوهم انقضاض العقاب والنعمان معلم ببياض القباء والقلنسوة، فاقتتلوا بالسيوف قتالاً شديداً لم يسمع السامعون بوقعة يوم قط كانت أشد قتالاً منها، واستشهد النعمان فتناول الراية نعيم بن مقرن قبل أن تقع، وسجى النعمان بثوب، وأتى حذيفة بالراية فدفعها إليه، وكان اللواء مع حذيفة، فجعل حذيفة نعيم بن مقرن مكانه، وأتى المكان الذي كان فيه النعمان فأقام اللواء، ودخل المسلمون بعد هزيمة المشركين يوم نهاوند مدينة نهاوند، وتململ الخليفة الراشد تلك الليلة وهو يرقب المعركة في المدينة، وينتظر أخبارها بعد أن عرف موعدها وقدر الوقت الذي يمكن أن تتم به وجعل يخرج ويلتمس الخبر. وينتظر النتائج التي كانت تعني بالنسبة إليه الحد الفاصل، والنهاية الحاسمة.. وبينما رجل من المسلمين قد خرج في بعض حوائجه،

ورجع إلى المدينة ليلاً فمر به راكب في الليلة الثالثة من يوم نهاوند يريد المدينة فقال يا عبد الله من أين أقبلت؟ قال: من نهاوند، قال: ما الخبر؟ قال: الخبر خير فتح الله على النعمان، واستشهد واقتسم المسلمون في نهاوند، وطواه الراكب حتى انغمس في المدينة وقيل أن الذي ذهب بالبشارة إلى عمر هو أبو عثمان الهندي وعندما سئل عن النعمان بن مقرن وقيل استشهد وضع يده على رأسه وبكى وسمى فتح نهاوند بفتح الفتوح وكان سنة تسع عشرة ويقال سنة عشرين.

وكانت جيوش المؤمنين في كل يوم تكتب ملحمة من الملاحم الكبار وتسجل انتصاراً لا يعادله انتصار، وألوية الأبطال خفاقة في سماء المعركة وسيوفهم اللوامع تشق غبارها وتلوي رقاب قادتها المنهزمين، وتذل جبروتهم الطاغي، وكانت بطولات الرجال تتزاحم في كل معركة حاسمة، ومعادنهم الصافية تشرق صفاء عقيدتهم، وملامح وفاء وصدق وإيمان، وقدرة قتال، ولم يكن الشعراء بعيدين عن تثبيت هذه الوقائع وتصوير هذا الجانب البطولي الذي كان يقف عند كل معركة ، ويسجل كل بطولة نادرة. ويظهر كل جانب إنساني يتجلى في سيرة القائد المنتصر. أو المقاتل المتقدم، أو الخليفة الذي كان يخطط للمعركة من مركز الإشعاع ومنطق التشريع ومركز القيادة فهذا نعيم بن مقرن يذكر الروذ وما جرى فيها ويقول:

لما أتـاني أن مـوتـاً ورهطـة	بني باسل جـروا جنـود الأعـاجـم
نهضت إليهـم بـالجنـود مسـاميـا	لأمنـع منهـم ذمتي بـالقـواصم
فجئنـا إليهـم بـالحديـد كـأننـا	جبـال تـراءى مـن فـروع القلاسم
فما صبروا في حـومـة الموت سـاعـة	وقد جعلوا يسمون فعـل المسـاهـم
صـدمنـاهـم في واج روذ بجمعنـا	غداة رميناهـم بـإحـدى العظـائـم
فما صبروا في حـومـة الموت سـاعـة	لحد الرمـاح والسيـوف والصـوارم
كـأنهم عنـد انبثـاث جموعهـم	جـدار تشظـى لبنـه للهـوادم
أصبنا بها مـوتـاً ومـن لـف جمعـه	وفيهـا نهـاب قسمـه غيـر عـاتم

تبعنـاهـم حتى أووا في شعـابهم نقتلهـم قتـل الكـلاب الجواهـم
كـأنهم في واج روذ وجـوه ضئيـن أصابتهـا : فروج المخـارم

وكثيراً ما كان الشعراء يصاحبون حملات التحرير ويشهدون الأمان الذي يمنحه القادة لسكان المناطق المحررة ليطمئنوا على أموالهم وأنفسهم وملتهم وشرائعهم كما حصل للشماخ بن ضرار الذي شهد أمان أهل موقان من جبال القيح وعمرو بن معديكرب الذي شهد فتوح طبرستان وأذربيجان ، وأذن الله أن تحرر كرمان وسجستان ومكران التي قال فيها الحكم بن عمرو وأبياته :

لقـد شبـع الأرامـل غير فخـر بفـيء جـاءهـم مـن مكـران
أتـاهـم بعـد مسغبـة وجهـد وقـد صفـر الشتـاء مـن الدخـان
فـإني لا يـذم الجيـش فعلـي ولا سيفـي يـذم ولا سنـاني
غـداة أدافـع الأوبـاش دفعـاً إلى السنـد العـريضـة والمـدانـي
ومهـران لنـا فيمـا أردنـا مطيـع غير مسترخـي العنـان
فلـولا مـا نهـى عنـه أميـري قطعنـاه إلى البـدد الزوانـي

ومثل ما ارتفعت راية التحرير فوق أرض العراق كانت راية المسلمين تخفق فوق أرض الشام وهي تحمي أعداد البشر الكبيرة التي أناخت عليها كلاكل الإضطهاد وأغرقتها أسباب الإستعباد ، ومثل ما شعرت جحافل العرب بومضات التحرير تطل عليهم من عيون الرجال الذين حملوا الخير والسعادة فوق أرض العراق ، كانت بوارق الخير تشع في نظرات المحررين الذين باركتهم القلوب وابتهجت بنصرهم النفوس الضامئة وهم يحققون الإنتصار فوق ربوع الشام العربية ومثل ما تميزت قدرة المقاتلين الذين أكدوا شجاعتهم وبسالتهم وبطولاتهم وهم يسجلون روائع المواقف الخالدة في كل موقع من مواقع المعركة في العراق كانت بلاد الشام تتذكر باعتزاز كل تلك المآثر التي عاشت أيامها وهي تستذكر القائد خالد بن الوليد وشرحبيل بن حسنة وأبا عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وغيرهم ممن خاضوا معارك التحرير فكتبوا صفحات المجد ، وخلدوا

صور النضال الحربي المتميز.. وإذا كان القعقاع بن عمرو التميمي قد طرز روابي القادسية بالمرهفات العوالي وكتب أيام الإنتصار بالـرمـاح الخطيـة فـإن وادي اليرموك قد شهد لهذا القائد الفذ مواقف أخرى لا تقل على تلك من حيث الإقتدار ولا تختلف عنها من حيث التضحية، وكما كانت قصائده صفحة من صفحات التاريخ الحربي لوقائع تلك الأيام، فإن قصائده في اليرموك كانت لوحة أخرى من لوحات قيادته التي أغنت بلاءه، وأثرت نجدته، وتركت له الذكر الحميد في كتب التاريخ والرجال، لأنه كان يلبي دعوة الداعي، ويخوض كل كريهة ويندفع عند كل صوت يهتف باسمه، ويطلب عونه، وهنا كانت أصوات الشعر تختلج في نفسه مع أصوات السلام، وتمتزج قوته بقوة الإندفاع الذي يشده إلى صلب المعركة وتتعالى صيحات الفرسان في أعماقه لتتجاوب نجدة ومروءة وفروسية، وتستعر في دواخله صلابة الإيمان ليستحيل تضحية وجرأة وإقداماً.

وإذا كانت القادسية قد شهدت زخماً من شعر الحرب شارك فيه الشعراء الفرسان الذين وقفنا على أسمائهم، والشعراء الذين قالوا الشعر ولكن أسماءهم ظلت رهن الضياع والإغفال، وهذه ظاهرة عرفها شعر الحرب في هذه المراحل وربما تكون أسبابها نابعة من طبيعة المعارك التي أثارت في نفوس المقاتلين دوافع الحماسة وحملتهم على قول الشعر وهم يقفون وجهاً لوجه أمام المشركين الذين حاولوا بكل الوسائل إيقاف المد الإسلامي الدافق وهو يحمل عناصر الوفاء للمبادىء، ويتجسد في روعة التضحيات الكبيرة التي قدمتها كواكب المؤمنين والمجاهدين وهم يضربون الأمثلة النادرة في الأداء البطولي. فإن الساحة الغربية شهدت معركة أخرى كانت أصداؤها تتجاوب في نفوس المقاتلين الذين كانوا يتوزعون على الجبهتين، ويشاركون في المعركتين لأنهما تمثلان المحاولات الكبيرة التي كانت تحاول الإطباق على الدولة التي جاءت للناس هدياً، وأعادت للإنسان كرامته. فكانت المعركتان حاسمتين في تاريخ الدولة العربية إنها معركة اليرموك التي أثارت الشعراء وحفزت المقاتلين الذين رسموا بتضحياتهم روائع الملاحم

ر خوالد المواقف البطولية بعد أن سمّى لكل أمير من أُمراء الشام كورة فسمّى لأبي عبيدة بن عبد الله الجراح حمص، وليزيد بن أبي سفيان دمشق ولشرحبيل ابن حسنة الأردن ولعمرو بن العاص فلسطين وشهد اليرموك ألف من أصحاب رسول الله ﷺ، فيهم نحو من مائة من أهل بدر وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس فيقول: الله الله إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك. اللهم إن هذا يوم من أيامك. اللهم أنزل نصرك على عبادك.. وكان المسلمون يقاتلون متساندين وخالد يسير فيهم فيحمد الله ويثني عليه ويقول: إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي. أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده.. إن أرددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردّهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها. فهلمّوا فلنتحاور الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غداً، والآخر بعد غد، حتى يتأمر كلكم ودعوني إليكم اليوم. وكان من السنَّة التي سنَّها رسول الله ﷺ بعد بدر أن تقرأ سورة الجهاد عند اللقاء وهي الأنفال ولم يزل الناس بعد ذلك على ذلك[1].

كان الحوار قبل معركة اليرموك هادئاً وقد تهيأ المسلمون فكانوا ستة وأربعين ألفاً، وخرجت الروم في تعبية لم ير الراؤون مثلها قط، وخرج خالد في تعبية لم تعبّها العرب قبل ذلك بعد أن وزعهم ستة وثلاثين كردوساً إلى الأربعين وقال: إن عدوكم قد كثر وطغى وارتفعت بيارق الكراديس وكان على كل كردوس قائد له صورته في قلوب المقاتلين، وصولته في ميادين المعارك وجهاده في مقاومة الشرك. إلى هنا والصورة حافلة بكل رمز، صادقة بكل تعبير وقد ارتسمت في قسماتها قدرات الرجال، وتحددت في خطوطها عزمات الميامين، وفي إطار هذه الصورة الكبيرة والعزائم الشامخة، كان الحوار يدور في ركن من أركان الساحة الممتدة وفي نطاق الحديث الهادىء والموجه. إنه الحوار الذي باشره أحد الرجال لقائد اليرموك وقد افتتحه بقوله: ما أكثر الروم وأقل المسلمين

(١) ينظر الطبري ٣/١ أحداث سنة (١٣) للهجرة.

وسكت الرجل وهو يطوي في نفسه أكثر من حقيقة ويخفي أكثر من تساؤل ويوحي بأكثر من إشارة ولم تكن هذه المبادرة بعيدة عن تصور القائد المبارك، سيف الله المسلول فكان الجواب: ما أقل الروم وأكثر المسلمين.. ولم تقف عبارة القائد عند هذه الحدود التي تعبر عن العمق المطلوب والغاية المقصودة. لأن القلة والكثرة لم تعد الحقيقة الحاسمة في المعيار، ولم تكن الحد الفاصل في المواجهة، وأدرك القائد سمات الغرابة التي وضحت على وجه السائل، وعرف المعاني التي يمكن أن تؤديها هذه المقولة فأتبعها بعبارة أخرى.. إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال.. ويصمت الرجل الحائر، وتذوب التساؤلات الغائمة التي أوشكت أن تتكاثف حيرة وإنبهاراً نعم أنها الكثرة التي يحققها النصر، إنها صورة التواصل الزمني الذي يشد بين معارك المصير الواحد، ويوحد بين تصميم الرجال المدافعين عن الحق وهي المقولة التي تظل أصداؤها واضحة المعالم في كل موقف يوجب المواجهة ويدعو إلى الإعتبار. ولا بد أن يقترن الشعر بالتاريخ والقتال بالرجال الأشداء الذين يستجيبون لنداء الجهاد وهو يعلو فالقعقاع الذي عرفته سوح الجهاد مقاتلاً متميزاً، وذكرته مواقع القتال مقداماً يتخذ طريق الزحف عبر الأنبار وعين التمر ووادي الخضر ثم يجتاز وادي الرمان عند دومة الجندل ويصحبه المثنى في هذا الإجتياز حتى آبار قراقر ويستذكر فيها الأحفاد مواقف الأجداد وترتسم صور الإنتصار البطولي الذي شهدته وهم يستذكرون أبيات الأعشى:

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي — وراكبها يوم اللقاء وقلت
هم ضربوا بالحنو حنو قراقر — مقدمة الهامرز حتى تولت

وترتفع أوسمة الفخار التي سجلها الأعشى كتبوا ملحمة يوم ذي قار الأكبر، وتهتز قلوب المؤمنين لتلك الذكريات العطرة وهي تتلو أناشيد عذبة تطرز مفاوز الطريق الممتد، وتغمر الفضاء الموغل في العمق وتشد النظرات الحالمة بالوعد الحق الذي بشر به المؤمنون وفي كل موقع من هذه المواقع يتجدد عزم وتصلب إرادة وتقوى عزائم وهم يعرفون مشقة الطريق ويدركون مصاعب

الرحلة ويأخذ رافع الطائي الدليل الذي اصطحبه خالد بن الوليد وينبري راجز من الرجاز للإشادة بهذه الرحلة:

لله در رافـــع إني أهتـــدي فـوز مـن قـراقـر إلى سـوى
خمساً إذا مـا سـارهـا الجيش بكـى مـا سـارهـا مـن قبلـه أنس يـرى

إنها العقيدة التي حملت المقاتلين على خوض غمار هذه البادية التي يتيه بها الدليل ويضيع العارف وتمتحن الإرادة.. وتجتاز مواكب المجاهدين المتاهة لتقطعها بقوة الإيمان وتعبرها بإرادة الصامدين حتى تقف على قراقر وهنا كانت عبقرية القائد خالد تتجلى في الخطة العسكرية التي طلب من الجند الإلتزام بها ليتمكن من تحقيق هدفه في الوصول إلى الشام في الوقت المحدد له فبعد أن استجاب إلى خطته رافع بن عميرة أمرهم خالد وقال: تروّوا للشفة لخمس، وأمر صاحب كل خيل بقدر ما يسقيها، فظمأ كل قائد من الإبل الشرف الجلال[1] ما يكتفي به، ثم سقوها العلل بعد النهل ثم صروا آذان الإبل وكعموها وخلوا أدبارها، ثم ركبوا من قراقر مفوزين إلى سوى، فلما ساروا يوماً افتظوا لكل عدة من الخيل عشراً من تلك الإبل فمزجوا ما في كروشها بما كان من الألبان، ثم سقوا الخيل، وشربوا للشفة جرعاً ففعلوا ذلك أربعة أيام[2].. وبعدها ينزل جيش خالد بالمصيخ وهو في مسيره إلى الشام، وتلمع في عيون القعقاع الشاعر الأرض التي قطعها فيعدد لنا معالم البلاد فيقول:

قطعنـــا أبـــاليس البلاد بخيلنـــا نريـد سُوى مـن آبـدات قُـراقَـر
فلما صبحنـــا بـــالمصيّـــخ أهلـــه وطـار إبـاري كـالطيـور النـوافـر
أفـاقـنـا بها بهـــراء ثم تجاســـرت بنا العيس نحو الأعجمـي القـراقـر

وقبل التحام الجيشين أمر خالد عكرمة والقعقاع وكانا على مجنبي القلب فأنشبا القتال وآرتجز القعقاع وقال:

---

(١) الشارف: الناقة التي قد أسنّت وجلّة الإبل أسنانها.

(٢) الطبري ٣/٤٠٩.

يــا ليتني ألقــاك في الطِّــراد قبــلَ اعتــرام الجحفــل الورّاد
وأنت في حلبتك الـورّاد

وقال عكرمة:

قــد علمــتْ بهكنــة الجَواري أنــي علــى مكــرُمــةٍ أحــامــي

فنشب القتال والتحم الناس، وتطارد الفرسان، وتنادى الناس فثابوا وتراجعت الروم إلى مواقفهم، فزحف بهم خالد حتى تصافحوا بالسيوف، فضرب فيهم خالد وجرجَه من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب. وصلى الناس الأولى والعصر إيماء وتضعضع الروم، فلما وجدت خيلهم مذهباً ذهبت وتركوا ولما رأى المسلمون خيل الروم توجهت للهرب، أخرجوا لها ولم يحرجوها فذهبت فتفرقت في البلاد، ولما بلغ غسان خروج خالد على سوى وغار به على مصيخ بَهراء فاجتمعوا بمرج راهط، وبلغ ذلك خالداً وقد خلف ثغور الروم وجنودها مما يلي العراق، ثم خرج من سوى بعدما رجع إليها بسبي بهراء فنزل الرمانتين ثم نزل الكثيب حتى صار إلى دمشق ثم مرج الصفر فلقي عليه غسان وعليهم الحارث بن الأيهم فانتسف عسكرهم وعيالاتهم.. ثم خرج من المرج حتى ينزل قناة بصرى وكانت أول مدينة افتتحت بالشام.. والشاعر الفارس يتابع الوقائع بقصائده ويرسم طريق المعركة بمفرداته التي تقف عند كل ملحمة، وألفاظه التي تحدد المسالك الذي كانت تتحرك بموجبه قوافل المؤمنين وهي تلوي رقاب الشرك وتسكت صوت الباطل وترفع راية التوحيد والتحرير.. إنه القعقاع الذي سجل الأحداث بدقة حيث يقول[1]:

بــدأنــا بجمــع الصُّفّــرَيــن فلم نَــدَعْ لغســان أنفــا فــوق تلــك المنــاخــر
صبيحــة صــاح الحارثــان ومــن بــه ســوى نفــر نجتــذهــم بــالبــواتــر
وجئنــا إلى بصرى وبصرى مقيمــة فــألقــت إلينــا بــالحشــا والمعــاذر
فضضنــا بها أبــوابها ثم قــابلــت بنا العيس في اليرموك جمع العشائر

(١) نوري القيسي وحاتم الضامن، شاعران من فرسان القادسية /٢٢٩.

وفي يوم المرج يقول خالد بن سعيد بن العاص [١]:

من فارس كره الطغيان يعيرني رمحاً إذا نزلوا بمرج الصفر

ومثل ما يبقى ذكر الرجال الذين يصنعون الملاحم وهم يخوضون المعارك ذوداً عن (الحمى) ودفاعاً عن الكرامة فإن شرف الإسهام بالمعركة يبقى مكرمة من مكارمهم ومأثرة من مآثرهم المحمودة، وأما الذين لا ينالون شرف المساهمة ولا يمتلكون قصة يسردونها لأبنائهم ويعتز بها أحفادهم فإنهم يشعرون بلعنات التاريخ تتوالى عليهم.

هنا يذكر عبد الله بن كامل بن حبيب [٢]:

شهدت قبائل مالك وتغيبت عني عميرة يوم مرج الصفر

ويتحدث القعقاع عن الكيفية التي دخل فيها خالد بصرى وكيف استسلمت وفضّ أبوابها وبعدها كانت العيس على موعد مع الجند الذين تبددت جموعهم وتبعثرت أعدادهم حتى قيل أن أكثر من مائة ألف قتيل كانت خسائرهم..

ويرتفع صوت القعقاع ثانية وهو يواكب مسيرة الجند ويرى وجه المقارنة بين فتح العراق واليرموك أصبح حقيقة والنصر المؤزر الذي سجلته بواتر الجند في العراق يسجل ثانية على أرض اليرموك وهم يتساقطون أعداداً ويتهافتون جموعاً يتدحرجون عن الواقوصة [٣]:

ألم ترنا على اليرموك فزنا كما فزنا بأيام العراق
قتلنا الروم حتى ما تساوى على اليرموك مفروق الوراق
فضضنا جمعهم لما استحالوا على الواقوصة البتر الرقاق
غداة تهافتوا فيها فصاروا إلى أمر تعضّل بالذواق

(١) البلاذري، فتوح البلدان/ ١٦٣.

(٢) البلاذري. فتوح البلدان/ ١٦٣.

(٣) نوري القيسي وحاتم الضامن شاعران من فرسان القادسية/ ٢٣٣.

وشهدت اليرموك حباش بن قيس القشيري فقتل من المشركين خلقاً وقطعت رجله وهو لا يشعر ثم جعل ينشدها فقال سوار بن أوفى[1] :

ومنا ابن عتاب وناشد رجله ومنا الذي أدى إلى الحي حاجب

ويبقى الإتصال بين الخليفة والقادة مستمراً لتوجيه مسيرة الجيش والوقوف على الوضع العسكري ومتابعة تعبئة المقاتلين بالمجاهدين الذين بدأت طلائعهم تتوافد من كل صوب لتنال شرف المشاركة .. ولما جاء عمر بالكتاب عن أبي عبيدة بالذي ينبغي أن يبدأ به كتب إليه .. أما بعد ، فابدأوا بدمشق فانهدوا لها ، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم ، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بازائهم في نحورهم وأهل فلسطين وأهل حمص ، فإن فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها ، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل فأن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص .. فسرّح أبو عبيدة إلى فحل عشرة قواد : فساروا من الصفر حتى نزلوا قريباً من فحل ، فلما أيقن أهل دمشق أن الأمداد لا تصل إليهم فشلوا ووهنوا وتحيروا ، أما خالد فإنه كان لا ينام ولا ينيم ، ولا يخفى عليه من أمورهم شيء ، عيونه ذاكية وهو معني بما يليه ، قد اتخذ حابلاً كهيئة السلاليم وأوهاقا[2] فلما أمسى من ذلك اليوم نهد ومن معه من جنده الذين قدم بهم إليهم ، وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وأمثاله من أصحابه في أول يومه وقالوا : إذا اسمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا ، وانهدوا للباب ، فلما انتهى إلى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم . فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيهما القعقاع ومذعور . وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق ، أكثره ماء ، وأشده مدخلاً وتوافوا لذلك ، فلم يبق ممن دخل معه أحد الارقى أودنا من الباب . حتى إذا استووا على السور حدد عامة أصحابه ، وانحدر

---

(١) البلاذري فتوح البلدان /١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) الاوهاق : جمع وهق الحبل في طرفيه انشوطة يطرح في عنق الدابة او الانسان حتى يؤخذ .

معهم، وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي، وأمرهم بالتكبير، فكبر الذين على رأس السور، فنهد المسلمون إلى الباب، ومال إلى الحبال بشر كثير فوثبوا فيها، وقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف، وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل. وكان صلح دمشق على المقاسمة، الدينار والعقار، ودينار عن كل رأس.

وخلف الناس بعد فتح دمشق يزيد بن أبي سفيان في خيله في دمشق وساروا نحو فحل وعلى الناس شرحبيل بن حسنة، فنزل شرحبيل بالناس فحلاً والروم بيسان وبينهم وبين المسلمين تلك المياة والأوحال... واقتتلوا بفحل كأشد قتال اقتتلوه قط ليلتهم ويومهم إلى الليل، فأظلم الليل عليهم وقد حاروا فانهزموا وهم حيارى، فاسلمتهم هزيمتهم وحيرتهم إلى الوحل فركبوه/ ولحق أوائل المسلمين بهم، وقد وحلوا فركبوهم وما يمنعون يد لامس فوخزوهم بالرماح فكانت الهزيمة في فحل، وكان مقتلهم في الرداغ[1]، فأصيب الثمانون الفاً، لم يفلت منهم إلا الشريد، وكان الله يصنع للمسلمين وهم كارهون، لإيمانهم بفكرة الجهاد، وصدقهم في القتال، ودفاعهم عن الحق، وجرأتهم في وحدة القرار واتخاذه، كرهوا البثوق فكانت عوناً لهم على عدوهم، وأناة من الله ليزدادوا بصيرة وجدا، ولا بد أن يقف القعقاع وهو الفارس الجريء والبطل الذي أوكلت إليه مهمة التقدم التسور بعد أن اتخذ من الحبال سلالم، أن يتحدث عن المعركة ويصف لنا أجزاءها التي لم تفصل في حديث. ولم يقف عندها مؤرخ، أنها صورة المقاتل الذي يجابه المعركة عن قرب ويؤدي الواجب كما يؤمن، ويكتب الملحمة بقدرة النفس التي لم تعرف إلا الوفاء الذي آمنت به بعد أن أخذت على نفسها حقاً والتزمت أمام الله أن تكون أمينة على هذا الحق.. ولا ينسى الشاعر وهو في خضم هذه المعارك أن يتغنى بآبائه الذين ورث عنهم هذه الفعال وبمكارمهم الجمة التي بقيت تعيش في ذاكرته وهو يتحول إلى الإسلام مقاتلاً صبوراً، ومؤمناً مجاهداً، وعلى عادة المقاتلين الفرسان الذين اعلموا على أنفسهم كان

---

(١) الرداغ: الوحل الشديد.

فخره يتعالى وهو ما كان يصنعه الفارس الواثق، ويتخذه البطل المشهود له. انها صورة أخرى من صور الفروسية التي تجلت في أبياته وهو يتناول الموضوع في إطار الأحداث الداخلية للمعركة والأحداث الملامسة التي كانت أنفاسه قريبة منه، وأحداثها ملازمة له وأصوات المتلاحمين توشك أن تقترب من آذانه، إنه يتعامل من خلالها بما وقف عليه والتزم به وأداه..

كم من أب لي قد ورثت فعاله ... جم المكارم بحره تيار

وغداة فحل قد رأوني معلماً ... والخيل تنحط والبلا أطوار

ما زالت الخيل العراب تدوسهم ... في حوم فحل والهبا موار

حتى رمين سراتهم عن أسرهم ... في روعة ما بعدها استمرار

وعلى الرغم من هول المعارك التي شهدتها أرض الشام وعنف الملاحم البطولية التي خاضها العرب والأبطال المشهود لهم الذين قادوا تلك المعارك إلا أن الشعر الذي وصل إلينا لا يتناسب بأي شكل من الأشكال مع الأخبار الهائلة التي رسمت لنا تلك المعارك وما تركته من أصداء في أسفار الوقائع التي وصلت إلينا وعظم البلاء الذي أبلاه المسلمون وهم يسجلون روائع الإنتصار فوق أرض أجهدهم الوصول إليها، وابتعدوا عن مراكز الإمداد مسافات لها حساباتها في أي تخطيط عسكري والدولة تشهد معارك طاحنة أخرى في الجناح الشرقي وهي تتقدم في معارك الحيرة وعين التمر والبويب وتتهيء لمعركة حاسمة هي القادسية.. إنه التساؤل الذي يبقي دلالته غير واضحة في الكشف الذي تركته النصوص ولكن الأسباب ربما تكمن في ضياع الشعر الذي لازم شعر الحرب منذ المراحل الأولى وانصراف الشعراء الفرسان لمجابهة الخصوم والتهيؤ للمنازلة والإنتقال من ساحة حرب إلى ساحة أخرى بعد أن أدركوا أن الشعر له مجال آخر ربما انصرف عن مهمة نذروا لها أنفسهم ووجهوا اهتمامهم وتركوا متاع الدنيا لنيل ثواب الآخرة.. وقد يكون استشهاد بعضهم في هذه المعارك الطاحنة لم يترك لهم فرصة الإستماع أو الإستيعاب أو حفظ الرواية.. إن هذه الأسباب يمكن أن تظل قائمة في مثل هذه الحالات ولكنني أعتقد أن اقتصار المؤرخين على

تسجيل الأحداث من خلال الإستشهاد على القضايا المهمة ووقوفهم عند الأحداث التي ركز عليها كانت سبباً آخر من أسباب الضياع التي لازمت هذا الفن الشعري. وظلت هذه الحالة تلازم المؤرخين الذين ظلوا يتداولون ذكر هذه الأحداث ويتعاقبون على ذكر روايتها وهم في كل مرة يختزلون واقعة أو يقتطعون أخباراً أو يرفضون رواية أبيات لأسباب تتعلق بمنهجيتهم العلمية وطريقتهم التي آثروا كتابة التاريخ بموجبها، وتبرز هذه الظاهرة عند مقارنتنا بكتابين متقاربين أو متداخلين هما تاريخ الطبري وغزوات ابن حبيش فالأول من الربع الأول من القرن الرابع والثاني من الربع الأخير من القرن السادس ولكننا نجد ابن حبيش يذكر أشعاراً وقصائد لم يذكرها الطبري، ولو حاولنا أن نقارن بينهما لوجدنا الثاني نسخة مكررة للأول وقد حفظ لنا هذا الكتاب قصائد في ذكر هذه الوقائع تذكر لأول مرة وفيها تفاصيل دقيقة لما كانت عليه هذه الحروب ويكشف لنا فيها عن أسماء وأحداث وتواريخ وجدت موجزة في كتاب المؤرخين الأوائل.. وهي الميزة التي ينفرد بها هذا الكتاب عن بقية كتب المغازي، وإذا استثنينا كتاب معجم البلدان لياقوت من بقية البلدانيات وبصورة أقل كتاب معجم ما استعجم للبكري فإن غالبية البلدانيات لا تقدم لنا المادة الشعرية والأخبار التي يقدمها ياقوت حتى أصبح في مفهوم بعض الباحثين أنه أقرب إلى كتب الأدب منه إلى كتب البلدان فقد استوعب أخباراً فريدة ووقف على دواوين جمة ونقل أشعاراً عن كل مدينة وقف عندها أو ذكرها لسبب من الأسباب ما لم نعثر عليه في المصادر الأخرى وحتى التي تتخصص فيها أو تتحدث عنها، ولكن الحجة تبقى شاخصة لأن ياقوتاً تابع المدن وذكر الحوادث ومن خلالها كانت الأخبار والقصائد والمقطعات يعتمد عليها لتوكيد ما يأتي به وتظل القصائد الأخرى التي كانت تروى أو تنشد وهي تعبر عن احساس المقاتلين بعد كل معركة وما يذكرونه من مشاعر وما يثيرونه من ذكريات. بعيداً عن أيدي الدارسين لأنه ابتعد عن ساحة الإستشهاد وظل في دائرة الذكريات ومدار الأخبار والروايات حتى أتت عليه السنون..

والشعراء الذين وصلت إلينا أشعارهم وهي مقطعات أو أبيات تؤكد أنها أجزاء من قصائد ومقطاع من صورة وجدانية متكاملة وخفقة من خفقات موقف له وشائج واضحة تتجلى حركتها في طبيعة الأبيات وصلتها من خلال الحديث التفصيلي لطبيعة التناول الذي يقدمه الشاعر وما يثيره من مواقف ذكر طرفاً منها وأشار إلى بعضها الآخر على شكل إيماءات فسرتها الأبيات المقتطعة وعرضت لها المفاصل المبتورة وأذهبت رونقها حدود الإستشهاد المطلوب... إن مقطعات الشعر الذي وصل إلينا يكتفي بوضع الخطوط الباهتة على ملامح المعارك وينتقل إلى وصفها إنتقالاً متباعداً وإن كان في بعض دقائقه التي أشرنا إليها يعطي التفاصيل التي أغفلت عند الحديث العام والوصف الواسع.

ويواصل المجاهدون طريق التحرير، وهم يحملون أمانة الرسالة ومبادىء السماحة ودستور الحق ليأخذوا بأيدي الأمم المغلوبة ويرفعوا عنها أسباب القهر والتسلط ويعيدوا إليها كرامة الإنسان الذي قهر، وعزة النفس التي كرمها الله، وسماحة الروح التي ترفعت على كل واقع بائس. فخرج أبو عبيدة وخالد بن الوليد إلى حمص.

والذي يتابع حركة الجيش العربي الإسلامي يدرك التغييرات الأساسية التي بدأت تبرز على ساحة المعارك من حيث توجه القيادة أو قيادة المعركة أو أداة الجيش أو فن الحرب فقد تحولت الأمور بعد أن استقر العرب في (الجابية) إلى أن تكون نقطة الإنطلاق والمركز الذي بدأت تتحشد فيه القوات لتنطلق إلى كل مركز يتوجه إليه القادة، فقد خرج أبو عبيدة بخالد بن الوليد من فحل إلى حمص وعندما علم خالد برحيل «توذرا» إلى دمشق أجمع رأيه ورأى أبو عبيدة أن يتبعه خالد فاتبعه من ليلته في جريدة، وقد بلغ يزيد بن أبي سفيان الذي فعل فاستقبله فاقتتلوا، ولحق بهم خالد وهم يقتتلون، فأخذهم من خلفهم، فقتلوا من بين أيديهم ومن خلفهم، فأناموهم ولم يفلت منهم إلا الشريد، وانصرف خالد إلى أبي عبيدة وقد قتل خالد توذرا وقال:

نحن قتلنا توذرا وشوذرا وقبله ما قد قتلنا حيدرا

وأقبل أبو عبيدة حتى نزل على حمص، وأقبل خالد بعده حتى ينزل عليها، فكانوا يغادون المسلمون ويراوحونهم في كل يوم بارد، ولقي المسلمون برداً شديداً، والروم حصاراً طويلاً، فأما المسلمون فصبروا ورابطوا، وأفرغ الله عليهم الصبر وأعقبهم النصر حتى اضطرب الشتاء، وإنما تمسك القوم بالمدينة رجاء أن يهلكهم الشتاء.

ويبقى الحس القومي الذي يشد الأمة الواحدة الأساس الذي يوحد المؤمنين ويضعهم في الموضع الذي اختير لهم، حملة الرسالة ودعاة التوحيد، ويتضح هذا الحسّ عند نزول خالد بن الوليد بالحاضر ولقائه بالروم وقتله ميناس رأس الروم وأعظمهم بعد هرقل، أما أهل الحضر فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه، فقبل منهم وتركهم، ولما بلغ عمر ذلك قال: أمر خالد نفسه، يرحم الله أبا بكر هو أعلم بالرجال مني، وقال: إني لم أعزلهما عن ريبة، ولكن الناس عظموها، فخشيت أن يوكلوا إليهما فلما كان من أمره وأمر قنسرين ما كان رجع عن رأيه، وسار خالد نحو قنسرين فتحصنوا منه فقال: إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليهم أو لأنزلكم الله إلينا. فنظروا في أمرهم وذكروا ما لقي أهل حمص فصالحوه على صلح حمص[1]. فرضي بالصلح شريطة هدم حصن قنسرين، وهي دلالة تؤكد على أحكام القائد، وهو يواصل مسيرته من محاولة إزاحة كل العوامل التي قد تكون مراكز تجمع أو تحشد أو انطلاق ويبدو أن قلعة قنسرين كانت تتمتع بأهمية عسكرية بسبب تحصنها ومنعتها وقدرتها على المقاومة، أما أبو عبيدة فقد سار باتجاه حلب وقد تحصن بها خلق كثير من أهل جند قنسرين وبعد حصار شامل للمدينة صالحوه على الجزية أو الجلاء وأخيراً وبعد نقض العهد فتحت صلحاً وتقدمت جيوش التحرير وهي تحقق الإنتصار على امتداد المدن وترفع رايات القادة الذين توزعوا

---

(١) الطبري ٣/٦٠١.

فوق ربوع الشام وهم يرددون وصية الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، «لا حول ولا قوة إلا بالله، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا، نعم المولى ونعم النصير» فيكتب لهم النصر وننشر في كل مدينة يدخلونها أسباب الطمأنينة ومبادىء السماحة والقيم الإنسانية النبيلة.

ويشهد يوم أجنادين يوماً مشهوداً، كان فيه القتال شديداً كقتال اليرموك بعد أن اجتمع من الروم مائة ألف سرّب هرقل أكثرهم وتجمع الباقي من النواحي وهرقل بحمص، وكما كانت ارادة الله هي العليا في اليرموك والقادسية كانت إرادته الأقوى فكتب على الكفار الهزيمة وانهزم أرطبون وآوى إلى إيلياء كما حاول رستم أن ينهزم يوم القادسية ولكن رماح الأبطال تنوشه وتنهي بنهايته صفحة من صفحات الحقد على العرب، وقد أبلى خالد بن الوليد في هذه الوقعة بلاءً حسناً وانتهى خبر الوقعة إلى هرقل فنحب قلبه ومليء رعباً فهرب من حمص إلى إنطاكية. ولم يكن الشعر بعيداً عن تسجيل هذا اليوم ولم يكن الشعراء الفرسان الذين خاضوا معارك التحرير بعيدين عن متابعة الأحداث التي صاحبت هذه المعركة الحاسمة. فهذا زياد بن حنظلة [١]:

ونحن تركنا أرطبون مطرداً	إلى المسجد الأقصى وفيه حسور
عشية أجنادين لما تتابعوا	وقامت عليهم بالعراء نسور
عطفنا له تحت العجاج بطعنة	لها نشج نأي الشهيق غزير
فطمنا به الروم العريضة بعده	عن الشام أدنى ما هناك شطير
تولت جموع الروم تتبع أثره	تكاد من الدهر الشديد تطير
وغودر صرعى في المكر كثيرة	وعاد إليه الفل وهو حسير

ويستمر الشاعر زياد بن حنظلة في وصف معاركه مع جيش الروم فيشفى نفسه ويبرى سقمه، وهو يرى شد خيله على جموع الروم في داروم التي لم تذكر في كتب التاريخ [٢].

---

(١) ياقوت: معجم البلدان (اجنادين).

(٢) ياقوت: معجم البلدان (الداروم).

ولقـد شفـى نفسي وابـرأ سقمهـا   شــدّ الخيـــول على جمـوع الروم
يضربــن سيـــدهــم ولم يمهلهـــم   وقتلـــن فلهــــم إلــى داروم

إن صورة المعارك التي سجلت في الجناح الشرقيْ كانت تأخذ طابع الشدة والإقتتال والمجابهة الحادة، وقد أثار عنف المعارك واحتدام الصراع الذي كان له لونه التاريخي المتميز. وهو يقاوم عنجهية الدولة الساسانية التي ناصبت العداء للرسالة الإسلامية واتخذت موقفها المعادي من العرب ومن كل مظهر عربي حفيظة الشعراء وقرائحهم وهمْ يبلون البلاء الحسن ويجاهدون جهاد المؤمنين الصادقين وكان لإسلوب القتال من مدينة إلى مدينة ومن موقع إلى موقع طابع متميز دفع المقاتلين إلى اتخاذها منطلقاتْ ومراكز تحشد تمد المقاتلين بالجند وترفد الأيام الكبيرة بالقادة الذين يريدون دفة المعارك ويخططون لتحقيق النصر المؤزر وهم يقتفون آثار المشركين.

ويستجيب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لنداء أبي عبيدة وهو يطلب حضوره بعد أن طلب أهل بيت المقدس أن يكون المتولي لعقد الصلح عمر بن الخطاب فسار عن المدينة وانضم إليه عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة بالجابية حين جرى الصلح فيما بينهم. فشهد الكتاب، وبعد شهد فتح إيلياء وعند وصوله إليها دخل المسجد ثم مضى نحو باب محراب داود فقرأ سجدة داود فسجد وسجد معه من الصحابة الأخيار...

ويبدو أن طبيعة المعارك كانت تلهب حماس الشعراء الفرسان ولكن جذوة الشعر تخبو وتتبدد عندما يكون الفتح صلحاً وإلا كيف نفسر دخول المسلمين بيت المقدس ولم نجد ما يثير حفيظة الشعراء. فالشعر صوت المعركة، وأصداؤه أصداء لأحاسيس الرجال الذين حملوا إرادة الحياة ورفعوا راية الجهاد، ويرتفع صوت شاعر عربي خرج إلى أرض الروم لتوكل إليه مهمة مطاردة المنهزمين من جيش الروم حتى ينتهي إلى جسر خلطاس فحمى الروم قائدهم وتخلف وراءهم فجعل لا يبرز له أحد إلا قتله فلما رأى عبد الله بن سبرة الحرشي ذلك نزل إلى أرطبون الروم ومشى كل واحد منهما إلى صاحبه والناس ينظرون فبدره الرومي

إلى الضربة فأصاب يد ابن سبرة فقطعها فعانقه ابن سبرة واعتقله: فصرعه وقعد على صدره، فناشدهم الله أن يمسكوا عنه حتى يقتله هو بيده ويثأر منه فقتله وقال في ذلك..

ويل أم جار غداة الجسر فارقني ... أعزز عليّ به إذ بان فانصدعا

يُمني يدي غدت مني مفارقة ... لم أستطع يوم خلطاس لها تبعا

وما ظننت عليها أن أصاحبها ... لكن حرصت على أن نستريح معا

وقائل غاب عن شأني وقائلة ... هلا اجتنبت عدو الله إذ صرعا

فكيف أتركه يمشي بمنصله ... نحوي وأجبن عنه بعدما وقعا

ما كان ذلك يوم الروع من خلقي ... وان تقارب مني الموت فاكتنعا

ويل أمه فارساً ولت كتيبته ... حامي وقد ضيعوا الإحساب فارتجعا

يمشي إلى مستميت مثله بطل ... حتى إذا ما على سيفهما أمتصعا

كل ينوء بماضي الحد ذي شطب ... جلا الصياقل عن ذرّاته الطبعا

حاسيته الموت حتى استف آخره ... فما استكان لما لاقى ولا جزعا

كأن جمته هداب فحملة ... أحم أزرق لم يشمط وقد ضلعا

بنانتان وجذمور أقيم به ... صدر القناة إذا ما آنسوا فزعا

فإن يكن أرطبون الروم قطعها ... فإن فيها بحمد الله منتفعا [1]

فإن يكن أرطبون الروم قطعها ... فقد تركت بها أوصاله قطعا [2]

ولا بد أن تبقى ذكريات الأيام التي عاشها المقاتلون عالقة بأذهانهم لما رافقها من حنين وطواها من مسافات وقد شهد فتح الشام الخليفة عمر بن الخطاب فسما إليها بجنود الله فعاهدهم على الصلح بعد أن ألقت إليه الشام أفلاذ بطنها وعيشاً خصيباً ما تعد مآكله... فكان الشاعر المقاتل زياد بن حنظلة [3].

(١) ترد في بعض المصادر.. اطربون. وقيل هو البطريق.

(٢) الابيات في الوحشيات ٢٥ - ٢٦ ونسبت في الطبري ٣/٦١٢ لضريس القيس.

(٣) الطبري ٣/٦١٢ - ٦١٣.

تذكرت حرب الروم لما تطاولت ... وإذ نحن في عام كثير نزائله
وإذ نحن في أرض الحجاز وبيننا ... مسيرة شهر بينهن بلابله
وإذ أرطبون الروم يحمي بلاده ... يحاوله قرم هناك يساجله
فلما رأى الفاروق أزمان فتحها ... سما بجنود الله كيما يصاوله
فلما أحسوه وخافوا صواله ... أتوه وقالوا أنت ممن نواصله
وألقت إليه الشام أفلاذ بطنها ... وعيشاً خصيباً ما تعدُ مآكله
أباح لنا ما بين شرق ومغرب ... مواريث أعقاب نبتها قرامله
وكم مثقل لم يضطلع باحتماله ... تحمل عبئاً حين شالت شوائله

وتأخذ زيارة عمر إلى الشام وبيت المقدس صداها في حديث الشعراء لما أثارته في نفوسهم من اعتزاز وهم يجدون خليفة الرسول الكريم يدخل هذه المدن وقد حف به القادة الأخيار وارتفعت فوق هذه الربوع راية الإسلام عالية وتوزع الفرسان في كل طرف من أطراف الشام وهم يطاردون فلول المشركين ويخوضون معارك الشرف والجهاد . أنها صوت آخر من أصوات الشاعر زياد بن حنظلة [1]

سما عمر لما أتته رسائل ... كأصيد يحمي صرمة الحي أغيدا
وقد عضلت بالشام أرض بأهلها ... تريد من الأقوام من كان أنجدا
فلما أتاه ما أتاه أجابهم ... بجيش ترى منه الشبائك سجدا
وأقبلت الشام العريضة بالذي ... أراد أبو حفص وأزكى وأزيدا
فقسّط فيما بينهم كل جزية ... وكل رفاد كان أهنا وأحمدا

من الطبيعي أن يكون الشعر قاصراً على متابعة الأحداث الكبيرة، وغير قادر على تغطية الرقعة الواسعة التي انتشرت فيها قيادات الجيش العربي وهو يقف على أرض صلبة من الإنتصارات ويخطط لتحرير الإنسان الذي وجد في نفسه استجابة كبيرة لما كانت تحمله سياسة التعامل السمحاء ، وتنشرها الوسائل الكفيلة

(١) الطبري ٣/٦١٣.

بتحرير النفس من عبودية الإسترقاق ورفعه إلى المصاف الإنساني الذي يمكن أن يحققه له الإسلام.. ومن هنا كانت قصائد الشعراء أو مقطعاتهم تبتعد عن تسجيل كثير من هذه الدقائق لأسباب عرضنا لها وأسباب أخرى يمكن أن تظل مدعاة للتساؤل ومجالاً لتعليلات يجتهد في تفسيرها المؤرخون والنقاد. ولكن النتيجة هي ما وقفنا عليه ووقف عليها غيرنا من الدارسين وهم يجدون هذا الإنسياح السريع والامتداد الذي بدأت تخترق جموعه هذه الأرض لتستقر أعداده في المدن والمراكز المحصنة وتنزل المرابع التي لم يدخلوها من قبل في زمن قصير وقدرات عسكرية محدودة.

إن هذه الحالة تضع الدارسين أمام إعتبارات تؤكد عزم العرب وحرصهم على الإحتفاظ بقواعد قوية ومراكز محصنه يمكن اعتمادها مواقع تحشد وأماكن إنطلاقه وأن هذا التوجه دفعهم إلى الإستيلاء على الحصون المنيعة قبل تجاوزها وتأمين الحماية للقوات المتقدمة والحرص على عدم ترك مجاميع من قوات الروم يمكن أن تشكل خطراً على القوات المتقدمة، وقد دفعهم هذا الهدف إلى الإستبسال في إزاحة القواعد القوية والمحصنة التي يخشى الإحتفاظ بها أو التحصن بها أو الإعتصام بحصونها أو قلاعها.

وكان الهدف من هذا الإكتساح هدفاً أساسياً وتوجهاً مركزياً خططت له القيادة الحكيمة التي كانت تأتمر بأمر الخليفة الراشد أبي بكر رضي الله عنه وعمر ابن الخطاب رضي الله عنه من بعده، وأن هذه القوة التي أدركت مهمتها واستوعبت الدور القيادي المترتب عليها كانت تعلم حجم الآمال الكبيرة التي تعقد على تقدمها وتبني على توسيع رقعتها لما يتركه هذا الأثر من تضييق الخناق على البيزنطيين وحصرهم في مناطق محدودة ووضعهم في المواضع التي تختارها القيادة لشل إرادتهم وإيقاف تحركهم وتحجيم دورهم في تقديم أي عون لمناطق محصورة.. وفي الطرف المقابل من المعادلة كانت القيادة العربية حريصة على المقاتل العربي وكانت حساباتها العسكرية ودراستها الواقعية لطبيعة المعارك تتحكم في تقديم العدد المناسب من المقاتلين إبقاءً على العنصر العربي وحفاظاً عليه

في وقت كانت الحاجة إليه ماسة، والزج به في معركة غير مضمونة يفقدهم عناصر ليس من السهل التفريط بها، وكانت هذه القيادة حريصة على العنصر العربي الموجود في بلاد الشام الذي عومل معاملة العرب وأسقطت عنه الجزية بعد أن أكد عروبته.. وقد استخدم القادة أساليب عسكرية بارعة أكدوا فيها قدرتهم في معظم المعارك وأخذهم مبدأ المبادأة في كل هجوم وبقيت المبادأة من خصائص القيادة العربية التي كانت بارعة في تحديد أساليب القتال وزمان ومكان المعركة ووضع الخصوم في المواضع التي يختارونها لهم وقد تحقق هذا الأسلوب من خلال الإنتصارات الكثيرة التي كانت تشهدها ميادين القتال وتفرضها صولات المقاتلين عندما يجدون المباغتة لازمة، والهجوم على شكل دفعات ضرورياً، والإلتفاف على الخصوم يفشل خططه في التقدم، والتحرك السريع كان يعطيهم فرصة لإفشال المحاولات التي تحاولها والإجهاز عليها قبل أن تتمكن من الوصول إلى أهدافها..

ليس من السهل أن تتحقق الإنتصارات الكبيرة التي سجلها القادة العرب إذا لم تكن هناك كفاءة متميزة في الأداء القتالي والتخطيط المحسوب في اتخاذ القرار والإحسان في تدبير الأمور والحفاظ على العلاقة الإنسانية التي تشد بين المقاتلين والقيادة والشجاعة في مواجهة المواقف الصعبة والصبر عند اشتداد المعارك والتوفيق في إختيار القادة الذين أثبتوا حسن بلائهم في إدارة دفة الأحداث والإلتزام بالإنضباط والأوامر التي تراها مركزية القيادة المتمثلة في الخليفة وهو يوجه الجيوش ويوزع المقاتلين ويستمع لأخبار الفتوح من القادة أنفسهم أحياناً ومن الرسل الذين يبعثون بهم عند اشتداد الأمر أو اتخاذ المواقف أو احتياج النجدات أو الإقدام على أعمال لم يسبق لهم أن اتفقوا عليها مع القيادة المتمثلة في الخليفة. إن هذه الحالة كانت تتحقق عندما يصبح التصميم على إنجاز المهمة هو الهدف المركزي والتشاور في اتخاذ المواقف هو الأسلوب العملي التي تتمخض عنه النتائج الجماعية وأن هذا التدريب كان يخلق القيادات الكفوءة ويبرز القدرات المتميزة ويحدد الرجال الذين يتمكنون من امتلاك ناصية المجد والبطولة.

ويبقى الإيمان بالمبادىء والعمل من أجل الرسالة التي حملها العرب والثقة المطلقة بالقيادة المركزية هو الصورة الماثلة لكل المقاتلين وهم يؤدون الواجب ويتحملون المسؤولية ويلتزمون بكل أمل تصدره القيادة ويأتمرون بكل توجيه يتخذه القائد وفي التغييرات القيادية التي شهدتها أرض الشام والعراق ما يدل على هذا الإلتزام المنضبط.

ويظل العامل المعنوي الذي كان يملأ نفوس المقاتلين ويوثق قدرتهم بالجهاد يدفعهم إلى التفاني من أجل الخلود الذي وعد به المؤمنون والمجاهدون في جنات النعيم هو العامل الحاسم في كل المعارك وهو العنصر الأساس في التحكم في النتائج التي كانت تنتهي إليها.

ولا بد أن تكون العوامل الأخرى التي كانت تضعف البيزنطيين بسبب الإستجابة السريعة التي كانت تواجهها قوات الفاتحين من العرب وهي تدخل المدن صلحاً أو اتفاقاً وسياسة التسامح الذي كان يجدها هؤلاء المغلوبون وهم يعلنون مواقفهم من الدعوة إسلاماً أو يدفعون الجزية. ونتيجة للإضطهاد الذي كانت تمارسه السلطة القيصرية وانهيار المعنويات التي كانت تعاني منه جيوشهم وهي تواجه جيشاً مؤمناً وقادة لم يعرفوا إلا عقيدة التوحيد مبدأ وصوت الله أكبر الذي كان يملأ أطراف البوادي هو الصوت الذي يتردد في كل جنبات الأرض والإيمان بأن محمداً رسول الله هي الكلمة التي تتجاوب في دواخلهم.

إن هذه العوامل مجتمعة كانت تعطي جيوش الفاتحين القدرة على اجتياح جيوش البيزنطيين واكتساح المدن التي وجدوا فيها حصوناً وقلاعاً لتتحول أمامهم بكل جبروتها وقوتها إلى مدن مفتوحة وأبواب مشرعة ومواكب من الناس يزرع في قلوبهم حب الإيمان ويغرس في نفوسهم صوت الثقة بالحياة فيأمنون على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمهم وبريئهم. ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحدمنهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. إنها الوجه الإنساني للتسامح الذي كان القاعدة الأساسية لكل الذين

يريدون أن يدخلوا في دين الله وينزعوا عن أنفسهم الغل والحقد ويواطنوا أنفسهم للحياة الجديدة التي بشر بها القرآن الكريم ودعا إليها الرسول الكريم وحمل أمانتها الصحابة الأحرار وهم يرفعون راية التوحيد ويبشرون بالمبادىء السمحة.

ولم تكن ساحة الحرب واحدة وجهة القتال مقتصرة على جانب واحد وإنما كان الخليفة يباشر إدارة دفة الحرب من المدينة ويوزع القادة ويبعث الجند ويتابع الحركات وفق مقتضيات الحاجة ودواعي المطاليب التي تفرضها وإذا كانت معارك اليرموك قد استمرت في مطاردة البيزنطيين فإن المعارك الأخرى التي ختمت القادسية صفحة منها ما تزال تتأجج في المناطق الأخرى محاولة إيقاف حركة التحرير التي بدأت تكتسح المدن وهي تتساقط الواحدة تلو الأخرى فهذا سعد يخاطب الخليفة عمر ويخبره بالواقع الذي أصبحت عليه جيوشه بعد القادسية « فلم يأتهم أحد لقتال، وقد بث الخيول وجمع الفلاحين من القرى والآجام ويسأله الرأي » ومن المدينة المنورة يجيب أمير المؤمنين « إن من أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين لم يعينوا عليكم فهو أمانهم ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به » والتزاماً بأمر الخليفة، خلّى عنهم وأرسله الدهاقون فدعاهم إلى الإسلام والرجوع أو الجزاء ولهم الذمة والمنعة فتراجعوا إلى الجزاء والمنعة فلم يبق في غربي دجلة إلى أرض العرب سوادي إلا آمن واغتبط بملك الإسلام [١] وأقام سعد وجنده على بهر سير شهرين يرمونها بالمجانيق ويدبون إليهم بالدبابات ويقاتلونهم بكل عدة [٢] وقيل إن سعداً نصب على أهل بهر سير عشرين منجنيقاً فشغلوهم بها [٣].

ولما نزل سعد بهر سير وهي المدينة الدنيا طلب السفن ليعبر بالناس إلى المدينة القصوى، فلم يقدر على شيء ووجدهم قد ضمّوا السفن ولما لم يجد بدأ من العبور

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٥/٤.

(٢) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ٦/٤.

(٣) نفس المصدر.

جمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال «إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلصون إليه معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فيناوشونكم في سفنهم. وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه، فقد كفاكموهم أهل الأيام وعطلوا ثغورهم، وأفنوا ذادتهم، وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا، إلا أني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرشد فأفعل[١]..

وتأخذ حكاية سعد بعدها في الذاكرة البشرية التي حفظت للقادة مواقفهم وسجلت بطولاتهم التي أصبحت رمزاً لكل عمل بطولي فريد وتضحية نادرة فالإشارة التي يجدها القائد حافزاً ليضع المقاتلين إزاء الموت غرقاً أو الهلاك عطشاً أو جوعاً أو النصر المؤزر بإقتحام العدو تعد المعادلة الصعبة في الموقف العسكري واتخاذ القرار وتجعل الجيش بين موقفين لا خيار لها في موقف ثالث. وهي تراث عربي عريق وجدناه عند سيف بن ذي يزن البطل العربي الذي طرد المحتلين من الجنوب العربي بعد أن نزل على الساحل وأحرق السفن، وأمر بما كان معهم من فضل كسوة فأحرق، ولم يدع منه إلا ما كان على أجسادهم ثم دعا بكل زاد معهم فقال لأصحابه، كلوا هذا الزاد فأكلوه فلما انتهوا أمر بفضله فألقي في البحر ثم قال خطبته المشهورة[٢].. نقاتل معك حتى الموت عن آخرنا أو نظفر. وعندما وقف سعد بن معاذ أمام الرسول ﷺ وهو يشاور الأنصار قال قولته المشهورة.. والله لكأنك تريدنا يا رسول الله قال: أجل. قال: فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق.. فوالذي بعثك بالحق. إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء[٣].

(١) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ٤/٩.
(٢) الطبري تاريخ الرسل والملوك ٣/١٤٥.
(٣) الطبري ٢٠/٤٣٥.

فعبور المسلمين لم يكن حالة معتادة أو عبوراً لنزهة وإنما كان حسماً لمعركة وتنفيذاً لأمر وتهيئاً لمنازلة. وإذا كان انتداب سعد لعاصم بن عمرو ذي البأس تأكيداً لبطولة هذا الفارس فإن الأبيات الشعرية التي حدد فيها طبيعة المعركة والوسائل المستخدمة وروح القتال التي باشروا بها الأعداء كانت الصورة الحقيقية لطبيعة المباشرة التي تناولها الفارس الشاعر عاصم حيث يقول[1]:

شهدنا بعون الله أفضل مشهد	بأكرم من يقوى على كل موكب
ركبنا على الجرد الجياد سوابحا	بكل قناة بل بكل مقضب
وكنا بعون الله لا نرعوي إذا	تبادر طعن كالحمام المثلب
وكان جهاد قد ملكنا بأمره	من الملك مستعلي البناء المذهب
ترانا وأنا في الحروب أسودها	لنا العزم لا يخفي بكل مجرب
نجول ونحمي والرماح شوارع	ونطعن يوم الحرب كل مجنب
قدمنا على كسرى بشدة حربنا	وما حربنا في الغائبات بمختبي

وكما كتب النصر لسيف بن ذي يزن وهو يطرد المحتلين عن أرضه، وكتب النصر لرسول الله وهو يدعو الناس إلى دين الحق فقد كتب النصر لسعد بعد أن اقتحموا على الأعاجم دجلة بخيولهم وقال لهم قولوا نستعين بالله ونتوكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فركبوا اللجة وأن دجلة لترمي بالزبد وأن الناس ليتحدثون في عومهم وقد اقتربوا ما يكترثون كما يتحدثون في مسيرهم على الأرض ففاجأوا أهل فارس بأمر لم يكن في حسابهم.. وفي ذلك يقول أبو نجيد نافع بن الأزرق[2]:

وأرسلنا على المدائن خيلاً	بحرها مثل برهن أريضا
فانتثلنا خزائن المرء كسرى	يوم ولوا وحاص منا جريضا

---

(١) شاعران من فرسان القادسية /٢٤٣.

(٢) الطبري ٤/١٠ وينظر شعر أبي نجيد في مجلة المورد العدد الأول - المجلد الحادي عشر سنة ١٩٨٢.

وسمي هذا اليوم يوم الماء [1]

ويكتب للخليفة بفتح جلولاء وبنزول القعقاع حلوان وإستئذانه في إتباعهم فيأبى عمر رضي الله عنه الفكرة ويكتب إليه.. لوددّت أن بين السواد وبين الجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم وحسبنا من الريف السواد [2] وتتجلى قيمة المقاتل في نظر القائد وهو يعقب على رسالة سعد فيقول « إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال » وهي تعكس القيمة العليا التي يتمتع بها المقاتل في وقت تكون الحاجة إليه كبيرة والتضحية به ليست هينة والحرص على حياته له دلالته في خطط الحرب والإعداد لها والتهيؤ لمجابهة الخصم. وكان عمر بن الخطاب يسمي أرض العراق أرض العرب ومنع بيعها إلا من أهلها الذين أفاء الله عليهم وهي الأرض المحصورة بين الجبل إلى الجبل [3]. ولما بعث هاشم بن عتبة القعقاع في آثار القوم أدرك مهران بخانقين فقتله وأدرك الفيرزان فنزل وصعد إلى الروابي الصغيرة وترك سبيل فرسه وأصاب القعقاع سبايا ونسب إلى جلولاء وفي هذا اليوم يقول هاشم بن عتبة [4]:

يوم جلولاء ويوم رستم ... ويوم زحف الكوفة المقدم

ويوم عرض النهر المحرم ... من بين أيام خلون صرم

شيبن أصداغي فهن هرم ... مثل ثغام البلد المحرم

وقال أبو نجيد [5]:

ويوم جلولاء الوقيعة أصبحت ... كتائبنا تردى بأسد عوابس

---

(1) الطبري ٤/١٣.

(2) الطبري ٤/٢٨ وتتردد المقولة عندما يكتب الأحنف إلى الخليفة عمر بفتح خراسان حيث يقول: لوددت إني لم اكن بعثت إليها جنداً، لوددت أنه كان بيننا وبينها بحر من نار (الطبري ٤/١٦٨) وتأتي مرة ثالثة في الطبري ٤/٧٩.

(3) الطبري ٤/٣١ (المقصود بالأرض بين الجبلين حلوان والقادسية).

(4) الطبري ٤/٣٣.

(5) الطبري ٤/٣٤.

ففضّت جموعَ الفـرس ثم أممتهـم فتبـاً لأجسـاد المجـوس النجـائس
وأفلتهـــن الفيرزان بجرعـــة ومهران أردت يـوم حـز القـوانس
أقـامـوا بـدار للمنيـة مـوعـد وللترب تحثوهـا خجوجُ الروامس

وكانت أصوات الفرسان تتعالى في سماء المعركة ! وهي تحض المقاتلين على الصبر والمجالدة إلتماساً لإحدى الحسنيين أما الشهادة فثوابها الجنة ، وأما النصر والظفر ففيهما الغنى وتدفعهم إلى أن يكون القتال لوجه الله بعد أن عرفوا أساليب قتالهم وخصائص سلامتهم والكيفية التي يدفعون بها عنهم بالتترس عند الرمي والإلتزام بالصبر . وفي يوم جلولاء يقول جرير البجلي[1] :

تلكم بجيلة قـومـي إن سـألـت بها قـادوا الجيـاد وفضـوا جمع مهـران
وأدركوا الوتر مـن كسرى ومعشره يـوم العـروبـة وتـر الحي شيبـان
فسائـل الجمـع جمع الفـارسي وقـد حاولت عند ركـوب الحي قحطـان
عز الأولى كان عزاً من يصـول بهم ورميـه كـان فيهـا هلـك شيطـان
كان الكفور وبئس الفـرس أن لـه أبـــاء صـــدق نموه غير ثبيـــان

فحمل جرير بن عبد الله على جمع أهل جلولاء فلم يزل يطاعن حتى انكسر رمحه وجرح جراحات كثيرة فأنشأ بعض بني عمه يقول في ذلك[2] :

تـواكلـت الأمـــور فلم تـــواكـــل أخـو النجـدات فـارسهـا جـريـر
جـــريـــر ذو الغنـــي وبما تـــولى أحـــق إذا تقسّمـــت الأمـــور
أغـاث المسلمـون وقـد تـواصـوا وقـــدر الحرب حـــاميـــة تفـــور
أبـــا حفـــص ســـلام الله منـــا عليـك ودوننـا بلـــد شطيـــر

وجال زهير بن عبد شمس في ميدان الحرب ساعة وهو يرتجز ويقول[3] :

أنـا زهيـــر وابـــن عبـد شمس طعنـت ذا التـاج رئيس الفـرس

(١) ابن أعثم الفتوح ١/٢٧٤ .
(٢) ابن أعثم الفتوح ١/٢٧٤ .
(٣) ابن أعثم. الفتوح ١/٢٧٥ .

رستـــم ذا الثـــروة والدمقـــس فقـد شفيـت اليـوم منـه نفسي

وكان عمر رضي الله عنه كتب إلى سعد: إن فتح الله عليكم جلولاء فسرح القعقاع بن عمرو في آثار القوم حتى ينزل بحلوان فيكون ردء للمسلمين ويحرز الله سوادكم[١] ولما رجع هاشم بن عتبة من جلولاء إلى المدائن كتب سعد إلى الخليفة عمر، أن آذين بن الهرمزان قد جمع جمعاً فخرج بهم إلى السهل فكتب إليه عمر: إبعث إليهم ضرار بن الخطاب في جند واجعل على مقدمته ابن الهذيل الأسدي وعلى مجنبتيه عبد الله بن وهب الراسبي خليف بجيلة والمضِارب بن فلان العجلي[٢]، وكانت الجزيرة أسهل البلدان أمراً وأيسره فتحاً بعد أن أصبح أهلها بين العراق والشام وكلاهما بيد المسلمين فأذعنوا بالطاعة.. قال عياض بن غنم[٣]

مـن مبلـغ الأقـوام أن جُمـوعنـا حـوت الجزيـرة يـوم ذات زحـام
جمعـوا الجزيـرة والغيـاث فنفسـوا عمـن بحمـص غيـابـة القُـدّام
أن الأعـــزة والأكـــارم معشر فضـوا الجزيـرة عـن فـراخ الهام
غلبوا الملوك على الجزيـرة فـانتهـوا عـن غـزو مـن يـأوي بلاد الشـام

ولم يبتعد الشعراء عن الأحداث الكبيرة التي رافقت الفتوح أو أثارت المتاعب لجيش الفتح وخاصة أحداث طاعون عمواس فتفانى فيها الناس فتوفي أبو عبيدة ابن الجراح وهو أمير الناس ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان والحارث بن هشام وأعداد أخرى وقيل أن الحارث بن هشام خرج في سبعين من أهل بيته فلم يرجع منهم إلا أربعة فقال المهاجر خالد بن الوليد[٤]:

مـن يسكـن الشـام يعـرس بـه والشـــام إن لم يفننـــا كـــارب
أفنـى بني ريطـــة فـــرســـانهم عشرون لم يقصـــص لهم شـــارب

---

(١) الطبري ٤/٣٤.
(٢) الطبري ٤/٣٧.
(٣) الطبري ٤/٥٤ ـ ٥٥ وياقوت ٢/٧٤.
(٤) الطبري ٤/٦٥.

ومـــن بني أعمامهـــم مثلهـــم لمثــل هــذا عجــب العــاجــب
طعنــاً وطــاعــونــاً منــايــاهــم ذلــك مــا خــط لنــا الكــاتــب

ومثل ما ارتفع صوت جرير بن عبد الله البجلي فقد ارتفع صوت شاعر آخر هو عمرو بن معد يكرب فقال: يا هؤلاء إنكم إنما تقاتلون عن دينكم وتذبون عن حريمكم وتدفعون عن حوزة الإسلام فضعوا خيولكم بعضها إلى بعض، وانزلوا عنها والزموا الأرض واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا فإنكم بحمد الله صبراء في اللقاء ليوث عند الوغى وهذا يوم كبعض أيامكم التي سلفت ووالله أني لأرجو أن يعز الله بكم دينه. ويكبت بكم عدوه فتقدم وهو يقول[1]:

لقـد علمـت إقبـال مـدحـج إنني أنا الفارس الحامي إذا القوم أضجروا
صبـرت لأهـل القــادسيــة معلماً ومثلـي إذا لم تصبـر الناس يصبـر
طـاعنتهـم بـالـرمـح حتى تبـددوا وضاربتهـم بـالسيـف حتى تكسروا
بـذلــك أوصــاني أبي وأبــو أبي بـذلــك أوصــاه فلســت أقصر
حمدت إلهي إذ هــداني لــدينــه فلله أسعـى مـا حييـت وأشكــر

ولم ينس المقاتلون أبطالهم الذين استشهدوا في المعارك السابقة. فيترحمون عليهم ويتمنون أنهم لو كانا أحياء لتقر عيونهم بالفتح وفي أبيات عبيد بن عمرو البلجي يستذكر المثنى بن حارثة الشيباني الذي كان يود أن يرى فتح جلولاء ولو قبل موته بيوم واحد[2]:

أبشر مثنى فقـد لاحقـت مكـرمـة يـوم التغـابـن لما ثـوب الداعـي
سل أهل ذي الكفر مهرانا وأسرتـه يـوم البجيلـة إذ خلـوا عـن القـاع
وأسلمــوا ثم مهــرانــا ببلقعــة يـوم العـروبـة مطـروحـا بجعجـاع
وفي جلولاء أثـرنـا كـل ذي بـدع بكـل صــاف كلــون الملــح لماع
في كف كل كـريم الجد ذو حسـب حــامــي الحقيقــة للأواء دفــاع

(١) ابن أعثم. الكوفي ١/٢٧٧ وأخل به الديوان.
(٢) ابن أعثم. الكوفي ١/٢٧٨.

وكتب سلمى وحرملة وغالب وكليب ببغي الهرمزان وظلمه وكفره إلى عتبة ابن غزوان فكتب بذلك إلى عمر رضي الله عنه فكتب إليه يأمره بأمره وأمدّه بحرقوص بن زهير السعدي وكانت له صحبة من رسول الله ﷺ وأمره على القتال وعلى ما غلبه عليه. فهذا الهرمزان بمن معه وسلمى وحرملة وغالب وكليب حتى إذا انتهوا إلى جسر سوق الأهواز أرسلوا إلى الهرمزان. إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم. فقال: أعبروا إلينا، فعبروا فوق الجسر، فاقتتلوا فوق الجسر مما يلي سوق الأهواز حتى هزم الهرمزان ووجه نحو رامهرمز. وافتتح حرقوص سوق الأهواز فأقام بها ونزل الجبل واتسقت له بلاد سوق الأهواز إلى تستر وكتب بالفتح والأخماس إلى عمر، ووفد وفداً بذلك فحمد الله ودعا له بالثبات والزيادة ولم يفت هذا الفتح الأسود بن سريع وكانت له صحبة فوقف عنده وقفة المؤمن الطائع وهو يجابه المشرك العاصي وتحدث بمشاعر المقاتلين الذين اندفعوا للجهاد بقلوب عامرة ونفوس مطمئنة وسواعد قوية وإخلاص صادق فكان النصر حليفهم والهزيمة لأعدائهم بعد أن تركوا الأرض ومن عليها [1].

لعمرك ما أضاع بنو أبينا ... ولكن حافظوا فيمن يطيعوا
أطاعوا ربهم وعصاه قوم ... أضاعوا أمره فيمن يضيع
مجوس لا ينهنهها كتاب ... فلاقوا كبة فيها قبوع
وولى الهرمزان على جواد ... سريع الشد يثفنه الجميع
وخلى سرة الأهواز كرهاً ... غداة الجسر إذ نجم الربيع

ومثل ما وقف هذا الصحابي الجليل عند هذا الفتح وقف حرقوص الصحابي الجليل يفخر بهذا النصر الذي أذل به الهرمزان فقال [2]:

غلبنا الهرمزان على بلاد ... لها في كل ناحية ذخائر

---

(١) الطبري ٤/٧٦.

(٢) الطبري ٤/٧٧.

سواء برهم والبحر فيها إذا صارت نواجبها بواكر
لها بحر يعج بجانبيه جعافر لا يزال لها زواخر

والشعر في هذه المرحلة ـ شأنه في المراحل السابقة ـ تعبير وجداني مباشر وصوت قريب من إحساس المقاتلين وهم يقفعون على مقربة من الحدث ويسجلون اللحظات التي ترافقه والحالات التي تواكب النهاية وكثيراً ما يكون القادة الذين يقدون هذه المعارك هم الذين يباشرون التعبير ويسجلون الحدث ويوجهون الآخرين لما بدا لهم مقبولاً في حسم المعركة ، محددين فيها الوجهة التي يرون أسبابها مقبولة وعناصرها فاعلة في الحسم. ومن الطبيعي أن يكون المقاتلون لهم قصائدهم ومقطعاتهم ولكنها ظلت بعيدة عن التناول لأنها قريبة إلى أحاديث المقاتلين ولصيقة بمشاعرهم التي كانت أكثر قرباً لمجريات الوقائع وأكثر تعبيراً عن دقائق الأحداث المباشرة وفيها من الصور والتعابير ـ لو وصلت إلينا ـ لقدمت لنا مادة وفيرة.

ويأخذ هذا الضرب الشعري ـ مثل ما ذكرنا في النماذج السابقة ـ المباشرة في التعبير والبعد عن المبالغة والصدق في الاحساس. والقرب في تكشيف الوقائع بما يعزز ثقتها. والتأكيد على ذكر الأسماء تحقيقاً للتوثيق التاريخي ولا بد أن تبعد هذه الخصائص النص عن الفنية التعبيرية التي تعتمد البناء التصويري واختيار الألفاظ والتمهيد الذي يوحي للقارىء بتوجه الشاعر والتأنق الفني الذي يعطي اللفظة دلالة التواصل أو قدرة التركيب أو وحدة المجانسة.

إن هذه الخصائص التي نقف عندها أحيانا تكشف لنا عن الخط البياني الواحد الذي يبقي الصلة القريبة لشد هذه المقطعات وإن تفاوتت بيئات المعارك، واختلفت قدرة الشعراء وتباينت نظراتهم لطبيعتها. أنها الصورة الكبيرة التي تحتوي هذا الضرب الشعري وهي خصيصة تقرب لنا البعد الواقعي لشعر الحرب عند العرب في هذه الفترة لأن هذا الشعر أصبحت له مقومات أخرى جديدة تختلف عن هذه المقومات بعد انتقال الشعراء لمراحل الإستقرار وإختلاف

أساليب القتال وطبيعة المواجهة الحربية وترسيخ المبادىء التي كانت تتحكم في إدارة دفة المعركة والقدرات القتالية التي أصبحت قريبة ومهيئة وقد انعكست هذه الظواهر بشكل واضح وكانت نتائجها جلية في الإمتداد السريع وإحكام بناء القواعد واتخاذ الحصون وتأمين الثغور.

وفي الأخبار التي تواجهنا ونحن نتابع سير المقاتلين تبدو أحداث كثيرة تؤكد الترابط الوثيق بين القيادة العليا للدولة والقيادات العسكرية الموزعة على طول جبهات القتال وسرعة المناورة في نقل الأعداد المطلوبة ومراكز التحشدات التي كانت الكوفة والبصرة تمثل قاعدتين كبيرتين لاستقبال الأعداد القادمة من أطراف الجزيرة والقبائل المشاركة. والمعرفة الدقيقة بالمواقع الجغرافية والميدانية للعدو والطريق التي يمكن أن تستخدم لتحريرها أو احتلالها ويتجلى هذا في الخطوط العسكرية التي تتخذها قوافل المجاهدين أو تأتمر بها إلتزاماً بأمر الخليفة الراشد. فعندما افتتح حرقوص بن زهير سوق الأهواز أقام بها وبعث جزء بن معاوية في أثر الهرمزان لما انهزم بأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه. إلى سُرَّق، وعندما انتهى إلى قرية الشخر مال جزء إلى (دورق) من هذه القرية فأخذها صافية وكتب إلى عمر بذلك وإلى عتبة ودعائه من هرب إلى الجزاء والمنعة وإجابتهم إلى ذلك فكتب عمر إلى جزء بن معاوية وإلى حرقوص بن زهير بلزوم ما غلبا عليه بالمقام حتى يأتيها أمره. وكتب إليه مع عتبة بذلك ففعلا واستأذن جزء في عمران بلاده عمر فأذن له فشق الأنهار وعمر الموات[1] وتلازم توجيهات الخليفة من ينظر في أمر تعينهم وخاصة عندما تكون الدولة في حالة حرب مستمرة كما هو الحال بالنسبة لدولة الإسلام فعندها استعمل أبو بكر بن العلاء الحضرمي على البحرين أذن له في قتال أهل الردة وحين استعمله عمر نهاه عن البحر[2].

وبروح الإندفاع والإيمان وسلامة الطوية والإخلاص للمبدأ ينـدفـع بعـض

---

(١) الطبري ٤/٧٧.

(٢) الطبري ٤/٧٩.

القادة محاولين تحقيق النصر ولكن دائرة التحرك الصغيرة التي تكتمل حلقاتها في ذهنهم لا تترك لهم فرصة الخيار لتجاوزها، ولا تعطيهم فرصة الإبتعاد عنها وهي التي كان ينظر من خلالها الخليفة ويقدر موقفها العام ويدرك العوامل المؤثرة في التوجه العام للمعركة، فعلى الرغم من تحذير عمر للعلاء الحضرمي من ركوب البحر - (وهو لا يأذن لأحد ركوبه غازياً، ويكره التغرير بجنده إستناناً بالنبي ﷺ وبأبي بكر رضي الله عنه) فأنه لم يقدر على الطاعة والمعصية وعواقبها فندب أهل البحرين إلى فارس فتسرعوا إلى ذلك وفرقهم منهم أجناداً وحملهم في البحر إلى فارس بغير إذن عمر. فعبرت تلك الجنود من البحرين إلى فارس فخرجوا في إصطخر وبإزائهم أهل فارس فاجتمعوا عليهم وحالوا بين المسلمين وبين سفنهم. ولم يجد المسلمون بداً من المواجهة والتفاني والإيمان بالمقادير المقدرة والإستعانة بالصبر والصلاة فناهدوا المشركين واقتتلوا قتالاً شديداً في موضع من الأرض يدعى طاوس وكان للشعر دوره وللرجّاز يوم مشهود وهم يثيرون عزائم الرجال ويستذكرون الوقائع، ويذكرون بالأمجاد فالسوار وهو قائد مجموعة يرتجز ويذكر قومه ويقول[1]:

يا آل عبد القيس للقراع ... قد حفل الأمداد بالجراع[2]

وكلهم في سنن المصاع[3] ... يحسن ضرب القوم بالقطاع

حتى قتل.

وجعل الجارود وهو آمر مجموعة أخرى يرتجز ويقول:

لو كان شيئاً أكلته ... أو كان ماء سادماً جهرته[4]

لكن بحراً جاءنا أنكرته

---

(١) الطبري ٤/٨٠.

(٢) الجراع: جمع جرعة وهي الرملة الطيبة.

(٣) المصاع: المجالدة والمضاربة.

(٤) الماء الساءم: المتغير، وجهرته: عرفته وكشفته.

حتى قتل

وجعل خليد يومئذ يرتجز ويقول:

يــال تميــم اجمعــوا النــزول   وكــان جيــش عمــر يــزول
وكلكم يعلم ما أقــول

إنها الملحمة التي جسدها الرجال، والمعركة التي استثارت فيهم نوازع الدفاع المستميت والقتال المرير والمواجهة التي لا خيار لهم فيها والتضحية التي لا تضحية تقرب منها. فكان للشعر دوره وكانت المقتلة العظيمة التي لم يقتل الفرس مثلها من قبل، ولكنهم عندما خرجوا يريدون البصرة لم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلاً بعد أن غرقت سفنهم، وقيل لم يجدوها ثم وجدوا (شهرك) قد أخذ على المسلمين بالطرق فعسكروا وامتنعوا في نشوبهم ولما بلغ عمر ما صنع العلاء من بعثه ذلك الجيش في البحر ألقي في روعه نحو من الذي كان، فأشتد غضبه على العلاء وكتب إليه يعزله وتوعده، وطلب منه أن يلحق بسعد بن أبي وقاص [1] وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان يندب الناس إليهم وضمهم إلى جموعهم فانتدب منهم نخبة من القادة فخرجوا في إثني عشر ألفاً على البغال يجنبون الخيل وعليهم أبي سبرة بن أبي رهم حتى التقى بخليد ثم أخذوا عليهم الطرق بطاوس فكانت معركة أخرى ذاق فيهـا المشركـون مـرارة الهزيمة وتجرعـوا غصـص الخذلان والإنكسار ففتح الله على المسلمين وهي الغزاة التي شرفت فيها نابتة البصرة، وكانوا أفضل نوابت الأمصار، فكانوا أفضل المصرين نابتة، وفي تخليد هذا الإنتصار يقول خليد بن المنذر [2]

بطـاووس ذاهبنـا الملـوك وجيلنـا   عشيـة شهـراك علـون الرواسيـا
أطاحت جموع الفرس من رأس حالق   تـراه كمـوار السحـاب منـاغيـا
فلا يبعـدن الله قـومـاً تتـابعـوا   فقد خضّبـوا يـوم اللقـاء العواليـا

(١) الطبري ٤/ ٨١.

(٢) ياقوت معجم البلدان ٣/ (طاووس).

إنها صورة الحرب الشعرية التي يتحدث بها المقاتل المنتصر وصورة الفخر المؤزر الذي ترسمه العبارة المؤمنة وهي تعلو الرواسي وتطيح بجموع الفرس من كل مرتفع تحاول الإعتصام به، وحصن تروم الاختفاء فيه وتكتب للرجال الأماجد الذين تتابعوا وفاء لنداء الرسالة، والتزاماً بأحقية الجهاد وإكراما لنداء الخليفة الذي يحرص على نفوس المؤمنين ويعز عليه أن يكونوا في موضع الضعف، يكتب لهؤلاء أن تخضب عواليهم بـدمـاء المشركين الذيـن يـرفضـون التوحيد، يجاهرون بعدائهم لحملة الرسالة السماوية، إنها الصورة التي تقرأ في كل القصائد وتنقل في معظم الأبيات وتسجل في كل المعارك الحاسمة والخالدة.

ولم يمنع اشتداد المعارك وزحام المشاغل وانصراف الناس لأمور الحرب الممتدة على طول الساحة من مراقبة الناس والوقوف على من يخرج على شريعة المسلمين وبقي الشعر قريباً من تصوير هذه الأحداث والتعبير عن الإحساس الذي كان يحسه هؤلاء وهم يقارفون إثماً ويصيبون شراباً، فقد كتب أبو عبيدة إلى عمر أن نفراً من المسلمين أصابوا الشراب منهم ضرار وأبو جندل فسألناهم فتأولوا وقالوا خيرنا فاخترنا قال «فهل أنتم منتهون» ولم يعزم علينا. فكتب إليه عمر فذلك بيننا وبينهم يعني فانتهوا. وجمع الناس فاجتمعوا على أن يضربوا فيها ثمانين جلدة، ويضمنوا الفسق من تأول عليها بمثل هذا فإن أبى قتل. فكتب عمر إلى أبي عبيدة أن أدعهم، فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم، وإن زعموا أنها حرام فأجلدهم ثمانين جلدة فبعث إليهم فسألهم على رؤوس الناس فقالوا حرام فجلدهم ثمانين ثمانين وحد القوم وندموا على لجاجتهم. فقال أبو الزهراء القشيري في ذلك:

ألم تـر أن الدهـر يعتـز بـالفتى	وليس على صرف المنـون بقـادر
صبرت ولم أجزع وقد مات اخـوتي	ولست عن الصهباء يـومـاً بصـابـر
رمـاهـا أمير المؤمنين بحتفهـا	فخلانها يبكـون حـول المعـاصر

واجتمعت بنهاوند الأعاجم عليهم ذو الحاجب ـ رجل من الأعاجم ـ فكتب

عمر إلى سعد أن النعمان كتب إليّ يذكر أنك استعملته على جباية الخراج، وأنه قد كره ذلك ورغب في الجهاد، فابعث به إلى أهم وجوهك إلى نهاوند. وتتضح قيمة المقاتلين في نظر القائد والأساليب التي يمكن أن يعتمد القادة في الحفاظ على راحتهم في وصية عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مقرن أن عهد له فتح نهاوند.

سلام عليك، فأني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فأنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ولاتواطئهم وعراً فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلنهم غيضة، فإن رجلا من المسلمين أحب إلي من مائة ألف دينار والسلام عليك.

ولما كتب عمر إلى عمرو بن العاص وطلب منه وصف البحر وراكبه لأن نفسه تنازعه إليه قال عمرو.. إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركن خرق القلوب وإن تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدور على عود إن مال غرق، وإن نجا برق كان جواب عمر واضحاً لا لبس فيه حيث قال «لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً»[١].

ولما سأل عمر معاوية عن بحر الشام قال عمر.. وتالله لمسلم أحب إلي مما حوت الروم[٢].

وكانت نهاوند تعني أموراً كثيرة في حروب التحرير لما هيأ لها المشركون من إعداد، وأعدوا لها من عدد، ووفروا لها من سلاح وخطط ولكن إيمان المقاتلين بالنصر وثقتهم بعدالة القتال كان يدفعهم إلى خوض هذه المعارك وتجاوز الأحوال التي تعتريهم أو تحاول الوقوف دونهم وأن هذه الثقة كانت تفرض عليهم تحديد القادة في حالة إصابة القائد، إبقاءً على استمرار المعركة وتحقيقاً لاختيار العناصر القادرة قبل احتدام المعارك التي ربما تحول دون إختيار العناصر

---

(١) الطبري ٤/٢٥٨ - ٢٥٩.

(٢) الطبري ٤/٢٥٩.

المناسبة أو تحقق في الوقوف على الرجل المتمكن فكانت خطبة النعمان.. إن أصبت فعليكم حذيفة بن اليمان، وإن أصيب فعليكم جرير بن عبد الله، وإن أصيب جرير فعليكم قيس بن مكشوح.. أنها التقليد الذي سار عليه القادة وهم يقومون على معارك لها خطورتها في المنازلة وحسمها في النتائج.

وتتسع دائرة الشعر الحربي يوم نهاوند ويبدع فيها القعقاع مسجلاً أيامه فيها وما أثخنته النوائب في الحروب فيقول[1]:

وسائل نهاوندا بنا كيف وقعنا وقد أثخنتها في الحروب النوائب

ويقف عندها ثانية فيقول:

رمى الله من ذم العشيرة سادرا بداهية تبيض منها المقادم
فدع عنك لومي لا تلمني فأنني أحوط حريمي والعدو الموائم
فنحن وردنا في نهاوند مورداً صدرنا به والجمع حران واجم

ويفصل بعض خطط المعركة من استخدام للخيل وما وقع فيها من قتال وما امتلأت به الشعاب من قتلى الفرس وخيلهم التي اضرمت وكيف إنهزم الفيرزان الذي لم تنجه من سيوف المسلمين إنفساح المخارم.

ونحن حبسنا في نهاوند خيلنا بشد ليال أنتجت للأعاجم
فنحن لهم بينا وعصل سجالها غداة نهاوند لاحدى العظائم
ملأنا شعاباً في نهاوند منهم رجالاً وخيلاً أضرمت بالضرائم
وراكضهن الفيرزان على الصفا فلم ينجه منا انفساح المخارم

ويواكب الشعر جموع المقاتلين وهي تدفع شرور المشركين الذين لم يتوقفوا عند حد وإنما ينتقلون من معركة خاسرة إلى موقع آخر يجمعون فيه فلول بقاياهم وما تمدهم به من مناطق التحشد ليخوضوا معركة جديدة. فبينما نعيم بن مقرن في مدينة همدان في توطئتها في إثني عشر ألفاً من الجند تكاثب الديلم

(١) شاعران من فرسان القادسية / ٢٢٢.

وأهل الري وأهل أذربيجان ثم خرج موتاً في الديلم حتى ينزل بواج روذ . وخرج نعيم في الناس حتى نزل عليهم بواج الروذ فاقتتلوا بها قتالاً شديداً ، وكانت وقعة عظيمة تعدل نهاوند ولم تكن دونها ، وقتل من القوم مقتلة عظيمة . لا يحصون ولا تقصر ملحمتهم من الملاحم الكبار وقد كانوا كتبوا إلى عمر باجتماعهم ففزع منها عمر وأهتم بحربها وتوقع ما يأتيه منهم . وعندما أعلم ببشرى الفتح والنصر حمد الله وأمر بالكتاب فقرىء على الناس فحمدوا الله وقال نعيم في هذا اليوم :

لما أتـاني أن مـوتـاً ورهطـه ... بني باسل حـروا جنـود الأعـاجـم
نهضت إليهـم بـالجنـود مسـامياً ... لأمنـع منهـم ذمتي بـالقـواصـم
فجئنـا إليهـم بـالحديـد كـأننـا ... جبـال تـراءى مـن فـروع القلاسم
فلمـا لقينـاهـم بها مستفيضـة ... وقد جعلوا يسمون فعـل المسـاهـم
صـدمنـاهـم في واج روذ بجمعنـا ... غداة رميناهـم بـإحـدى العظـائـم
فما صبروا في حـومـة الموت سـاعـة ... لحد الرمـاح والسيـوف الصـوارم
كـأنهم عنـد انبثـاث جموعهـم ... جـدار تشظـى لبنـه للهـوادم
أصبنا بها مـوتـاً ومـن لـف جمعـه ... وفيهـا نهاب قسمـه غير عـاتم
تبعنـاهـم حتى أووا في شعـابهم ... نقتلهـم قتـل الكلاب الحواجـم
كـأنهم في واج روذ وجـوه ... ضئين أصـابتهـا فـروج المخـارم

والقصيدة توحي بمجموعة من المسائل يمكن اعتمادها في شعر الحرب ، فهي أولاً عشرة أبيات وربما تكون هناك أبيات أخرى لم يستشهد بها الطبري ، وهي لبطل من أبطال المعركة وقد عودونا على تأريخ الأحداث بقصائدهم فالقعقاع وعاصم وهاشم بن عتبة وجرير بن عبد الله البجلي وغيرهم أرخو لمعاركهم بما وقفوا عليه ، وعبروا عن احتدامها بما قدروا عليه من صور فكانت قصائدهم صورة لأحاسيسهم ولوناً من ألوان وجدان المقاتل الذي يدرك شدتها ، فالمعركة جهاد فيها تمنع الذمم بالقواصم ، وقد تهيأوا لها بعدتها الكاملة وحالتها المعروفة

أسلحة لا ترد وجبالاً لا تصد. تزحف مقتدرة، وتتقدم واثقة بالنصر وعند (واج روذ) التحمت الجموع وأمتحنت العزمات فلم يصبروا ساعة لما توالت عليهم رشقات الرماح وتهاوي السيوف فتهاووا وتهاوى الجدار الذي تهدم وتمزقوا تمزق المنهزمين فأصيب موتاً قائدهم وما جمع من ديالمة فتبعتهم جنود المسلمين حتى اختفوا في الشعاب وأصبح قتلهم كقتل الكلاب. إنها اللوحة المتكاملة للمعركة التي تبدأ برسم الخطوط الأولى وتستعين ببعض التشبيهات القريبة لتعطيها قدرة الوضوح وخصيصة التميز، ووجاهة التعبير، وتتداخل فيها بعض المواقف الداخلية التي حاول الشاعر أن ينتزعها من واقع المعركة ويضعها في المواقع التي يراها مناسبة ليحقق في نفسه ما يراه حقيقة ويخلد في أبياته ما يمكن أن يترك للآخرين فرصة الإستيعاب لما أبدوه من بسالة من جهة وما جرى للمشركين من جهة أخرى... إن حرص المقاتلين على نقل صور المعركة شعراً وإيمانهم بأن انتشاره في كل مكان وروايته في كل مجلس واقترانه بكل سيرة أو غزوة كان يعزز فيهم روح التعبير عن جو المعركة بما يكشف عن هذا الإحساس، ويقوي إهتمامهم لوضعها في التصور المنظور من سير المعارك الحاسمة.

وسجلت مواكب الفاتحين في الري وقومس وجرجان وطبرستان وأذربيجان بطولات فريدة وخاضت معارك حاسمة كتب الله النصر للمؤمنين والمجاهدين وكان الأحنف حين بلغه عبور خاقان والصفد نهر بلخ غازياً له خرج في عسكره ليلاً يستمع وكان في ليلة مظلمة، فلما أصبح جمع الناس ثم قال: إنكم قليل وإن عدوكم كثير، فلا يهولنكم، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين، إرتحلوا من مكانكم هذا فاسندوا إلى هذا الجبل، فاجعلوه في ظهوركم، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم، وقاتلوهم من وجه واحد ففعلوا.. فخرج ليلة بعد ما علم علمهم، طليعة لأصحابه حتى كان قريباً من عسكر خاقان فوقف فلما كان في وجه الصبح خرج فارس من الترك بطوقه وضرب بطبله ثم وقف من العسكر موقفاً يقفه مثله. فحمل عليه الأحنف فاختلفا طعنتين فطعنه

الأحنف فقتله وهو يرتجز ويقول:

أن على كـــل رئيـس حقــاً أن تخضب الصعـدة أو تنـدقـا
أن لنـا شيخـاً بهـا ملقّـى سيـف أبي حفـص الذي تبقـى

ثم وقف موقف التركي وأخذ طوقه وخرج آخر من الترك ففعل فعل صاحبه الأول ثم وقف دونه فحمل عليه الأحنف فأختلفا طعنتين فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز:

إن الرئيـس يـرتبي ويطلـع ويمنـع الخـلاء أمسـا أربعـوا

ثم وقف موقف التركي الثاني وأخذ طوقه ثم خرج ثالث من الترك وفعل فعله حتى قتله وهو يرتجز:

جـرى الشمـوس نـاجـزاً بنـاجـز محتفـلاً بجريـه مشـارز

وظاهرة شعر الرجز حالة تقترن بالحرب السريع والإداء القتالي المتميز والإقدام الجريء والمجابهة التي يظهر فيها المقاتل أعلى درجات الإقتحام وأصلب مواقف التضحية، ويندفع الفارس وهو يرتجز دون مبالاة وقد صاحب هذا الضرب من الشعر كثيراً من المنازلات الحماسية وأبلى فيه المقاتلون وهم يرددونه البلاء الحسن وربما كانت تختلط أبياته بأصوات حشرجات الموت أو أنين الجرحى أو صرخات المنهزمين الذين لا يجدون مفراً من الوقوع تحت رحمة الرماح أو السيوف. ومن هنا كان لونه متميزاً واختياره موكولاً بالمعاناة الآنية التي تفرضها شدة المعارك وربما كان رنين وزنه وتدافع الحركات فيه وتوالي الكلمات قد أثارت فيه روح الإندفاع والتوالي وهو ما يوافق النفس وهي تسعى لكل ما يجعلها قريبة إلى أهدافها ويثير فيها عوامل التحرك وهي تجد انسجاماً في الفعل والحركة وتوافقاً في الإداء والمنازلة. وهو ما يفسر لنا اقتراب هذا البحر من كل عمل تحاول القيام به مجموعة من العاملين وتصحبه بأناشيد مشتركة تقوي بها عزائمها وتشد نواصلها وتثير قدرتها في العمل.

ويكتب للمسلمين فتح اصطخر وكرمان وسجستان ويقصد الحكم بن عمرو الثعلبي لمكران حتى ينتهي إليها ويلتقي جيش المسلمين بأهل مكران بمكان من النهر فهزم الله راسل وسلبه وأباح للمسلمين عسكره وقتلوا في المعركة مقتلة عظيمة. وكتب الحكم إلى عمر بالفتح، وكان لا يأتيه أحد إلا سأله عن الوجه الذي يجيء منه، وطلب منّ حاكمها ألا يجوز مكران أحد من جنوده ويقتصر على ما دون النهر وأمره أن يبيع الفيلة بأرض الإسلام، ويقسم أثمانها على من أفاءها الله عليه ومثل ما وقف قادة المعارك وحكام البلاد المفتوحة وقف الحكم ابن عمرو يذكر ما أفاءه الله على المسلمين وبلاءه في المعركة وهو يدفع الأوباش دفعاً إلى العمق بعد أن توطد ملك المسلمين في مهران ويشير إلى أمر الخليفة الذي طلب منه عدم تجاوز مكران[1].

لقد شبع الأرامل غير فخر	بفيء جاءهم من مكران
أتاهم بعد مسغبة وجهد	وقد صفر الشتاء من الدخان
فأني لا يذم الجيش فعلي	ولا سيفي يذم ولا سناني
غداة أدفع الأوباش دفعاً	إلى السند العريضة والمداني
ومهران لنا فيما أردنا	مطيع غير مسترخي العنان
فلولا ما نهى عنه أميري	قطعناه إلى البدد الزواني

ويأخذ اهتمام الخليفة بقيادة الجيش دوراً هاماً ويتوقف في بعض الأحيان على طبيعة المقاتلين فإذا اجتمع إليه جيش من أهل الإيمان أمر عليهم رجلاً من أهل العلم والفقه[2] وكان يسأل كل قادم من الجبهة عن أحوال المقاتلين، وأسعار الطعام واللحوم[3].

وتواصل مواكب المسلمين الفتح في زمن الخليفة عثمان (رضي) إيماناً بالرسالة التي بشر بها رسول البشرية وحملها المؤمنون والمجاهدون.. وفي ستة

---

(١) الطبري ٤/١٨٢ - ١٨٣.

(٢) الطبري ٤/١٨٦.

(٣) الطبري ٤/١٨٨.

وثلاثين يغزو سعيد بن العاص جرجان وطبرستان وعند عودة سعيد إلى الكوفة مدحه كعب بن جعيل:

فنعم الفتى إذ جال جيلان دونه	وإذ هبطوا من دستبي ثم أبهرا
تعلم سعيد الخير أن مطيتي	إذا هبطت أشفقت من أن تعقرا
كأنك يوم الشعب ليث خفية	تجرد من ليث العرين وأصحرا
تسوس الذي ما ساس قبلك واحد	ثمانين ألفاً دارعين وحسرا

ويكتب لشعر الحرب أن يتحول من وصف الملاحم التي كان العرب يخوضونها لنشر رسالة الإسلام والدفاع عن المبادىء ليأخذ شكل المناجزات السريعة والتصوير البارع والوقوف عند أعمال الرجال الذين يقفون وجهاً لوجه مع المشركين إلى حرب طاحنة تثيرها أسباب يرى أصحابها فيها الوجاهة، وتؤججها أحقاد قبلية بقي أوارها تلهبه نوازع الإعتزاز بالموقف والإستذكار بالأيام وتشده إثارات كانت تجد في هذه الخصومة مجالاً.

ويختلط شعر الفرسان بشعر الفتوح منذ خروج قوافل الفاتحين من الجزيرة العربية وهم يرفعون راية التوحيد ويوطدون أركان الإسلام وينشرون قيم الحق والعدالة والإنسانية فكانت خصائص هذا الشعر تستغرق الجانب الفروسي وتعتمد المباشرة في المخاطبة والتناول الحي لظروف المعركة والحديث الوصفي لأصناف السلاح والبلاء الرائع للمقاتلين وهم يصولون في ميادين المعارك، وقد أخذ الشعر صورة شعر الأيام الذي أصبحت له تقاليده، فمالك بن الريب له دوره البطولي في يوم (طاس) و(يوم النهر) وهي أيام خالدة، كان له فيها بلاؤه الحسن حيث يقول[1]:

لا تحسبنا نسينا من تقادمه	يوماً بطاس ويوم النهر ذا الطين

ومالك صاحب حرب لا يكلف بغيرها، ولا يثني حفيظته في الوغى، ولا تبقي في السلم جر الجرائم، ولوع بغمرات الموت، ولا يرده تفاقم الأحداث،

(١) شعراء أمويون القسم الأول/ ٤١.

وهي خصائص تعيد لنا صورة الفرسان الأوائل الذين امتزجت أحاديثهم بالبطولة وتعلقت نفوسهم بالمجد وارتضت حياتهم الفخار والمحامد فعاشوا لها رموزاً ومن أجل تحقيقها أعلاماً فكانت مآثرهم امتداداً لكل المآثر التي عاشت في الوجدان العربي إحساساً ووجوداً.

ورسم مالك من خلال يائيته الجوانب البارزة التي اتصف بها من ثبات في المعركة إذا أدبرت الخيل، واستجابة للداعي إذا عز النصير، وإطعام الجائع إذا أصبح الإطعام محموداً، وعفة عن شتم ابن العم، وصبر على القرن في الوغى وهي الصور التي تعيد إلينا حديث فرسان الشعراء العرب الذين خلدت أسماؤهم في السجل البطولي الخالد.

وقد كنت صباراً على القرن في الوغى   ثقيلاً على الإعداد عضباً لسانياً

ولم ينس مالك - وهو في أعنف لحظات الموت - فروسيته وفتوته، لأنه بطل عاشت في نفسه أمثولة البطل فأدرك حقيقتها، وتلمس أبعادها وتحسس الدور الخطير الذي ألقته تبعات النظم القبلية على كواهل فتاها المرتقب، فقد تجسدت هذه الصورة وهو يرقب شبح الموت، ويتمثل لوحة الفناء، ويثبت لنفسه صورة التضحية التي يبقى الإنسان حريصاً عليها ويسعى جاهداً للوصول إليها، ويبذل كثيرً من المتع الزائلة ولكن الإحساس بالبكاء الذي يعبر فيه الكريم عن أصالته والحليم عن طويته السمحاء يحمله على أن يمد نظره بين المتاهات المقفرة، يطلب الأنيس الذي يجد في قربه إلفه، وفي عطفه سلوة، وفي تسليته حياة تمنع عنه هواجس الغربة التي لم ترحم وحدته، فتبددت قدرته وهي تتلوى فوق أرض الغربة، وتنتهي عند المهابط الوعرة، هنا يلمع في عينيه بريق سيفه اللامع ويزهو في نظرته إمتداد رمحه الرديني، وينتصب شموخ فرسه الوفي الذي لم يترك له الموت ساقياً.. إنها الصفات التي ظلت تلازمه وتعيش في دمه فجاد بذكرها وهو يجود بنفسه فبقيت خالدة خلود قصيدته التي ظلت نشيد خلود وصوت فروسية ومجد بطولة نادرة..

تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد سوى السيف والرمح الرديني باكيا
وأشقر خنذيذ يجر عنانه إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا

ويعد توجه مالك بن الريب للفتح في جيش سعيد بن عثمان المرحلة الأخيرة في حياة الشاعر الذي اختار طريق الجهاد والفتح بعد أن جرب الحياة وخبر أساليب الفتك وتبقى صورته في مرحلته هذه إمتداداً للصورة التي وضحت معالمها وهو يمارس نشاطه بعد أن أصبحت الرغبة في نفسه ملحة لما يرغب في تحقيقه من نوازع، فانطلق لممارسة هذا النشاط في إطار مفاهيمه التي استجابت لها نفسه وهي مفاهيم خرجت بمالك عن القيم الحقة التي عرفها الفرسان من الشعراء..

ولم تكن نفحات الحنين بعيدة عن نفسه الوالهة وهي تتشوق للتراب الذي مس جلده فكانت هذه النفحات تمثل الحب الحقيقي الذي كان يداعب قلوب الشعراء الفرسان، لأنه حب اقترن بالمباهاة والمصابرة والجلد وكثيراً ما يكون الحنين إلى الأهل والوطن يخرج النفس وهو في بلاد الغربة فيثيره شجو الحمام، ويحرك في نفسه عواطف الحنين فيقول[1]:

تذكرني قباب الترك أهلي ومبداهم إذا نزلوا سناما
وصوت حمامة بجبال كسي دعت من مطلع الشمس الحماما
فبت لصوتها أرقاً وباتت بمنطقها تراجعنا الكلاما

والحرب تنحل جسم المقاتلين، وتكسوهم الشحوب لما يلاقونه من سعيرها ويصلونه من مشاهدها وهي علامة وجد فيها الفرسان مفخرة يتميزون بها عن الآخرين وهذا ما يراه مالك بن الريب[2]:

وقد تقول ما تخفي لجارتها أني أرى مالك بن الريب قد نحلا
من يشهد الحرب يصلاها ويسعرها تراه مما كسته شاحباً وجلا

---

(١) شعراء أمويون ١/٣٩ ـ ٤٠.
(٢) شعراء أمويون ١/٣٠ ـ ٣١.

ويأخذ شعر المناقضات مساحة متميزة في شعر الحرب لأنه يقوم على دفع الحجة ونقض الدليل وتأكيد الحق، ويأخذ الوزن الشعري صورته في هذا الضرب الشعري لعمق تأثيره في النفس ورتابته في القراءة الشعرية. واتفاقه وزناً وقافية مع الصورة الأولى المعتمدة.. وقد عرف الشعر العربي شعر النقائض في معظم أغراض الشعر لدخوله إلى النفس بيسر واتساقه مع السياق الذي ألفته الآذان.. فعندما حاول زفر بن الحارث أن يبرر فراره من المعركة يوم مرج راهط قال قصيدته المعروفة:

أريني سلاحــك لا أبــالــك أنني ... أرى الحرب لا تــزداد إلا تماديــا

فقد ينبت المرعـى على دمـن الثرى ... وتبقى حــزازات النفــوس كما هيـا

أبعد ابن عمرو وابن معـن تتـابعـا ... ومقتـــل همام أمني الأمـــانيــا

فلم تـــر مني نبـــوة قبـــل هـــذه ... فـراري وتـركـي صــاحبي ورائيـا

أيــذهــب يــوم واحــد إن أسأتــه ... بصــالــح أيـامـي وحسـن بلائيــا

كان جواب جواس بن معطل:

لعمري لقـد أبقـت وقيعـة راهـط ... على زفــر داء مــن الداء بـــاقيـا

مقيماً ثــوى بين الضلــــوع محلـــه ... وبين الحشـا أعيـا الطبيـب المداويـا

دعـــا بســـلاح ثم أحجـــم إذ رأى ... سيـوف جنـاب والطـوال المذاكيـا

عليها كـأسـد الغـاب فتيـان نجدة ... إذا شرعـوا نحو الطعـان العـواليـا

وقد تأتي المناقضة مخالفة من حيث القافية ولكن تبقى المعاني التي يناقض بها داخله في إطار الأحكام العامة التي تعبر عنها المناقضة ويلزم الشاعر نفسه بالرد عليها هجاء لما صنعه الشاعر الأول أو إضعافاً لمنزلته أو إقلالاً من شأنه كما أجاب عمر بن المخلاة الكلبي (١):

بكى زفر القيسي من هلـك قـومـه ... بعبرة عين مـــا يجف سَجُــومهـــا

يبكـي على قتلي أُصيبـت بـراهــط ... تجاوبـه هـــام القفـــار وبـــومهـــا

---

(١) الطبري ٥/٥٤٣.

أبجنا حمى للحي قيس بن راهط ... وولت شلالاً واستبيح حريمها
فمت كمداً أو عش ذليلاً مهضماً ... بحسرة نفس لا تنام همومها

وعندما وقفت البحدلية في صف مروان بن الحكم فنالت مكانه مرفوعة وعاشت مرهوبة الجانب عزيزة الجاه وارتفعت الأصوات منادية بقتل عبد الله بن الزبير مع فضله وشرفه كان صوت زفرها دراً يقرع الناس الذين يسكتون ويلومهم على رضوخهم لهذا الحديث ويحثهم على رفضه لمخالفته القيم الكريمة التي عرفتها والمبادىء العربية والأعراف فيقول[1]:

أفي الله أما بحدل وابن بحدل ... فيحيا وأما ابن الزبير فيقتل
كذبتم وبيت الله لا تقتلونه ... ولما يكن يوم أعز محجل
ولما يكن للمشرفية فوقكم ... شعاع كقرن الشمس مني ترحل

وكان جواب عبد الرحمن بن الحكم أخو مروان بن الحكم فقال[2]:

أتذهب كل قد حمتها رماحها ... وتترك قتلى راهط ما أجنت
لحا الله قيساً قيس عيلان انها ... أضاعت ثغور المسلمين وولت
فباه بقيس في الرخاء ولا تكن ... أخاها إذا ما المشرفية سلت

وهنا ينصب العتاب على قوم زفر الذين أضاعوا ثغور المسلمين ـ كما يعبر عبد الرحمن بن الحكم ـ وأداروا وجوه جيوشهم إلى الصراع بين القبائل نفسها وكان الأولى أن تتوجه الجهود لإكمال مسيرة الفتح، وتوحيد جهد قوى المؤمنين لصد تآمر الأمم التي بدأت تجد في قدرة المسلمين قدرة لا بد من إيقاف زحفها وإضعاف جانبها.

إنّ طبيعة الأمكنة التي كانوا يقاتلون فيها لأول مرة قد هيأت لهم ظروف لم يكن لهم بها عهد من قبل، فإزدادت تجربتهم، وعركتهم الأحداث حتى تمكنوا من تجاوز كثير من الحالات التي كانت تجابههم لأول مرة وخاصة عندما بدأت

---

(١) الطبري ٥/٥٤٣.
(٢) الطبري ٥/٥٤٤.

غاراتِ العرب توغل في أواسط بلاد ما وراء النهر فعندما توجه زهير بن حيان في بني تميم لإنقاذ الأزد الذين حوصروا في قصر (أسفاد) وكان اليوم بارداً شد عليهم زهير فلم يثبتوا وحمل عليهم حملة واحدة فانهزموا وتبعهم حتى قضى عامة الليل وانتهوا إلى قصرِ في المفازة ولكن زهيراً لم يتركهم وإنما بقي يتعقبهم وكان عالماً بالطريق. إلى مسافات بعيدة وعند عودته في منتصف الليل، كانت يده يابسة على رمحه من البرد، فدعا غلامه كعباً، فخرج إليه فأدخله وجعل يسخن الشحم ويضعه إلى يده ودهنوه وأوقدوا له ناراً حتى لان ودفيء، ثم رجع إلى هراة فقال في ذلك كعب بن معدان [1]:

أتاك أتاك الغوث في برق عارض	دروع وبيض حشوهن تميم
أبوا أن يضموا حشو ما تجمع القرى	فضمهم يوم اللقاء صميم
ورزقهم من رائحات تزينها	ضروع عريضات الخواطر كوم

وتستأثر هذه الحادثة باهتمام الشاعر ثابت قطنه وهو يرافق هؤلاء الجند وقد ضاقت بالمحاصرين السبل وقل بها المحامون، وتأججت عواطف الأخوة واستثيرت حماية الإحساس بوحدة المصير في أرض عربية وديار نائية فكان لصوته صوت آخر، ولدفاعه لون يختلف ولتضحيته ومقاومته طبيعة متميزة وكانت أبياته إيحاءً بهذا الحس وإشارة إلى صدق التعبير الوجداني الحي وهو ينطلق على لسان مقاتل يخوض المعركة ويبلى فيها البلاء الحسن ويؤدي واجبه بالشكل المطلوب وقد تكسر رمحه واستعاض عنه بسيفه فيكر عليهم مستمداً العزم بالله لإيمانه ومعتمداً على ثباته في الدفاع صوناً للعرض والشرف حيث يقول [2]:

فدت نفسي فوارس من تميم	على ما كان من ضنك المقام
بقصر الباهلي وقد أراني	أحامي حين قل به المحامي

---

(١) شعراء أمويون ٢/.

(٢) ثابت قطنة. الديوان.

بسيفي بعد كسر الرمح فيهم ... أذودهم بذي شطب حسام
أكر عليهم اليحموم كراً ... ككر الشرب آنية المدام
فلولا الله ليس له شريك ... وضربي قونس الملك الهمام
إذاً فاضت نساء بني دثار ... أمام الترك بادية الخدام

ولفقد القادة رنة أسى في نفوس المقاتلين، وإحساس بالفقد في قلوب الشعراء لأن بطولتهم مبعث استثارة، وصولاتهم موطن توثيب، وجلادهم في المعارك وتضحيتهم في الإقدام تترك في نفوس الشعراء أثراً يوحي إليهم بالمعاني النادرة ويضعهم في المواجهة الحقيقية لتمثل صورة البطل ووقوفهم عند معاني البطولة، وقد تغلب أعمالهم على أعمال الآخرين الذين تزدحم الساحة بأمثالهم من المقاتلين وقد ينفرد أحدهم بشجاعة نادرة يبدي من الجرأة ما يصبح فيه موضع إعتزاز الشعراء ولكن القيادات العسكرية التي تتولى إدارة المعارك وتحسم النزاع وتحدد سير القتال تبقى الصورة المثلى في تصور الشعراء والوجه الأمثل في اختيار النموذج فالمغيرة بن المهلب توفي بخراسان وكان لنبأ وفاته صدى في نفوس الشعراء ومن المعروف ان تستذكر في رثائه مواقفه في الحرب وبلاؤه فيها وصدقه في ملاقاة الجموع وصبره على شدائدها وهو ما يتوالى في أحاديثهم ويتردد في إشاراتهم لأن القصيدة تخليد للمآثر التي تدعو الناس للتأثر وتحملهم على الإيمان بفداحة الفقد، أو حراجة الموقف وصعوبة التعويض. وهي معان لها دلالتها في مثل هذه القصائد التي تعطينا الصورة التي كان الشعراء يجدونها في الرجال الذين سقطوا في المعارك أو لم يكتب لهم الحظ فيموتوا حتف أنوفهم كما يقولون: وكعب بن معدان شاعر له دوره في شعر المعارك. وله دراية بما يتركه فقدان المغيرة وجند المسلمين يواصلون سيرهم لإكمال الفتح وتوطيد دعائم الدولة ونشر الرسالة التي حملوا أمانتها. فقال[1]:

والترك تعلم إذ لاقى جموعهم ... أن قد لقوه شهاباً يفرج الظلما

---

(١) الطبري ٦/٣٥٢.

بفتيـة كـأسـود الغـاب لم يجدوا غير التـآسي وغير الصبـر معتصما
نري شرائح تغشى القوم مـن علـق وما أرى نبـوة منهـم ولا كـزمـا

وفي الأخبار التاريخية أحداث ومواقع، وأسماء لامعة قد تقترن بحدث أو تعرف بموقعة ومن خلال كل مسألة من هذه المسائل يصاغ الرأي الذي يحدد الموقع أو الفكرة التي تتحدد في إطار فكرة الحدث. وهذا ما جرى العرف عليه حتى أصبح حالة ثقافية لكثير من الدارسين والباحثين بسبب هذه الشرائح المقطعة، والأخبار المبتورة والحالات التي ظلت ملازمة، وربما تكون هذه الإنطباعات التي علقت تمثل وجهاً واحداً من وجوه لم تطرق، أو جانباً واحداً لم يعرض لها، أو سمة واحدة من سمات لم تناقش ولكن الحكم الذي ينتهي إليه المؤرخ والدارس والباحث يظل أسير هذا الجانب الواحد والسمة المفردة ويبقى هذا الرجل أو تلك الظاهرة أو صورة الموقعة محصورة في دائرة هذا التصور فتفقد كثيراً من خصائصها، وتضيع أجزاء كثيرة من حقيقتها، وتفصل بشكل غير مقصود عن حلقات مترابطة قد يكون مجموعها يعطيها صورة مغايرة لما ألفه الناس عنها أو تعارفوا عليه من أحوالها، أو قطعوا بحكم قد يكون بعيداً عنها. وفي أخبار التاريخ أحداث كثيرة من هذه التصورات (فصفين) لها صورة واحدة و (الحجاج) له وجه واحد و (المختار الثقفي) و (عبد الرحمن بن الأشعث) لهما تصور واحد، وتبقى الوجوه الأخرى التي توحدت فيها هذه الشخوص أو تلك الأحداث غير واقعة في دائرة الإكتمال والتحقق لتبرز القضية الكاملة التي عاشتها أو الإطار العام الذي أخذه كل واحد من هؤلاء، وهي حالة لا تقتصر على التاريخ ولا تقف عند الأدب وإنما تتجاوز هذه المباحث لتمتد إلى كل ظاهرة إنسانية أو حالة تحتاج إلى إحاطة شاملة أو إكتمال فهمي يكشف عن الظاهرة بما يحقق لها الوجوه الكاملة أو التصور العام..

لقد تركت هذه الحالة مجالاً واسعاً لكثير من الأحكام الإضافية أن تعدل ما اتفق عليه إلى حد ما، وأصبح مقولة عند كثير من الباحثين، فظلمت في إطاره

أحداث، وشوهت معالم، وطمست آثار، وعزلت قدرات كان لها دورها في الأحداث التاريخية، وصبت إنطباعات على كثير من الوقائع بسبب القناعات السريعة التي تركتها بعض الأحكام، حتى أصبح التاريخ شرائح غير متكاملة ونماذج غير موصولة. وظواهر غير مترابطة في كثير من أقسامه.

إن هذه الحالة توجب على الدارسين إعادة النظر لا في أحداث التاريخ ككل وهي مسألة غير يسيرة، وإنما في طبيعة كل جزء من أجزائه وتقليب الوجوه الأخرى ودراسة الحالة الكاملة واستيعاب الأحداث المتداخلة لتكون الصورة واضحة المعالم، بيّنة القسمات، متوازنة في الأحكام وإلا بقيت الصورة ناقصة والحدث بحاجة إلى ما يكشف عن المعالم الأخرى التي تعطيه وجهه الحقيقي، وتمنحه قدرة المواجهة على الوضع الطبيعي في سلسلة التواصل التاريخي.

و (زفر بن الحارث) و (مرج راهط) مسألة تاريخية تكشف لنا عن حقيقة المسألة المطروحة في مواجهة الموقف والصورة التي بقيت تعيش في الذهن العربي باعتبارها حالة من حالات التمزق ومحاولة من محاولات التوثيب لإسقاط الدولة العربية بمعزل عن الجذور الحقيقية التي ولدت هذا الإحساس والتنافس الشخصي والأهواء الفردية التي أذكت شعور الإستحواذ وهي حالات لا يمكن أن تدرس بعيدة عن هذا الوضع الذي ظل يحكم التنافس، وعندما تهيأت الفرص الكفيلة بإنضاح الفكرة والإحساس بالذات الواحدة تلاشت أو خفت على الأقل مشاعر الذات الفردية لتتحول إلى إحساس عام بالمصلحة القومية والتوجه الانساني الذي يجمع الأبناء في إطار الحكم المتفق عليه، فالأخبار كلها تؤكد في ذكريات (مرج راهط) أنه لما عقد يزيد لإبنه معاوية ألزمه الفقهاء والرواة وصرف إليه وفود العرب فلما أدركته الوفاة قيل له: أوص واستخلف قال والله ما ذقت حلاوتها فأصلي بمرارتها، ان يك خيراً فقد استكثر منه آل أبي سفيان، وان يك غير ذلك فو الله ما أحب أن أزودهم الدنيا وأذهب بوزرها إلى الآخرة ولكن ليصل بكم حسان بن ملك بن بحدل أربعين ليلة وتشاوروا في أمركم واستودعكم الله ثم مات وحسان بن مالك بن بحدل على الجندين فلسطين والأردن والضحاك بن قيس

الفهري على دمشق والنعمان بن بشير على حمص وسعيد بن ملك بن يزيد الكلبي ثم العليمي على قنسرين وعبيد الله بن زياد على العراق فوثب كل جند على عاملهم، فوثب زفر بن الحارث على سعيد بن مالك فأخرجه من قنسرين ودعا إلى طاعة ابن الزبير وبايع النعمان بن بشير بحمص لابن الزبير.

إن الموقف التاريخي المتأرجح بين تردد مروان بن الحكم وهو يصبح رسولاً للضحاك بالبيعة لابن الزبير، وبين ادعاء حسان بن مالك بن بجدل الخلافة بعد أن عهد إليه أن يصلي بالناس وبين تطلع الضحاك بن قيس وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ويظهر طاعة بني أمية والشكر لمعاوية ويدس إلى هذا الحي من قيس أن ابن الزبير أولى بالأمر، ثم همّ بأن يبايع لابن الزبير.

إن هذا الموقف الذي تراخت فيه قدرة الحاكمين، وتأججت مطامح المقتدرين الذين وجدوا في هذا التراخي فرصة وهم يجمعون هذه الجموع ويعتمدون الآلاف من القبائل لتحقيق تلك المطامح كان سبباً من أسباب التنازع والإقتتال وصورة لما تخفيه الصدور. ولا بد لنا ونحن نقف عند أحداث مرج راهط من الأوليات التي أوقدت جذوة هذا النزاع وهي أوليات لها صلة بالجانب القبلي الذي ظلت جذوره تسرج أسباب الخصومة وتشعل عوامل النزاع. لها صلة بحب النفس وامتلاك ناصية الملك وهي توجهات ظلت تتحرك في عصور الدولة كل ما وجدت الفرصة متاحة ولكن الدولة تبقى لها قدرتها على تجاوز هذه التناقضات. فالعصر كان عصر انتقال وفتح وتعريب وبناء الشخصية التي حرصت الدولة على استكمال شروطه وتحديد هويته، وإن الدولة كانت تشعر وهي تقف على عتبة المرحلة الجديدة أن رسالتها في توطيد دعائم العهد الجديد كان يفرض عليها أن تستوعب دورها في هذا البناء وقدرتها في مجابهة التحديات المفروضة وهي تظهر على شكل حركات مناوئة أو تيارات جديدة أو ثورات متمردة تثيرها العصبية تارة، وتحركها المصالح تارة أخرى، وتؤجج أوارها النزعات الفردية الطامحة وإن أهداف هذه التوجهات كانت تلتقي في تفتيت هذا الكيان وتنزع إلى إسقاط دوره التاريخي متخذة من بعض المواقف حججاً

للمقاومة وأسباباً وعوامل تجميع القوى لإيقاف المسيرة التي بدأت تأخذ طريقها في نشر رسالة الإسلام وترسيخ أسباب المبادىء الخيرة التي حملتها هذه الأمة وهي تمتلك قدرة المجابهة والتحدي.

من هنا كانت الصراعات الداخلية التي أثارتها بعض هذه الأسباب تدخل في هذا الإطار العام الذي أخذ برقاب بعض الحركات لتتحول إلى اقتتال دامي، وتمزق قومي واسع وصراع قبلي غير محدود، ولكن الحصيلة النهائية لكل هذا التحرك كان الدولة العربية التي استطاعت أن تضع الدعائم الأولى لبناء الفكر وإقامة المجتمع وترسيخ الأسس السليمة في بناء المسيرة العلمية والثقافية والحضارية للدولة العربية.

وشعر زفر الذي اصطبغ بلون سياسي متميز، وقيل في معارك كان لها صداها في الأحداث التاريخية التي شهدها القرن الأول الهجري، كان يمثل إتجاها واضحا من حيث المعالجة والتعبير والإحساس وقد انحسرت مواضع استشهاده في الجوانب التي لم تبتعد في حدودها عن المساحة المحصورة في هذا الإطار، والخاضعة لهذا التوجه التاريخي وعرفت شخصيته ضمن أعداد من الولاة الذين خرجوا على طاعة الدولة بعد أن أصبح هواهم زبيريا، وتحملوا على ما ترتب على هذا التوجه ومن الطبيعي أن تصبح أحاسيسهم وهم يدافعون عن وجهة نظرهم مدفوعة بهذا الدافع ومقترنة بهذه الإشارات، بعد أن أحيطوا بأسباب الدفاع والهجوم والتهيؤ، وأدخلوا في نطاق الخارجين على النظام فهو لم يجد نفسه في عداد الشعراء الذين استقرت بهم الأحوال فانصرفوا إلى الأغراض التي تفرضها عليهم طبيعة الحياة، ولم يألف جانب الدعة ليتخذ من الشعر وسيلة للتعبير عن الحياة الناعمة أو الهادئة التي ألفها الآخرون من الشعراء وإنما وجد في الشعر أداته التعبيرية، وعرف في مضامنيه أهدافه التي نصب لها نفسه، وزفر لم يعرض في قصائده للخلافة أو الخلفاء الأمويين، ولم نجد عنده إلى ما يشير إلى مثل هذا التوجه وإنما كانت قصائده تعرض لبعض خصومه الذين يوغلون في إيذائه، ويتجاوزون حدود المروءة، وأصبح شعره صورة لحركته ووجهاً من وجوه حياته

القتالية وهو ينتقل من معركة إلى معركة ومن واقعة إلى واقعة وليس غريباً بعد هذا أن نجد مفرداته وهي تتحدث عن (القتل) و (الحرب) و (الثأر) و (البيض والرقاق) و (القتلى) و (المنايا) و (الجرد) و (المشرفية) و (القنا) و (السيوف) و (الرماح) و (النصال) وهي مفردات تتكرر في بعض الأحيان أكثر من عشر مرات وتقترن بكل ما يعطيها شدة المصاولة وحدة المطاولة واحتدام التلاقي وقسوة الصراع الذي أخذ برقاب بعض القبائل، ومن الطبيعي أن تتردد في ثنايا قصائده شخوص خصومه ممن حاولوا التنكيل به أو كسر شوكته.

وكان بكاء زفر بن الحارث حاراً وهو يرثي أصحابه، ولوعته حزينة وهي تتعالى وفاء لأولئك الرجال الذين اندفعوا بكل حماس، فالعين تجود بانسكاب دموعها لتبكي عاصاً وابن الحباب بعد أن قتلته تغلب، وتظل منزلة هؤلاء رفيعة في حسابه، كبيرة في تصوره، وأن واحداً من هؤلاء لا يعد له مائتان من خصومه وأن كل قتيل من أبناء قومه كريم في حين يعد قتلى خصومه من الكلاب وتتكرر مثل هذه الصورة وهو يثأر لعمير بن الحباب من بني جشم جموعاً وعمير هذا كان موضع عتاب من الشاعر أثر الحرب التي وقعت بين تغلب وقيس ويظل ابن الزبير الأمل المرتقب في تصور الشاعر لما علقه عليه من آمال وعرفه فيه من شجاعة ويبقى خصومه من أبناء بحدل هم الأعداء الألداء الذين لم يظفر بهم ليشفي منهم غليله.

من شعراء الفتوح

أبو مفزّر الأسود بن قطبة

كانت الحرب ـ ومنذ أن عرفها الإنسان واتخذها وسيلة من وسائل الدفاع عن نفسه أو الإعتداء على الآخرين مثار حديث المشاركين فيها، وموضع استثارة لمن تهمهم نتائجها، لأن الحديث عنها لا يقتصر على جانب واحد، ولا يقف عند مسألة منفصلة عن ظروفها أو أسبابها أو نتائجها، أو ما تؤديه من عوامل غير مباشرة تظل عناصرها ملازمة، وتبقى أواصرها مشدودة، وإذا كان العرب من الأمم التي وجدت في الحرب سبباً من أسباب بقائها، والدفاع عن وجودها فأن حالتها بقيت قائمة، وتقاليدها ظلت معروفة في كثير من ضروب الحياة، وانعكست آثارها سلباً أو إيجاباً في وجوه النشاط الإجتماعي والثقافي والفكري، ووجهت كثيراً من أنماط سلوك الأبناء الوجهة التي تتناسب وطبيعة حياتهم وفي المواجهة الحاسمة تتحكم إرادة الإنسان، وترسخ قواعد الدفاع عن الحق، وتحجب دواعي الإستسلام والتراخي والضعف، وعودنا التاريخ وهو يكتب سطور الخلود للأمم الحية، ويدون المفاخر للأبطال الأماجد، على أن يقف اجلالاً لتقدير التضحية ويتوجس خيفة تكريماً للرجال المؤمنين، وينتظر متأملاً إكباراً للبطولات النادرة التي تظهرها شدة الإحتدام، وتعظم بها مآثر الأيام. وقد جعل التاريخ وهو يطوي مراحل الزهو ويمر بمراحل الإنعزال التاريخي بجليل الحوادث، وعظيم المواقف. وقد تراكمت على صفحاته أوسمة الخلود، وانتشرت بين أحداثه جلائل الأعمال...

وفي كل مرة من المرات تتعالى صيحات التواصل لتشد بين حلقات النضال وترتفع نداءات المجاهدين الميامين، وهم يشعرون بخطر التآمر، ويتحسسون خيوط الهجمات اللاإنسانية التي ظلت تتواكب بلا انقطاع وهي تحمل الحقد الأسود. وقد أخذت على نفسها عهداً بإسقاط دور الأمة. وإنهاء رسالتها الإنسانية وتشويه معالمها الحضارية..

وفي حركة التاريخ تزدهر قدرات، وتبدو أعمال جليلة، وتحقق إنتصارات تعطي الأمة وجهاً من وجوه إنتقالها من مرحلة إلى مرحلة، وتضيف إلى حركتها حركة عوامل جديدة بعد أن يصبح الإنسان محورها، ومن غير المعقول أن تسجل حركة التاريخ بمعزل عن حركة هذا الإنسان وبمعزل عن حركة المجتمع الذي يبني هذا الإنسان وفق الصورة المطلوبة وفي إطار التجربة الحية التي أصبحت هدفاً مرحلياً من أهدافها. وحركة الفتح التي حمل لواءها الرواد الأوائل، وانطلقت الجيوش العربية بجرأة واقتدار وتحكم تضع المجد الجديد لتحرير الإنسان وتبني الواقع المنشود في ظل التشريع الإسلامي الرائد. وكانت حركة تأثير فاعلة، وبداية نهوض قومي متميز، وتجربة قومية أصيلة، ومجالاً رحباً لمعرفة الصورة التي تستطيع تحقيقها الأمة في إطار التفاعل مع الأمم من جهة، والأخذ والعطاء والتأثر والإحتكاك في دائرة البيئة الجديدة من جهة أخرى، وبقدر ما كانت أسباب القوة التي تحكم قبضتها على أطراف الديار العربية كانت حركة الثورة التي وحد الإسلام أطرافها. تمد سلطانها وتنشر مبادءها لتعيد للناس إشراقة الحياة ثانية، ولتعطيهم حق التحرك لتأدية الرسالة الإنسانية، فانطلقت مواكب المؤمنين من الجزيرة العربية وهي مؤمنة بالدور القيادي الرائد، ومخلصة في نقل التشريع الإلهي الذي أودعه الله أمانة في أعناقهم، وبلغه إلى الرسول الكريم صلوات الله عليه، وقد تحولوا إلى دعاة وهداة، ينشرون باسم الله رسالتهم، ويضعون أمام الناس حقائق التنزيل المرسل تملؤهم نفحة الإيمان الخالد، وتشدهم صلابة العقيدة الراسخة، وتدفعهم قدرة التضحية والجهاد، وانساحوا جيوشاً متراصة، تطوي أرض الجزيرة وتملأ فيافي

الصّحراء الممتدة لتخط فوق رمالها ملحمة الفداء والبطولة وتسجل بين تلولها وهضابها أسفار الشعر الخالد وهو يعبر عن المرحلة الطويلة التي قطعتها مواكبهم وحركها إيمانهم، فكان الشعر صوتاً من أصوات العقيدة، وكان الشعراء ألوية خفاقة من ألوية العز والفخر.

وإذا كانت كتب الأدب قد أخلت بذكر هذه الأصوات المؤمنة، وأشاحت بوجهها عن قصائدهم المبدعة، وابتعدت عن تثبيت حياتهم المليئة بكل ما يدعو إلى الإعتزاز والتقدير فإن كتب التاريخ والسير والمغازي والفتوح وبعض كتب البلدان قد اعتمدت أشعارهم في توثيق أخبارها، واستشهدت بوقائعهم لتأكيد الروايات التاريخية التي أحاطت بالحدث، وألمت بالمواقع.. فقدمت لنا مادة حية، ووقفت عند مقطعات شعرية موثقة، وكشفت عن الدقائق التي أغفلتها الرواية، وعبرت عن الحس الإنساني الذي كان يعتمل في نفوس المقاتلين، وصاغت نوازع الإيمان المطلق بالجهاد والتضحية، واستذكرت الأحاديث التي كان يتناولها المقاتلون، وطبيعة الروح القتالية التي يتمتعون بها، وأساليب المصاولة وإعداد الجيوش، وتفاصيل الخطط الحربية، وتوزيع القيادات، وأشكال التوجيه والتوعية التي تبعث في النفوس الحماس، وترسخ أسباب الإندفاع، وتشد عوامل المقاومة إلى جانب ما كانوا يفخرون به من أيام ويمدحون به من أوصاف، ويستخدمونه من وسائل لإضعاف قدرة الخصوم، ونزع مقومات الثقة. ومن الطبيعي أن يكون هذا الضرب الشعري لوناً غير مألوفاً أو رافداً لم تتهيء له الأساليب الفنية المألوفة في الهيكل الشعري، وربما كان هذا السبب من الأسباب التي دفعتهم إلى الإبتعاد عنه أو عدم الإستشهاد به.. والشاعر أبو مفزر الأسود بن قطبة من الشعراء الذين شاركوا في فتح العراق وأرخوا لبعض الوقائع التي خاضها جيش التحرير فأظهر من البلاء ما يحمد عليه وقدم من الشجاعة ما جعله من مصاف الفرسان المتقدمين. ويأتي ذكره لأول مرة عند الطبري سنة (١٤) في حديث القطائع وقد اقطعه عمر (دار الفيل)[1] في السنة السادسة عشرة وعند محاصرة

---

(١) الطبري تاريخ الرسل والملوك ٣٠/٥٨٩.

العرب لبهر سير بدره الناس لمخاطبة رسول الملك الفارسي والرواية تذكر أن الله أنطقه بما لا يدري ما هو ولا يدري أصحابه ما قال (١)، وينتدب أبو مفزر بعد نزول سعد بهر سير وستين رجلاً ليمنع الفرائض ويحمي المقاتلين عند العبور، وقد أمن أداء المهمة ومكن الجند من العبور وتسجيل الإنتصار الحاسم (٢).

وتعود سيرة أبي مفرز للظهور في وقعة جلولاء وقد أسند إليه بعث السبي (٣) وفي فتح الري وفد بالاخماس وفي وجوه من وجوه أهل الكوفة (٤) وكان ذلك سنة إثنتين وعشرين، وفي سنة إثنتين وثلاثين إتجه صوب القسطنطينية بصحبة يزيد بن معاوية وعلقمة بن قيس ومعضد الشيباني (٥) ويأخذ طريق الربذة بعد أن شهد وفاة أبي ذر الغفاري في السنة نفسها، وتنقطع أخباره عند الطبري. ولم يستشهد له وهو يذكر هذه الأخبار إلا بشاهد شعري واحد على الرغم من وقوف ابن حبيش عند مجموعة من مقطعاته في كتابه (الغزوات). والأخبار التي رواها الطبري في التسلسل التاريخي لأحداث الفتح والمهمات التي أسندت إليه في كل خبر يؤكد منزلته الرفيعة، وحكمته في إتعامل، والثقة العالية التي يتمتع بها وهو يتسلم مثل هذه المهمات على امتداد أكثر من ستة عشر عاماً، كما يؤكد دوره في المواقع الرئيسية والمركزية لقيادات الفتوح وتؤكد بروزه وجهاً من الوجوه المعتمدة. وعقلاً من العقول المدبرة وان إختياره كان يؤشر الحالة المتميزة التي عرف بها بين أقرانه.

وإذا كان الطبري قد أغفل ذكر أبي مفزر وهو يذكر يوم الثني والزميل فإن الشاعر قد فصل ذكرها، ووقف على أسماء الرجال الذين أحيا بهم سيوف المسلمين فالهذيل الذي كان مع روزبه وزرمهر قد ولى هارباً بعد أن جرد المسلمون منهم

---

(١) الطبري تاريخ الرسل والملوك ٤/٧.

(٢) الطبري تاريخ الرسل والملوك ٤/٩.

(٣) الطبري تاريخ الرسل والملوك ٤/٢٩.

(٤) الطبري تاريخ الرسل والملوك ٤/١٥٠.

(٥) الطبري تاريخ الرسل والملوك ٤/٣٠٥.

السيوف ولم يفلت من ذلك الجيش مخبر فأوى إلى عتاب والزميل وداهمهم (بالبشر) في عسكر ضخم.

أما سبايا هذه المعركة فقد ذكرها الشاعر وهي ليلى بنت خالد. وابنة المؤذن التي لم يذكر اسمها الطبري وسماها الشاعر وهي أروى وريحانة بنت الهذيل بن هبيرة، ولو وصلتنا القصيدة كاملة ـ لأنني أعتقد بأنها غير كاملة لأن أصحاب التاريخ يستشهدون بالمقاطع التي يقفون فيها عند الحدث المطلوب، لاستطعنا أن نهتدي إلى مسائل أخرى، وتكشف عن أحداث قد يكون التاريخ أوجز في روايتها أو قطع بعض أجزائها أو تجاوز أحداثاً منها.

وقد انتهت وقعت الثني بانتصار المسلمين وإرسال الأخماس إلى أبي بكر مع الصباح بن فلان المزني، ويسجل الشاعر في هذه القطعة صورة الإنتصار الرائع الذي سجله المسلمون والهوان والذلة التي تجرعها المشركون الذين حاولوا إيقاف زحفهم والتعرض لنشر المبادىء الإنسانية السامية..

وفي قصيدة أخرى يتحدث عن الأحداث التي وقعت في فتح الحيرة وما غنمه المسلمون بعد الإنتصار فيذكر تقسيم الفيوء وما فرض عليهم من الجزية التي كانت سبباً من أسباب إطلاق سراحهم وقد حفلت هذه الأيام ـ كما يذكر الطبري[1] بالكتب والمواثيق التي ترتب العلاقة بين المسلمين وأهل هذه البلاد وهم يخضعون لما طلب منهم صلحاً أو جزية أو إسلاماً.

وإيمان الشاعر بربه واعتقاده بالمبادىء الإنسانية التي كانت تتجلى في تضحيته وتضحية الرجال المؤمنين الذين باعوا النفوس رخيصة في سبيل الله هي التي حققت له ولأصحابه النصر المؤزر الذي أكدته في بعض مقطعاته، وهو يفتح البلاد بإسم الله وبإذنه وبالوعد الذي قطعه المؤمنون وهم يرفعون صوت الحق والعدالة والهداية والرشاد والتوحيد فكان لهم ما أرادوا، وتحقق لهم ما طلبوا،

---

(١) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ٣٦٨/١ إلى آخره.

وكان أمر الله في الفتح ميسوراً، فكانت القادسية التي أعقبت فتح بهر سير، والشاعر هنا يجد المقارنة واقعة بين توجهه إلى تحرير أرض العراق وتخليص الإنسان من آثام الغطرسة الساسانية والعبودية المجوسية وكيف يسر الله لهم هذا الفتح وبين محاولة الفرس لو راموا بلاد العرب. وهنا يعبر الشاعر عن شدة المقاومة التي يتعرضون إليها، وقوة المجابهة التي ستطحنهم طحناً وإذا كانت جموع الفرس قد لاقت من مرارة الهزيمة وذل الإنكسار ما لاقت فإن المسلمين لم يكونوا مسؤولين عنهم بعد أن بلغوهم ما أمر به الله تعالى من الإيمان بدينه أو دفع الجزية ليتمتعوا بما يتمتع به المسلمون من حقوق ويؤدوا ما عليهم من واجبات أو قتال لا مفر منه ليأخذ دين الحق طريقه، وليعم الرخاء شعوب الأرض، ولتنعم البشرية بالسعادة والصفاء والطمأنينة. والشاعر في القطعة الثانية يقف عند هذه المعاني ويبين مدى الحقد الذي ارتسم على وجوه قادة الفرس وإبعاد الكراهية التي استحوذت على نزعاتهم، وامتلكت جوارحهم فكانوا يعضون الشفاه ليهلكوا المسلمين ولكن الله الذي وعد المؤمنين بالنصر كان لهم بالمرصاد فانتهوا إلى ما انتهى إليه كل الجبابرة والطغاة، وسقطت أوهام الغطرسة في ميادين الجهاد المؤمن، ودانت رقاب الشرك لسيوف الإيمان والتوحيد.

ويؤرخ أبو مفرر لما وقع بعد الحيرة. وما اقترن به هذا الفتح من أهمية فالرسول الكريم ذكر فتح الحيرة[1] ولما فتحها خالد بن الوليد صلى صلاة الفتح ثمان ركعات لا يسلم فيهن[2] وقال فيها قولته المشهورة: لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع في يدي تسعة أسياف، وما لقيت كقوم لقيتهم من أهل فارس، وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل أليس[3] وكتب لهم الكتب التي تعاهدهم على الجزية والمنعة سنة إثنتي عشرة[4]. والشاعر في القطعة الثالثة يقف عند هذا الفتح

(١) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ٣/٣٦٦.
(٢) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ٣/٣٦٦.
(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/٣٦٧.
(٤) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ٣/٣٦٨ وما بعدها.

الذي يغلب فيه الأكاسرة على (نصف السواد) و (ماء الفرات) وجيش المسلمين يجوز أكابر الفرس بالسيوف ويحملهم على دفع الجزية بعد أن خضد شوكتهم وحل نظامهم، ووهن كيدهم، وفرق كلمتهم. وبعد أن جاء إليهم بقوم يحبون الموت كما يحب الفرس الحياة.

ويخلد أبو مفزر يوم اليس وأمغيشيا مثل ما خلد بقية أيام فتح العراق ويؤكد أنها كانت من الأيام الحاسمة بعد أن هزم القوم وأجلوا عن عسكرهم وقد حمل هذا النصر العظيم القائد المظفر خالد بن الوليد على أن يبعث بالخبر إلى الخليفة الراشد أبي بكر (رضي الله عنه) ويعلمه بفتح اليس ويقدر الفيء وبعدة السبي وقد بلغت قتلاهم سبعين ألفاً وجلهم من أمغيشيا [1] ، وهذا ما يذكره الشاعر في البيت الثالث من القطعة الرابعة حيث يقول:

قتلنـــا منهـــم سبعيـــن ألفـــاً بقيـــة حـــربهم غـــب الأســـار

ســوى مــن ليس يحصى مــن قتيــل ومــن قـــد دال جـــولان الغبـــار

ومن شدة إعجاب الخليفة الراشد قال وهو يزهو بقدرة القائد المظفر والبطل الخالد خالد بن الوليد..

أعجزت النساء أن ينسلن مثل خالد [2] ومن هنا كان الشاعر يسير في قصائده مع الفاتحين، ويكتب في شعره دقائق الأحداث التي كانت تصادفهم وهم ينتقلون من نصر إلى نصر ويخوضون معركة بعد معركة.

وفي قطعة أخرى يتناول الشاعر إبتداء أمر القادسية، فيذكر العذيب الذي صبحه سعد بما أفاء الله على المسلمين، وهم يكبرون تكبيرة شديدة، ويقسم سعد بالله أن هذه التكبيرة لم تكن إلا تكبيرة قوم عرفت فيهم العز [3] وقد أشار إليها الشاعر في قوله (لنا همة إلا اغتيال المنازل) وهي همة عالية يعرفها الرجال

---

(١) الطبري تاريخ الرسل والملوك ٣/٣٥٨.

(٢) الطبري تاريخ الرسل والملوك ٣/٣٥٩.

(٣) الطبري تاريخ الرسل والملوك ٣/٤٩٤ وما بعدها.

وامتدت صرختها بين بصرى وبابل.

وفي الرجز يؤرخ الشاعر لوقعة المدائن سنة ست عشرة بعد أن طلب سعد السفن ليعبر بالناس إلى المدينة القصوى. وبعد أن عرف المخاضة وانتدب بعده ستمائة من أهل النجدات وساروا حتى وقفوا على دجلة ثم اقتحموها واقتحم بقية الستمائة على أثرهم وكان أبو مفزر من أوائل الستين كما يذكر الطبري [1] وتزلزلت الأرض تحت أقدامهم وهم يقتحمون وأصواتهم تتعالى بالإستعانة بالله والتوكل عليه وتلاحق عظم الجند فركبوا اللجة وكانت دجلة ترمي بالزبد، وأن الناس ليتحدثون في عومهم وقد اقتربوا ما يكترثون كما يتحدثون في مسيرهم على الأرض، وهذا ما دفع الشاعر إلى أن يخاطب دجلة وأمواجها ترتفع، ويطلب فيها ألا تروع المسلمين الذين نزلوا فيها لتحتضنهم برفق وتحنو عليهم بأمان فهم جنود الله في قراها..

وتعد قصائده الأخرى إستكمالاً لحديث الثني والزميل الذي وقف عنده الشاعر وهو يذكر النساء السبايا والرجال الذين لم يقدروا فعلتهم ولم يعرفوا ما أقدموا عليه من محاولات وهم يعترضون مواكب الفاتحين وهي تسجيل آخر لأحداث المعارك التي شارك فيها الشاعر، وقدم فيها من الأعمال ما وضعه في مصاف المقاتلين الأماجد.

ومع هذا التسجيل التاريخي الذي حققه الشاعر، والتواصل البطولي الذي شارك فيه فإن شعره ظل بعيداً عن التناول إلا من قطع قصيرة تداولها بعض المؤرخين، وهي لا يمكن أن تكون بهذه الأحجام التي وردت في هذه الكتب، لأن هؤلاء المقاتلين عاشوا فترة طويلة، وواكبوا أحداثاً خالدة، وكانت لهم فيها أدوار مشهودة. وقفنا على بعضها في أخبار الطبري، ولكن هذا الشعر التاريخي الذي مازجه الصدق، وعبر عن الحقائق، وصدر عن عاطفة الرجال الذين عاشوا أحداث المعارك لم يجد ظله في كتب التاريخ، ولم يجد لقائليه طبقة بين

---

(١) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ٤/٩.

الشعراء..وأوشكت شخوصهم أن تتضاءل وتذوب في طيات الأحداث التاريخية لولا هذه الشذرات المتبقية التي لمعت في زهو الإنتصار العربي، وأشرقت في احتدام المعارك الحاسمة، فكان لونهم البطولي ألقاً مشقاً، وأعمالهم الخالدة مآثر إنسانية سامية.

إن محاولة تجميع هذه الإيماضات المتباعدة ووضعها في الإطار التاريخي المناسب، وتحليلها في ضوء المسيرة الكبيرة التي حملتها الأمة تقدم جوانب مضيئة تضيف إلى المادة التاريخية أبعاداً لم تدرس وتضع بين يدي الباحثين وثائق جديدة. أغفلت آماداً طويلة.. وإن ظاهرة إغفال هذا الشعر عند مؤرخي الأدب تؤكد أن أعمالاً شعرية كثيرة لم تدرج ضمن هذه الكتب، وإن إغفال هذه الأعمال يؤدي إلى اسقاط مجاميع من الشعراء الذين واكبوا حركة الفتح التي تعد من الأعمال الكبيرة في حركة البناء الثقافي والفكري للأمة، وإن هذا الشعر بخصائصه قد يختلف ـ في بعض جوانبه ـ عن الأغراض الشعرية الأخرى ـ أدى دوه الكامل، وقدم شعراً مرحلياً متميزاً، ولدته ظروف الحرب وخضع للتقاليد التي وضعته في الإطار التاريخي لهذا الفن الشعري.

وإذا كان أبو مفزر وأبو نجيد وهاشم بن عتبة والقعقاع قد اخترقوا حواجز التاريخ ليقفوا بشموخ في ميادين المعارك، وحفظت بعض مقطعاتهم باعتبارها وثائق مهمة في تسجيل الأحداث، فإن أعداداً كبيرة من الشعراء لم يكتب لهم هذا الحظ فماتت فوق شفاههم أصوات البطولة، وانتهت عند حدود مجالسهم الضيقة مشاعر التضحية، وألحان الجهاد الخالد.. وهي مهمة أخرى من المهام الجليلة التي تفرض على الدارسين مراعاتها عند دراسة العصر الإسلامي أو الأموي أو العباسي، بعد أن اقتصرت الدراسات على بعض الشعراء وانتهت الأحكام في نظام الضوابط التقليدية التي أوقفت كل اجتهاد، وقتلت كل تطلع، وأماتت كل محاولة جادة في هذا الميدان.



من شعر الفتوح

نافع بن الأسود المعروف بابن نجيد

في الدعوات الكبيرة التي تقال بشأن التاريخ والأدب والسيرة وما يصاحب هذه الدعوات من اجتهاد في إعادة الكتابة أو العودة إلى القراءة المتفحصة تكون الكتابة في ضوء هذا النوع من القراءة مجدية ونافعة، وما يتخللها من مناهج تنبري لتصحيح منهج أو. تغليب جانب، أو اعتماد أحداث، أو غير هذه التوجهات إشارات واضحة لحاجة قائمة، ومحاولات جادة للإنتفاع من هذه العلوم في الكشف عن الجوانب النافعة، أو الإستفادة منها لتوثيق أسباب الإتصال بحلقات التراث الأصيلة أو الإجتهاد في تحديد معالم ظاهرة من الظواهر، أو طريقة التعامل مع أحداث التاريخ وغيرها من القضايا التي أصبحت ملحة في مرحلتنا، وموجبة في التحقق والمصادرة لتكون أصول التوجه لها أطراف، وأبعاد التناول لها أوليات وحقائق الإستعانة لها وشائج.. ومثل ما كان التاريخ وجهاً من وجوه الأمة، وحالة من حالات الإستشهاد، وصورة من صور البناء الإنساني للمجتمع العربي ـ على الرغم من المناهج التي تناولته في الكتابة، أو اعتمدته في التناول ـ فإن العلوم التي نشأت في ظل التاريخ، أو كتبت في إطار أحداثه، أو أعتبرت جزء من مكوناته، كانت حالة مكملة، ووجهاً آخر من وجوه المعرفة التي بواسطتها تستكمل الحلقات، وقطباً من الأقطاب التي عاشت في حركتها كثير من الأحداث الكبيرة التي تحكمت في حركة الأمة من جهة وحركة تاريخها من جهة ثانية.

وتاريخ الأدب الذي يعد جزءاً لا يتجزأ من حركة التاريخ قد دخل في معظم الأبواب التي اعتمدت النص وأشارت إليه ووقفت عليه واستخدمته في تأكيد مسألة أو تحقيق قضية، أو استطلاع رأي وهذا ما يفسر لنا أن كثيراً من كتاب السيرة والمغازي قد اعتمدوا الشعر في أخبارهم وهم يجدون في روايته متعة، وفي الإستشهاد به سنداً، والإعتماد عليه مشاركة في توثيق الخبر، وترسيخ أصوله في نفوس المستمعين، وهذا ما كان يدفع ابن شهاب الزهري إلى أن يقول: هاتوا من أشعاركم فإن الأذن بحاجة، فالشعر كان له وقعه في النفس، وأثره في الحس وصفاؤه في موافقة الحدث، ولونه في استذكار الأحاديث إلى جانب استثارته لكوامن النفس، وإستقطابه لجوامع الأشياء وهو يحمل المشاعر الدافقة، ويروي الأحداث المسلسلة، ويوائم بين طبيعة الحروف، وجرس الألفاظ، واستحياء المعاني، وربما كان ميل مؤرخي السيرة الكبار من الطبقة الأولى والثانية والثالثة إلى الشعر وشغفهم به هو السبب في إدخال بعض الشعر في ثنايا السيرة... والإستشهاد به في توثيق المغازي.

أما المغازي فكانت جانباً آخر من جوانب الحياة وهي تعني موضع الغزو أو الغزو نفسه ثم توسعوا في معناها فأطلقوها على مناقب الغزاة وغزواتهم ثم انتقل معناها إلى الحديث عن حياة الرسول ﷺ حتى جعلت مرادفة للسيرة وقد ألفت في المغازي كتب كثيرة وأول ما عرف بالتأليف فيها هو أبان بن عثمان وعروة ابن الزبير الذي روى أخبار الهجرة إلى الحبشة والى المدينة وغزوة بدر وشرحبيل ابن سعد المتوفى عام ١٢٣ للهجرة ووهب بن منبه وتعتبر هذه المجموعة من أوائل المهتمين بكتابة المغازي ثم أعقبتهم مجموعة أخرى كان لها فضل المتابعة فأكملت ما بدأ به أولئك تخليداً للأعمال الجليلة، وتذكيراً للناس بما قدمه الأوائل في ميدان الجهاد، ومجال العقيدة، وبداية الإيمان فكان عبد الله بن أبي بكر الأنصاري وعاصم بن عمر بن قتادة والزهري من الرجال الذين دونوا المغازي لعلمهم بها وقربهم منها واتصالهم بمن روى عنها أو سمع بأخبارها وأخذت عن هؤلاء جماعة أخرى كان لها فضل إيصالها فكانت مغازي ابن عقبة أصح المغازي كما قال ابن حجر ومثل ابن عقبة معمر بن راشد الذي كان له علم

واسع بالحديث والسير وأشار إلى مغازيه ابن النديم ولم يصل إلينا كتابه وإنما وصلت إلينا منه نقول ذكرها الواقدي وابن سعد والبلاذري والطبري.

ويعد كتاب سيرة ابن إسحاق من الكتب الأولى التي وصلت إلينا مختصرة في سيرة ابن هشام ويمكن إعتماد أخبار المغازي للواقدي لبصره فيها ومعرفته بأخبارها ودقته في روايتها حتى سارت الركبان بكتبه في فنون العلم من المغازي والسير والطبقات وأخبار النبي ﷺ والأحداث التي كانت في وقته وفي كتاب ابن حبيش (المخطوط) وفي الغزوات أخبار كثيرة مقتبسة من كتاب الواقدي في الردة، ويعد ابن سعد صاحب كتاب الطبقات من أشهر مؤرخي السير والمغازي لصدق روايته ودقة تحريه وضبط سنده.

إن إهتمام المسلمين بكتب المغازي وانصرافهم إلى روايتها تمثل توجهاً صائباً نحو جانب عسكري مهم، يعطي هذا الجانب اهميته، ويوفر للمجاهدين الذين آمنوا بالجهاد وسيلة لنيل الشهادة، وتحقيقاً لنشر مبادىء الرسالة والمجال المتاح للوقوف على الأعمال البطولية الفذة التي أبداها المؤمنون والنماذج الحية التي قدموها وهم يوطدون أركان الإسلام، ويحققون القيم الإنسانية النبيلة التي عاشت في ضمائرهم، وتجلت في أعمالهم، وتحققت في تعاملهم، ويبنون قواعد الدولة التي منحت الإنسان مكانته المرموقة، ووضعته في الموضع المناسب الذي يؤهله لأداء مهمته الحياتية، ويرسخون في الجهاد وهو أغلى صورة من صور التضحية أصالة العقيدة الواعية، وصدق الوفاء وسماحة الخلق الكريم، ولهذا كانوا يجدون في الإقتداء بها نموذجاً من نماذج السنة والإلتزام بمبادئها وجهاً من وجوه الإقتداء الحسن، والسير على هديها رمزاً من رموز التمثل الخالص.. وقد بقيت مغازي الرسول صلوات الله عليه المنهج الثابت لكل المعارك الحاسمة، والعبرة التي تعتبر بها كل الجحافل التي خاضت معارك التحرير، واقتحمت حصون الشرك، واندفعت لتحرير الإنسان واستعادة الأرض، وكثيراً ما كان الإستشهاد بالمعارك الأولى والحرص على استنباط الموعظة من المواقف الشجاعة فيها مأثرة من المآثر المشهورة، ومجالاً من مجالات بث الثقة في النفوس، وترسيخ قواعد

الإيمان في القلوب، وتأكيد عدالة الحق في الدفاع المستميت، لأن معارك الإسلام الأولى كانت بداية لحركة الأمة في مجال التاريخ وانتصاراتها التي سجلتها وهي في كل موقف تضرب مثلاً في الجرأة والإقتحام والصبر والمجالدة تمثل النماذج التي بقيت مضرب المثل، وموضع الإستشهاد والمجال الرحب لكل قضية عادلة يدافع عنها الإنسان بغض النظر عن الزمان المحصور أو الظروف المحيطة.

وإلى جانب كونها غزوات شارك فيها الرسول الكريم وكان في أغلبها يقود المعارك ويتقدم الصفوف، ويمثل القدوة، وشارك فيها الصحابة الأخيار فكانوا صوراً من صور الشجاعة، وأمثلة للمبادىء الثابتة في التأكيد على الروح القتالية العالية التي عرفوا بها ففي وقعة أحد خرج الرسول لابساً درعه متقلداً سيفه وهو يقول لمن رأى في البقاء خيراً ما ينبغي لنبي لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. وعندما بلغوا (أحداً) إجتازوا مسالكه وجعلوه إلى ظهورهم وكان الرسول يصف أصحابه وقد وزع الرماة منهم على شعب في الجبل، فكانت بداية المعركة إنتصاراً كاسحاً، تجلى فيه صدق العقيدة، ومهارة القيادة، وصمود العزائم على الرغم من التفاوت الكبير في العدة والعدد وعندما تكون الفكرة الواضحة هي الدافع، والعقيدة الصادقة هي المحفز، وحب الموت لإستقبال الحياة السعيدة هو الأساس، تحسم المعارك لصالح المؤمنين، ويسجل الخلود للرجال الصناديد الذين وهبوا القدرة على الإنتصار، وامتلكوا ناصية التحكم في نتائج المعركة ... كان الرسول الكريم صلوات الله عليه يقف وسط معركة غير متكافئة ولكنه ظل يدافع وكل المقاتلين عن المبادىء التي يبشر بها وقلوبهم طافحة بالإيمان الذي هون عليهم نعم الحياة فأستماتوا لنيل الشهادة، واندفعوا للأخذ بنصيبهم من الدفاع عن رسول الله ﷺ وهنا كانت أم عمارة الأنصارية وقد استلت سيفها وباشرت القتال دفاعاً عن الرسول صلوات الله عليه وقد أثخنت بالجراح وترس أبو دجانة، وهو رجل عرف بشجاعته وبأسه بنفسه دون رسول الله، يقع النبل في ظهره وهو منحن عليه حتى كثرت فيه النبل ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله ﷺ وكان يقول وهو يتحدث عن أبي دجانة كان

يناولني السهام وقد تكسرت شباتها في جسمه ويقول: أرم فداك أبي وأمي، حتى أنه ليناولني السهم ما فيه نصل ويقول: أرم به... وفي (أُحد) جاهد الحمزة عليه السلام جهاد الرجال، فكان سيف الله يقطع بسيفه أجساد المشركين رجال قريش ويثخن جراحهم، فيولون منه الإدبار، ويستشهد الحمزة عليه السلام شهيد معركة الكرامة وهو يدافع عن الرسالة الحقة، والإيمان الراسخ، والعقيدة التي آمن بها فكان إستشهاده رمزاً من رموز الوفاء للمبدأ، وصوتاً من أصوات الجهاد النبيل لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام فكان من الأبرار الخالدين والشهداء الذين كانوا عند ربهم يرزقون.

ويبقى أدب المغازي شعره ونثره مادة للإستشهاد ومدعاة للتمثل لأنه كان يضم أصوات الرجال عند إشتداد الأزمات، ويحمل خصائصهم عند إحتدام اللقاء ويظهر شجاعتهم في حومة المعارك، إلى جانب تجسيده لروح العقيدة الخالصة ووفائه للتعابير الإنسانية التي كانت تنساب في ثنايا تلك القصائد أو تمر عبر تلك الأحاديث، ويبقى ألقها الزاهي وحسها الوجداني، وشعورها الحي تياراً تتسرب فيه دفقات الوفاء الإنساني وهو يجابه الصعاب، ويقترب من اللحظات الحاسمة، ويقف على عتبة الإفتراق والتباعد، ولعل هذه الأحاسيس هي التي جعلت من المغازي صورة تستذوقها الأسماع، وتلذ بقراءتها النفوس، وتستسيغ تلاوتها على مر العصور، مواكب الأجيال لأنها كانت تقرأ فيها دقائق التاريخ، وتُحلى في متابعتها جزئيات الأحداث وتقف من خلال وقائعها على الجانب الإنساني الذي يصعب أن تقف عليه أخبار التاريخ، ولعل هذه المشاعر هي التي أعطت هذا اللون التاريخي طرافة الإهتمام إلى جانب كل الإعتبارات الدينية والتاريخية بكونها تاريخاً لبداية الإسلام، ومواقف حاسمة في مسيرته، وألواناً زاهية من ألوان الجهاد الأصيل لتثبيت أركانه باعتبارها تسجيلاً حياً للعلاقات الصادقة التي كانت تسود الحياة بين الرسول الكريم صلوات الله عليه وبين الصحابة الأخيار الذين بذلوا من أجل بناء الكيان الإسلامي أقصى ما يستطيعون تضحية وإيثاراً، صدقاً وعقيدة.. ومن هنا كان الإحتفاظ بدقائق المغازي جزء

من التاريخ الكامل والإهتمام برواياتها والحرص على جمعها وإسناد أخبارها كانت حالة من حالات التوجه الأول في كتابة التاريخ والبداية المنهجية للطريقة التي وضعت علم التاريخ على طريق التكامل منذ المراحل الأولى لمباشرته، كما كان أصحاب المغازي والسير من الطلائع الأولى لوضع الأسس الرصينة لتوثيق الأخبار وتحقيق الأسانيد التي شكلت المنهج العلمي الواضح في علم التاريخ عند العرب.

فالاحساس بالإعتزاز التاريخي والحرص على متابعة الفخر بالاشعار والصدق في رواية الأحداث والإصرار على اعتبارها مادة حية من مواد التربية التي كان الأبناء يتناقلونها والمؤرخين يحرصون على أدائها والخلفاء يستمعون إليها، كل هذا كان يؤكد وجه هذا الإحساس الذي بقيت أواصره تتوحد في مختلف مناهج البحث التاريخي، وتتشابك في معظم حالات التواصل التي تعد تلك المادة محوراً، وكثيراً ما كانت أساليب الوقوف عليها تتناول الأوجه التي كانت تتيح معرفتها بحيث يصبح التاريخ في أعراف المؤرخين وجهاً من وجوه الإهتمام ببناء الدولة، بعد أن أصبحت الأمة قادرة على الدخول في نطاق التفاعل الموجه للإنتفاع من الأخبار وتحليلها وإرجاع الأمور الى أصولها وأسبابها، وهو إستمرار لمنهج البحث العلمي الرائد الذي سارت عليه كتب المغازي وحروب الردة وكتب السيرة والفتوح والأيام واتباعها لمنهج الحديث في الرواية، والإلتزام برجال السند في التوثيق بحيث كانت الأخبار تصل إلى الرجال الذين حضروا تلك الوقائع أو نقلوها عن شاهدها أو سامعها أو وقف عليها أو نقل أخبارها عن شاهد عدل أو قرأ بعضها في كتاب أو غير ذلك مما كان يدخل الخبر في باب الحقيقة بعد مروره في قنوات الرواة العدول الذي لا يرقى الشك إليهم؛ وهذا ما جعل كثيراً من الأحداث تبدو للعيان وكأنها قريبة كما أنه أعطى هذا العلم وجهه الصحيح في الانتفاع من المصادر التاريخية غير طرق الرواية، مثل الإعتماد على شهود العيان الذين عاشوا الخبر وعرفوا أجزاءه ورددوا بعض أخباره بألفاظه أو سمعوا الشعر من أصحابه ويمكن اعتماد مغازي موسى بن عقبة بن أبي

العباس الأسدي المتوفى سنة ١٤١ للهجرة الذي يعد من أوائل الذين صنفوا كتباً في الغزوات ومغازيه تعد أصح المغازي وبعده محمد بن إسحاق الذي دخل بغداد سنة ١٥٠ للهجرة وقدم نسخة من كتاب السيرة إلى الخليفة المنصور قبل هذا التاريخ.

لقد كانت الرغبة ملحة في تثبيت الأحداث الكبيرة التي مرت بها الأمة لأنها كانت تمثل تاريخ الحوادث الكبيرة التي وقفت فيها عند مفترق الطرق وتجردت فيها الحقائق وهي تواجه المهمات، وامتحنت فيها العزائم وهي تعيش التحدي الحقيقي، وقد حرص المؤرخون وهم يرون بحروب الأمة مع الأمم الأخرى من فرس وروم وغيرهم وما تبع ذلك من فتوح وتحقق من إنجازات وأحداث، لأنهم وجدوا فيها أكثر من سبب يستدعيهم إلى تدوينها بعد أن وجدوا فيها أعمال الصحابة وهم يضعون اللبنات الأولى لتشريعات البلدان المحررة وخاصة ما يتعلق بالتشريع وشؤون الحرب ومعاملة الناس ورعاية حقوقهم وما ترتب على كل حالة من تلك الحالات وهذا ما كان يدفعهم أيضاً إلى عقد فصول طويلة أو كتب مستقلة عن الفتوح وقد احتفظ ابن النديم في الفهرست بقائمة كبيرة من هذه الكتب منها كتاب فتوح الشام وفتوح العراق لأبي مخنف وكتاب الفتوح لإسماعيل بن عيسى العطار وكتاب الفتوح لابن أبي شيبة وفتوح أرمينية والأهواز لأبي عبيدة وكتاب الفتوح للمدائني الذي فصل فيه فتوح الشام وفتوح العراق وأخبار القادسية والمدائن وجلولاء ونهاوند وخراسان والري وجرجان وطبرستان وكتاب فتوح العراق للواقدي وفتوح الشام وكتاب الفتوح الكبير لسيف بن عمر إلى جانب كتب المغازي التي تعد البداية الطبيعية لكتب الفتوح وقد طبع أخيراً كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي في ثمان مجلدات بمطبعة دائرة المعارف بحيدر آباد في الهند باعتناء الدكتور محمد عبد المعيد خان بعد أن ظل هذا الكتاب أكثر من ألف سنة بعيداً عن التناول يعتمده الباحثون في موضوعاته مخطوطات متناثرة، ومثله كتاب الغزوات لابن حبيش، وهو ما يزال مخطوطاً على الرغم من أهمية أخباره ودقة أحداثه وانفراده بأخبار لم تذكرها كتب التاريخ الأخرى.

وقد وجدتُ في هذا المخطوط اثنتي عشرة قطعة جديدة للقعقاع بن عمرو التميمي قالها في تحرير العراق وعبر من خلالها عن المواقف البطولية الرائدة التي وقفها الجيش العربي وهو يطارد فلول المنهزمين الفرس وينزل بهم الخسائر الكبير ولم نجد هذه القصائد في كتاب آخر غير هذا المخطوط كما عثرنا على خمس قصائد غير معروفة لعاصم بن عمرو التميمي أخ القعقاع الشاعر، وهو قائد آخر من قواد القادسية الذين أبلوا البلاء الحسن وسجلوا في صفحات التاريخ أروع المفاخر وأجل الأعمال وما تزال الأخبار الأخرى والأحداث المهمة التي حققتها جيوش المسلمين على أرض العراق وقصائد الشعر التي قيلت في تلك الأحداث بعيدة عن التناول بسبب تناثرها في المخطوطات التي لم تنشر وكتب التاريخ التي لم تجمع.

لقد سجلت كتب الفتوح ـ ولعل كتاب فتوح البلدان للبلاذري ـ من أجلها أخبار الحرب ومكانة المقاتلين وألويتهم وهم يسجلون النصر مما كان له أبلغ الأثر في حفظ هذه الأخبار عن طريق الرواية وتسجيل الأشعار، لأن الشعراء كانوا يقفون مع المقاتلين، ويشتركون في المعارك، ويخوضون الأيام الصعبة وقد احتفظت كتب الفتوح بأسماء أولئك الشعراء الذين استشهد منهم عدد كبيرفي البلاد المحررة وكانت قصائدهم التي حفظها المقاتلون سجلاً من سجلات مشاركتهم الحقيقية في تلك الحروب بعد أن قدموا أعز ما يملكون، وكان شعرهم لوناً فنياً من ألوان الشعر الحربي بعد أن تميز بطابع خاص واختار المعاني المناسبة والصور الملائمة والبدايات التي كانت تتفق مع طبيعة الأحداث، وهي بطبيعتها خالية من التعقيد والتركيب وتتميز فيها لغة السلاح وتتعالى في أبياتها ألفاظ الإعتزاز والفخر، وتتداخل في أحاديثها عزيمة الرجال الذين يحققون النصر وينزلون بالأعداء الهزائم، ويبدون عند اشتداد المعركة ضروباً خارقة من الشجاعة، وأعمالاً جليلة من البسالة كما كانوا يرسمون لنا العواطف الصادقة التي تنتابهم وهم يسجلون تلك الإنتصارات والحنين الإنساني الذي يدفعهم إلى تذكر الأهل والأحبة، وقد دخلوا أرضاً تختلف في كثير من مظاهرها عن أرضهم،

وعاشوا ظروفاً جديدة لم يألفوها ورغموا على عادات أمم لم يسبق لهم أن تعاملوا معها، كان الشعر الذي احتفظت به كتب الفتوح أو الغزوات صورة جديدة من صور الأدب الذي يختلف في كثير من مضامينه وأشكاله عن الأدب الذي عرفناه، وأنه يضيف إليها تجربة جديدة، ويغنيها بمجالات شعرية لا تتصل ببناء القصيدة التقليدية ومن هنا فإن هذا الضرب من الشعر يعطي الأدب العربي سمة بقيت نماذج الأدب مفتقرة إليها، وغافلة عن إدخالها في إطار حقولها وفنونها المعروفة.

لقد تميز إسلوب كتب المغازي والفتوح بقربه من أساليب القصاص وتناوله لموضوعات تستسيغها النفس، وتميل إليها القلوب، لقربها من نزعة الإنسان، وصلتها بروحه وميوله وتعبيرها عن زوايا نفسية لها أثرها في إنتباهه وتحفيزه. لأنها تمثل مواطن الراحة، التي يجد فيها الإنسان فسحة لترويح النفس، وتغيير الجو الرتيب الذي يسيطر عليه، فكان يجد فيها متعة تغنيه عن كثير من المتع، ومجالاً يجد فيه نشاطه وميداناً يتعلم منه العبر والمواعظ، وخاصة عندما تكون النفوس بحاجة إلى مثل هذا النشاط وأما الجانب الثقافي والمعرفي فهو صورة أخرى من صور الأسباب التي كانت تحمل المسؤولين على متابعة أخبار الأمم وخاصة التي دخلت في حكم الإسلام وارتضت مبادئه وشرائعه لأن معرفة أحوال هذه الأمم وما يتعلق بأنظمتها وشرايعها، بعاداتها وتقاليدها، بسلوكها وطرق تعاملها تعطي المسؤول صورة للطريقة التي يمكن أن يتعامل بها. أو يتخذها منهجاً في توجيه القائمين على إدارة شؤون تلك الممالك، ليكون على علم بدقائق أحوالها، وما تقبله من أمور وما تراه مخالفاً وفي هذا التوجه كانت رسالة العرب لهذه الأمم رسالة إنسانية تراعي فيها أحوال تلك الأمم لأن صلتها بها صلة تعامل إنساني، وإطار التعامل معها إطار الدين الحنيف الذي وحد الجميع في ظل الشريعة السمحاء والإيمان بالله الواحد الأحد والولاء لتعاليمه التي دعا إليها الرسول الكريم صلوات الله عليه والتزام بها الصحابة الأخيار والقادة المجاهدون، ويذكر المسعودي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين فتح الله

البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر وغيرها كان يكتب إلى بعض حكماء تلك المدن يسألهم عن صنعتها ومدنها وأهويتها ومساكنها وما تؤثره الترب والأهوية في سكانها وعندما أراد أن يشخص إلى العراق بعد أن بلغه ما عليه الأعاجم من إعداد بعد معركة القادسية، وما جمعوا من جموع في نهاوند سأل كعب الأحبار عن العراق قبل أن يشخص إليه ليكون على معرفة به وصلة بأحواله ودراية بطبائع أهله وسكانه.

وذكر المسعودي أيضاً وهو يتحدث عن معاوية بن أبي سفيان فقال.. كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه وبعد أن يعرض لأعماله طيلة النهار يقول: يستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسيأستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ثم يدخل فينام ثلث الليل ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر وفيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكائد فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ثم يخرج فيصلي الصبح ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم [1]، ويذكر المسعودي في ترجمة السفاح أن أبا بكر الهذلي كان يحدث السفاح بأحداث أنوشروان في بعض حروبه بالمشرق مع بعض ملوك الأمم السالفة [2].

إن إهتمام العرب بهذا الضرب من الأدب أو التاريخ أو العلوم الأخرى التي لها صلة بهذه العلوم كان يعبر عن إيمانها بتقييد العلماء لخواطرهم لما في ذلك من فائدة، وتسجيلهم لأحداث الأمم لما يقدمه من تجارب لأن معظم العلوم تستخرج من الأخبار وتستنبط منها الحكم وتستفاد الفصاحة، وعليها تقاس الأحكام ويحتج بها أهل الأخبار لأن معارف الناس منها تؤخذ، وأمثال الحكماء فيها توجد ومكارم الأخلاق من قصصها تقتبس، وآداب السياسة تلتمس وكل

---

(١) المسعودي مروج الذهب ٣/٢٦٩ - ٣١.

(٢) المسعودي مروج الذهب ٣/٢٦٥.

غريبة منها تعرف، وهي علوم يستمع بسماعها الناس ويستعذب أخبارها العارفون لما تقدمه من مواعظ وتسجله من عبر. والنفس بطبيعتها لمثل هذه الأخبار مائلة لسماع السير مشتاقة.

ونافع بن الأسود بن قلبة بن مالك التميمي شاعر أسيدي، عرف بعد مشاركته في إخماد حركة الردة، ومصاحبته لخالد بن الوليد باليمامة ويبدو انه قد أبلى بلاءً حسناً مع المؤمنين الذين آمنوا بالإسلام، وجاهدوا في سبيل الرسالة الإسلامية، وإن مشاركته مع الطلائع الأولى تعني سبقه في الإسلام ويتجلى ذلك في رثائه لعبد الله بن المنذر بن حلاحل التميمي الذي استشهد باليمامة مع خالد بن الوليد[1]، ويتضح صدق تأثره من خلال الأبيات الباقية التي احتفظت بها بعض التآليف، وهو حالة تكشف عن عقيدته وجهاده وإيمانه وهو يقاتل المرتدين، ويدافع عن الدين، وإذا كانت قصائده الأولى جهاداً في سبيل الله، ودفاعاً عن الرسالة، وتأكيداً لعدالتها السمحاء فان هذا النفس الشعري ظل يمد الشاعر بأحاسيس الإيمان ويلهب في قصائده روح الحماس لمواجهة المواقف الحاسمة، والتصدي للنزعات الشريرة وكانت الثقة بالنفس من خلال الإحتماء بالعشيرة يمثل حالة نفسية متميزة وجد فيها بنو تميم حافزاً وهم يخوضون معارك جديدة، ويقفون أمام تحديات خطيرة، وان هذا الإحتماء كان يؤشر حديث الضمير الجماعي الذي أصبح صفة مشروعة، وقدرة قتالية عريضة تتبنى فيه القبيلة إلى جانب القبائل الأخرى مهمة الإضطلاع، لأن الإحتماء بها، والدعوة باسمها والإشادة بمفاخرها هي حالة من الإعتزاز في إطار الحس الكلي لمجموع القبائل، وهو إستمرار لتراث عريق في الحديث عن مجد القبيلة الذي تنبثق عنه كل الإعتبارات في دائرة الشمول الجديدة، لواقع الإنسان العربي وهو يوسع مجال الرؤية، ويفتح مجموعة من الحلقات التي كانت تحول دون توحده في إطار أوسع مما كان فيه، وهذه الحالة أصبحت ميداناً من ميادين التمادح والتفاخر، فأبوا نجيد يعتبر تميماً عتاد الحرب، والناهضون إليها إذا ركب الفرسان ويتحملون

---

(١) ابن حجر. الاصابة: ٦٣٥١.

مسؤوليتهم في اشتداد الأزمات، ويمنعون دارهم من الأعداء عند احتدام الهياج، واهتزت طنب الخيام، وهم في فخر الشاعر الشموس التي حَملت السمر المثقفة، والسيوف المشهورة، إذا جليت لاحت فأنها على أيديهم شهب [1]، وهو يستمد من معدنه وحسبه ما يباهي به، لأنه امتداد لهذا المعدن، وصلة لهذا الفخر، فهو من قوم لاتصيب رماحهم إذا طعنوا إلا المقاتل [2]، ويدعو للأيام الحاسمة معاشر تميم الذين يلبون دعوة الداعي ويجلون قتام اليوم الشديد، ويسمو بهم إلى كسرى ليولي مهزوماً [3]، وهم أكفاء الملوك، وأهل العز الثابت، والأرومة الأصيلة وهم الذرى من معد [4] وتميم في استبسالها وجهادها صورة مشرقة، وفي خصالها الحميدة حصيلة مآثر إنسانية تضمن المال للجار، وتطعم ما دام الدهر، وتعلو جسيم المجد، وتبذل الندى للسائلين، وتمد الأيدي إلى العلى، وتنفق المال لفك العناة، ولكشف المغارم وتقود الخيل العتاق إلى العدا ضوامر، تعاند أعناق المطي، لترد اعتداء أو لتكسب فخراً، أو تسجل محمدة، وكان لها المرباع عند المقاسم، وبهذا شرف الله قومه في الزمان الأول، وفي الإسلام أصبحوا أئمة قادوا الناس إلى العز وهم نجوم يقتدى بها في الرفعة، وتقدمت مع جيوش المتقدمين لتنال شرف الجهاد وعليهم من الماذي زغف مضاعف، فكانوا طلائع الجهاد الأولى بعد أن وهبوا مجد الحياة، واستعدوا لمجابهة المشركين، وهذه هي مساعي الكرام الذين يندبون للنوائب، ويستصرخون عند اشتداد الأزمات [5].

وشعر الأسود وثيقة لتخليد الوقائع، وتسجيل لحركة التحرير المتمثلة في الورود على كسرى، ودخول (المدائن) قسراً، وتجاوزهم لجيوش الفرس على

---

(١) تنظر القطعة الاولى والقطعة الحادية عشر من مجمع شعره في مجلة المورد العدد الاول المجلد الحادي عشر ١٤٠٢ - ١٩٨٢.

(٢) تنظر القطعة رقم (١٥).

(٣) تنظر القطعة رقم (١٦).

(٤) تنظر القطعة رقم (١٧).

(٥) تنظر القطعة رقم (١٧).

كثرتها والتوغل في أعماق ديارهم على الرغم من أعدادهم الهائلة، تعطي المؤرخ مجالاً لتوثيق الأخبار المتوفرة عنده، وتضيف إليه حالات جديدة لتصبح الأخبار عنها متكاملة[١]، فهو يذكر (المدائن) ووصوله إلى قصر كسرى بعد أن انهزمت جيوشه وفرت بقاياه[٢].

ويخلد مواكب نعيم بن مقرن وأخيه سويد وهم ينفذون إلى (الري) و(قومس) إستجابة لداعي الواجب، ورعاية لأمر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فيلبيان النداء مع قوافل المجاهدين، فوارس مجربين، يشدون أزرهم بالتلبب[٣] ولا ينسى قدرته في خضم الغارات والمعارك التي كان يشهدها على عبل أسيل، ويترك خصمه نهباً تحجل الطير حوله، بعد أن يقرعه ضرباً بالعضيب المهند[٤] ويتحدث عن المسلمين الذين ساهموا في إخماد حركة الردة، وقاتلوا في صفوف خالد بن الوليد، فيشيد ببطولاتهم إذا حققوا انتصاراً، ويرثي شهداءهم إذا استشهدوا هناك بعد أن يخلفوا الذكر الحسن، فتظل أسماؤهم مرفوعة في كل محفل، كما هو الحال بالنسبة إلى عبد الله بن المنذر ابن الحلاحل الذي استشهد باليمامة مع خالد بن الوليد. ويذكر قتل (بهرام)[٥] وهزائم الخصوم الذين وزعت جثثهم في سواد سفوح بعد أن وجدت فيها مثوى ومحشراً[٦]، ويذكر مقتل (يزدجرد) في (طاحونة) على (الرزيق) بعد أن يلتقي جيشه مع جيوش الفاتحين في (مرو) فتضم أجنحة المسلمين على جانبيهم بطعن صادق، فيولون الأدبار[٧].

---

(١) تنظر القطعة رقم (١٢).

(٢) تنظر القطعة رقم (١٠).

(٣) تنظر القطعة رقم (١، ٢، ٣).

(٤) تنظر القطعة رقم (١، ٢، ٣).

(٥) تنظر القطعة رقم (٥).

(٦) تنظر القطعة رقم (٧).

(٧) تنظر القطعة رقم (٧).

وللري في أحاديثه أخبار كثيرة، فهو يسير مع عروة بن زيد الخيل الطائي من الكوفة بأمر من الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد فتح (نهاوند) فأظهرهم الله على الديلم، ومن تجمع من أهل الري، فكانت لهذه الأحداث والمعارك أصداء واضحة في شعره، بعد أن يجد الحياة في ريفها رضية، والعيش فيها مقبلاً [1] ويذكر (الفرس) وما لاقوه في (القادسية) وسقوط (رستم) ثاوياً [2].

ويقف عند (القادسية) وقفة طويلة وهو يراها بداية لتحول جديد في التاريخ العربي والإسلامي [3]، فيذكر عشية أيام القادسية، وكيف تأزرت الرماح وهي تخفق على رؤوس الفرس ويذكر بلاءه يوم (نهاوند) بعد أن ولى (الفيرزان) إلى الجبل ولكن السيف العربي يدركه فيسقط صريعاً [4] فيمسك به وعندها تفتح مسالك الدروب أمام قوافل المحررين لترفع الراية الإسلامية على إمتداد الطريق إلى بلاد ما وراء النهر، ولتنشر رسالتها وتدعو لمبادئها الإنسانية.

كما يذكر (وادي خرد) وما جرى لجيش الفرس فيها، بعد أن أصبحت أشلاؤهم نهباً للذئاب العواسل [5]، و (لنهاوند) في شعره ذكر متميز، ففيها يحبس خيله لعشر ليال، ويملأ شعابها من رجالهم، ويسقط الفيرزان بعد أن تضيق به كل الساحات الفسيحة فلم ينجه منها إنفساح المخارم [6] وتستوقفه احداث (النهروان) حيث سارت الجيوش الإسلامية [7]. وما ذاقته فلول الفرس يوم (المدائن) من كؤوس الصاب والشبرم، وكان يجد في كسرى رمزاً للهزيمة،

---

(١) تنظر القطعة رقم (١٣).
(٢) تنظر القطعة رقم (١١، ١٢).
(٣) تنظر القطعة رقم (١١، ١٢).
(٤) تنظر القطعة رقم (١٤).
(٥) تنظر القطعة رقم (١٤)
(٦) تنظر القطعة رقم (١٨).
(٧) تنظر القطعة رقم (١٦)

ووجهاً من وجوه الشرك، وعلامة من علامات الذل والقهر، بعد أن تجرع ومن معه أفظع الهزائم، وأكثرها عاراً [١].

أن هذه الخارطة الواسعة التي تحرك عليها الشاعر، وهذه المواقع المتباعدة التي تحدث عنها تمثل الصورة الكبيرة التي كـان يدخل في إطارها وهو يواكب قوافل التحرير، ويؤدي واجباته القتالية بشجاعة، ويوظف شعره الحربي لخدمة المعركة المصيرية التي كانت تخوضها الأمة بشجاعة وهي تؤمن برسالتها الكريمة، وتحمل إلى الناس مبادىء الخير والتقدم، وهي محاولة جديدة لإضافات تاريخية تغني أخبار الفتح، وتضع وثائق أساسية في متناول أيدي الباحثين.

وصوت الحرب في هذا اللون الشعري واضح متميز، تعلو ألفاظه، وتتحرك أدواته، وتزخر دلالته، (فعتاد الحرب) و(الفرسان) و(الضرب) و(الهياج) و(الخيل مشعلة) و(الشعث التي عليها الليوث) و(السمر المثقفة) و(العضب الذي في قنـه شطب) و(الفزع) و(الحروب) و(داعي الصياح) [٢] كلها صور وألفاظ حربية، تعطي قصائده لوناً حربياً، وتزين المضامين التي يقف عليها بوشاح الأدوات المقاتلة.

إن ألفاظ (شددنا أوزارنا) [٣] و(الطعن) [٤] و(القرن الذي تحجل الطير حوله) [٥] و(الضرب بالعضب المهنـد) و(أخـو الهيـج) و(يسعـر الحروب) و(مجهد الحروب) و(عون الحروب) و(الحروب) و(الرماح) و(أيام قادس) و(قديس)

---

(١) تنظر القطعة رقم (١٦).
(٢) تنظر القطعة رقم (١، ٢).
(٣) تنظر القطعة رقم (٢).
(٤) تنظر القطعة رقم (٢).
(٥) تنظر القطعة رقم (٥).

و (السيوف) و (الرمح الريان) و (أبيض الرقاق) و (الكتائب) و (الجهاد) و (الوغى) و (صم القنا) و (الملاحم) وغيرها من الألفاظ التي كانت تتناثر في شعره تؤرخ لكل معركة ، وتصور كل بطولة، وتتحدث عن طبيعة القتال واستخدام السلاح وأشكاله وهيئاته ويركب العبارات التي تضفي على الألفاظ صيغ المجاز أو الإستعارة لتكون أوضح في التعبير ، وأجمل في التناول. وكانت تقاليد البناء الفني للقصيدة تفرض عليه بعض حالات الإلتزام بما هو متعارف عليه وخاصة عندما يحاول أن يفخر بقومه لأنه كان يستشهد عندما يريد أن يفخر بقومه بالمرأة، وهي التي تسأل عن ذلك في العرف التقليدي المتعارف عليه.

إن محاولة جمع أشعار هذا الشاعر تكشف عن وجه جديد من وجوه الأغراض التي ظلت بعيدة عن التناول، وإن شعر هذا الشاعر الذي كان معظمه مطوياً في مخطوطات ما تزال بعيدة عن التناول، تمثل رافداً جديداً من روافد الإغناء الشعري الذي يعطي الحياة الأدبية بعداً جديداً.

إتجاهات جديدة
في شعر الحرب
في القرن الأول الهجري

بقيت الأغراض التقليدية لأغراض الشعر العربي تأخذ مكانتها في البحوث، وفرضت نفسها على كثير من المناهج، وبقيت معها طرق التناول لمعالجة المعاني التي وقفت عندها، والأساليب التي استخدمتها، والعصور التي استعانت بها لتحقيق تلك الدراسات، وقد انعكست هذه الأوجه بشكل حاسم في توجيه كثير من الرسائل التي كتبت والمناقشات التي أثيرت على الرغم من ظهور بعض التيارات التي حاولت أن تضفي عليها جانباً من الجدة والطرافة، ولكن ظلت الطريقة التي تتعامل بها مشدودة إلى الأصول التي حددت خطوات الأغراض، وثبتت أطرافها التي كانت تحاول التحرك بواسطتها للإنقلاب على الدائرة الضيقة التي أخذت بخناق تلك الرسائل أو حالت دون خروجها منها.

وارتفعت في بعض الجامعات والمؤسسات الثقافية أصوات تدعو إلى إعادة النظر في طريقة البحث والكتابة والتناول، وتهيب بالباحثين إلى نشر الكتب التي تعطي الأدب وجهاً جديداً. وتثير فيه تساؤلات معقولة وتغني نصوصه بما تجعله أكثر عطاءً من مضامينها، وصدقاً في التعبير عن خلجات أصحابها الذين حاولوا أن يعبروا من خلالها عن أحاسيسهم الواعية ومشاركاتهم الوجدانية الحية ونوازعهم الإنسانية الطموحة.. ويبدو أن هذه الدعوات كانت أضعف من الصيحات التقليدية وأقل قدرة من التعبير عن حقيقتها وهي تواجه بسيل من الأحكام الجاهزة والقوالب المهيئة.. ولكن إرادة البحث تظل أقوى، وعزيمة

الوعي التي ظلت قناة تمر عبرها تجارب الأمة. أشد قدرة من كل الصيحات. مما أتاح لبعض روافدها أن تخترق السدود المنيعة وتجتاز المتاهات المقفرة ولتجد بعض من قرأ التاريخ فاستوعبه ودرس النص فأحس بكل نبضاته واستلهم التراث فعرف حقيقته.

إن هذه المحاولات كانت مدعاة لإعادة النظر في بعض أغراض الأدب باعتباره وجهاً جديداً من الوجوه التي يمكن أن تفسر بها بعض ظواهره، وهذا ما حملني على أن أتناول الموضوعات المطروحة من خلال وجوه لم تعالج معالجة دقيقة، وأملي كبير أن تكون بداية لفتح الأبواب أمام الباحثين لقراءة الأدب بشكل جديد وإسدال الستار على كل المحاولات التي قرأت الشعر من زوايا التمزق، ووقفت عند فنونه وهي لا تنتقي غير الجوانب السلبية فغرست في نفوس الأجيال الصورة القاتمة وتركتهم نهب الضياع ودفعتهم إلى أن ينظروا إلى أدبهم نظرة لا تتناسب مع عمق تجربته وصدق مشاعره وإنسانية مضامينه.

تأخذ الحرب في العصر الأموي شكلاً متميزاً وحالة لها مقوماتها الجديدة وحالاتها التي أوجدتها طبيعة المرحلة بعد أن توسعت رقعة الدولة وتحركت قوافل جيش التحرير فوق أرض امتدت مساحتها، واختلفت شعوبها، وتعددت طبائعها وأخرجتها، وتمايزت طبيعة أرضها، وأصبح لكل حالة أمر تستدعيه لوازمها، ولكل قضية صورة تستلزمها أحكامها ولا بد أن يصبح الشعراء صوتاً لحركة الأمة، ووسيلة للتعبير عن قدراتها وبعد أن توثقت صلته بالتاريخ، وتداخلت أحداثه في مفاصل وقائعه، وامتدت أصوله إمتداد قضاياه، وتحدثت معانيه عن دواخل نوازعه وعبرت مضامينه عن أقدار قدراته، وألوان حركاته، ومسارات توجهه وهي حالة كانت تفرضها روح العصر وتمليها حركة التاريخ التي أخذت موقعها، واتجهت بكل خصائصها إلى الطريق الذي توحدت فيه الجهود لتحرير الإنسان وبنائه، وتوطيد دعائم الدولة وأركانها وتثبيت حقائق الإيمان الذي حملته الرسالة، لما كان يطويه من مهمات تتصل بمجد الأمة، وتدخل في إطار حاضرها الذي أصبح إمتداداً لماضيها وسجلاً متميزاً من سجلات

فخرها، وأناشيد مجدها وأغنيات بطولتها، بعد أن أكتسيت أغراضه بالحماسة وارتدت معانيه أردية الإشادة بكل مظهر من مظاهرها، وتدافعت فروسية الرجال في كل لون من ألوانها، وشاعت في صوره قدرة الرجال الأشداء الذين واكبوا تسجيل الملاحم وخاضوا غمار الإنتصارات، وكتبوا لصمودهم القتالي أروع صفحات الإنتصار فكانوا رمزاً لكل بطولة، وعنواناً لكل مجد. لقد كانت أحداث التحرير عاملاً حاسماً من عوامل استنهاض الشعر وامتداداً لشعر الأيام والردة وتحرير العراق وبلاد الشام، وكانت إستجابة الشعراء وهم يتابعون أحداث التحرير، ويؤدون أدوارهم فيه، ويخلدون وقائعهم عاملاً آخر من عوامل التأثير التي توافقت فيه القدرة بالحس واتصلت الحماسة بالعمل، وتداخلت التضحية بالإقدام، وتعالت في كل صيحة من صيحاته خوافق القلوب وهي تعبر عن العطاء الكريم الذي يقدمه المقاتلون وتشيد بجحافل المؤمنين الذين باركوا الجهاد وآمنوا بحقيقة الرسالة التي أذن الله بها لهذه الأمة أن تعد نفسها لحملها فكان الشعر مسايراً للحملة، ومعبراً عن عزائم الرجال الذين توغلت نفوسهم في أعماق الأرض الجديدة، والتقت وجوههم بوجوه البشر الذين مسح الظلم بهجتها، وأماتت الغطرسة كل لون من ألوان عزتها وقد صور الشعراء إقتحام المسلمين لقلاع المشركين، واندفاعهم للسيطرة عليها وأساليب القتال التي كانت تستخدم من أجل إخضاعها، فهذا كعب الأشقري وهو شاعر من شعراء الحرب الذين عاشوا أيامها، وسجلوا وقائعها كان سيفاً من سيوف الإقتدار ودرعاً من دروع الذود عن الوجود العربي في تلك المرحلة بعد أن التقت في رحاب ألفاظه ومعانيه صور الأبطال، وبرزت في عيون حربياته خوالد أعمالهم الفذة لأنه كان يعيش أحداث الحرب، ويعرف حرارة القتال، ويعايش آمال المقاتلين الذين كانوا يمنون النفس بالتضحية، ويوقدون لهيب المعركة بالعزائم الكبيرة ويندفعون إلى تحقيق مهماتهم بكل استبشار وكان هذا الشاعر يقدر كل النتائج الخطيرة التي كانت تترتب على هذه الأحداث ويعرف الأهداف التي كانت تقف وراءها وكانت باذغيس قلعة من القلاع التي خلدها الشعر ووقف عندها الشعراء.

فقال فيها كعب بن محدان[1]:

وبـاذغيس التي مــن حــل ذروتها | عـز الملـوك فـأن شـاجـار أو ظلما
منيعـةٌ لم يكـدهـا قبلـه ملـك | إلا إذا واجهـت جيشـاً لـه وجما
تخالُ نيرانَهـا من بُعـد منظـرهـا | بعضَ النجـوم إذا مـا ليلُهـا عتما
لما أطاف بها ضـاقـت صـدورُهُـم | حتى أقـرّوا لـه بـالحكـم فـاحتكما
فـذلّ سـاكنهـا مـن بعـد عـزتـه | يعطي الجزي عارفاً بـالـذل مهتضما

ولم ينس وهو يذكر ما أصاب القلعة بعد أن أذل (نيزك) القائد الفارسي الذي كان يعظم هذه القلعة وكان كلما رآها سجد لها.. فقال:[2]

نفى نيزكـاً عـن بـاذغيس ونيـزك | بمنـزلـة أعيـا الملـوك اغتصـابُهـا
مُحلقـة دون السمـاء كـأنها | غمامـة صيـب زل عنهـا سحـابها
ولا يبلُـغ الأروى شماريخهـا العُلا | ولا الطيرُ إلا نسرُهـا وعقـابها
ومـا خـوفـت ولـدان أهلهـا | ولا نبحـث إلا النجـوم كلابها

وكانت أخبار التحرير تتوالى وهي تشير إلى لقاء العدو وما تذوقه أعداده من مرارة وهي تتوزع طوائف بين قتل وأسر وهزيمة، فتجد لها ملاذاً في رؤوس الجبال وبطون الأودية ومخابيء تتستر فيها بين أحضان الغيطان وأساحل الأنهار وكانت حومات الوغى تتعدد حججاً، وساحات المعارك تزدهي فخراً وزهواً وهي تقف مذهولة لتضحية الرجال الأشداء، ومعجبة بقدرات الميامين الذين لم يجدوا أطيب من الجهاد مذاقاً، ولم يعرفوا غير الإنتصار طريقاً. ولم يجربوا غير الصمود عقيدة، وكان الشعر في كل معركة يسجل مواقف الرجال وهي تظهر صلابة إيمانهم، وبسالتهم التي تتحقق في قدرة المقارعة والمقاومة، وجلال الثبات وهو يتردد أناشيد فخر إلى جانب تسجيله لحركة المقاتلين، الذين ناهضوا خصومهم وقوافل التحرير وهي تخترق تخوم المشركين، وتجتاز حدود المناهضين

---

(1) شعراء أمويون ٢/٤١٦.
(2) شعراء أمويون ٢/٣٩٠.

لحركة التحرير، والمقاومين لرسالة الدين حتى أصبح بإمكان كل المتابعين لقراءة هذا الشعر أن يقرأوا حركة التحرير في إطار هذه القصائد، ويتصوروا قدرة المقاتلين من ثنايا الأبيات وملامح الصور، وخلال المعاني، وامتداد الشعور بالمبادىء من خلال الأحاسيس التي شحنت بها القصائد والمقطعات والأرجاز وقد اصطبغ هذا الشعر بألوان المعارك، وانصرف الشعراء إلى تجسيد الألواح المتحركة في جومة الملاحم وهي تتلون بتصاعد النيران الملتهبة في عتمة الليل المظلم واصطباغ السكون الوديع بوشاح اللهب الذابل، واكتساء المناطق المقفرة بومضات البطولة التي تتفجر عند كل موقعة ففي فتح سمرقند قال كعب بن معدان[1] :

لو كنت طاوعت أهل العجز ما اقتسموا ... سبعين ألفاً وعز السّغد مؤتنف

وفي سمرقند أخرى أنت قاسمها ... لئن تأخر عن حوبائك التلف

ما قدّم الناس من خير سبقت به ... ولا يفوتك مما خلّفوا شرف

وفي إشارات أخرى يذكر فتح كرمان بعد أن يقف وقفات طويلة عند حماية الثغور والإشارة إلى البلاء الذي كانت تبلوه جحافل المقاتلين وهي وفية لعقيدتها فيقول :[2]

هُمُ قادوا الجياد على وجاها ... من الأمصار يقذفن المهارا

بكل مغازة وبكل سهب ... بسابس لا يرون لها منارا

إلى كرمان يحملن المنايا ... بكل ثنية يوقدن نارا

شوازب لم يصبن الثأر حتى ... رددناها مكلمة مرارا

غداة تركن مصرع عبد رب ... يُثرن عليه من رهج غبارا

ويوم الزحف بالأحواز ظلنا ... نروي منهم الأسل الحرارا

فقرت أعين كانت حديثا ... قليلاً نومها إلا غرارا

وكما كانت قوات التحرير تخوض معاركها على الجناح الشرقي من أجنحة

---

(١) شعراء أمويون ٢/٤١٤ .

(٢) شعراء أمويون ٢/٤٠٥ .

الوطن كانت أعداد أخرى من المؤمنين تصنع النصر على الجناح الغربي وهي تسطر بطولات أخرى وتقدم نماذج جديدة من البلاء والإقتحام والمعادلة فلم تعد تدخل سنة تسع وثمانين حتى كانت رايات المسلمين ترتفع فوق حصون الروم وقد حملتها الأذرع القوية، وكان مسلمة بن عبد الملك يقود تلك الجيوش ويحرر الأرض ويرفع عنها أسباب القهر وأصناف التسلط بعد أن بدأت قوى الشر تعد نفسها لمفاجأة المقاتلين، وعندما شعر المسلمون نادى الخليفة عبد الملك بن مروان بالناس وجمعهم في المسجد الأعظم ثم صعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس إن العدو قد كلب عليكم، وطمع فيكم فماذا عندكم من الرأي فأجابه الناس بأحسن الجواب ورغبوا فيما رغبهم فيه من الجهاد وعزموا على ذلك واجتمع الناس من الأمصار بعد ان توجه إليه فرسان الحجاز ورجال اليمن وفرسانها وأجناد مصر والعراق وقبل أن تتحرك قوافلهم اجتمع فيهم فقال: أيها الناس إنكم قد علمتم ما ذكر الله عز وجل في كتابه من فضل الجهاد، وما وعد الله عليه من الثواب ألا وأني قد عزمت أن أغزو بكم غزوة شريفة، بعد أن طغى صاحب الروم وبغى وقد بلغني أنه قد جمع للمسلمين جموعاً كثيرة وعزم على غزوكم ومفاجأتكم في دياركم وقد علمت أن الله مهلكه، ومبدد شمله، وجاعل دائرة السوء عليه وعلى أصحابه وقد جمعهم من كل بلد وأنتم أهل البأس والنجدة والشجاعة والشدة، وأنتم من قام الله بحقه، ولدينه بنصرته، هذا إبني سلمة وقد أمرته عليكم فاستمعوا إليه وأطيعوه يوفقكم الله.. أنتم إخواني وأعواني وهو سيفي ورمحي وسهمي وقد رميت به في نحر هذا العدو، وبذلت دمه ومهجته لله عز وجل ورجوت أن يقضي الله به جيش الروم، فأعينوه وأعضدوه وقوموا معه، فإن أصيب فالأمير بعده عمه محمد بن مروان فإن أصيب فإن عمه محمد بن عبد العزيز، فإن أصيب فاختاروا من بينكم الأفضل فالأفضل والخيار في ذلك إليكم والسلام.

وفي سنة تسع وثمانين كانت قوافل التحرير تنحدر من الجهة الشرقية لتحرر بخارى وبلخ وكان قتيبة بن مسلم الباهلي يقود الجحافل وهو ينتقل من نصر إلى

نصر، وفي كل معركة كان يعطيه الله الظفر على المشركين ويحقق به أمل الامة وفي ذلك يقول نهار بن توسعة: [١]

وباتت لهم منا بخرقان ليلة ... وليلتنا كانت بخرقان أطولا

وتتقدم قوافل التحرير حتى تصل إلى الطاقان وطوزجان ثم يظفر بنيزك صاحب الحصن المشهور بعد أن غدر فنقض الصلح الذي كان بينه وبين المسلمين وامتنع بقلعته وعاد حرباً فغزاه قتيبة وفي مدحه يقول المغيرة بن حبناء: [٢]

أبلغ أبا حفص قتيبة مدحتي ... واقرأ عليه تحيتي وسلامي
يا سيف أبلغها فإن ثناءها ... حسن وإنك شاهد لمقامي
يسمو فتتضع الرجال إذا سما ... لقتيبة الحامي حمى الاسلام
لأغر منتجب لكل عظيمة ... نحر يباح به العدو لهام
يمضي إذا هاب الجبان وأحمشت ... حرب تسعر نارها بضرام
تروي القناة مع اللواء أمامه ... تحت اللوامع والنحور دوام
وبهن أنزل نيزكاً من شاهق ... والكرز حيث يروم كل مرام
وأخاه شقراناً سقيت بكأسه ... وسقيت كأسها أخا بأذام
وتركت صولاً حين صال مجدلاً ... يركبنه بدوابر وحوام

وتبقى كتب الأدب والتاريخ تحتفظ بتراث وفير من أخبار المعارك ويبقى الشعر مواكباً لحركة التاريخ، ملازماً لوصف وقائعها بدقة ومتابعاً تسجيل أخبارها بأحكام، ومعبراً عن نوازع المقاتلين بصدق لأن الشعراء كانوا يقفون إلى جانب المعركة أو يخوضون لهيبها، وكانت معالم الحياة الزاخرة بالإحساس تتجلى وقائع مشهودة، وتبدو خفقات حية، وتنطلق مشاعر وجدانية نقية، وتتعالى في صفوف المقاتلين وجوه الصحابة المشرقة وهي تحمل التاريخ بكل

(١) شهر نهار بن توسعة. مجلة المورد.
(٢) شعراء أمويون ٣/ المستدرك والطبري ٦/ ٤٦٠.

أصدائه، وتعبر عن الجهاد بكل حقائقه، وتنطق بالحقيقة بكل أبعادها، ولم تكن الصورة بعيدة وما تزال وجوه المقاتلين في الجناح الغربي من الوطن العربي من الوطن الكبير تستذكر صورة الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري الذي تجهز للخروج مع المجاهدين فلم يتخلف أحد وكانت آمال الشيخ تزداد إشراقاً وهي تواصل المسيرة مع الأبناء الذين حملوا الأمانة بوفاء، ولما وصلت الجيوش إلى الخليج وهو بحر دون القسطنطينية ثقل أبو أيوب وتفاقم عليه المرض، واشتدت وطأة الأيام عليه حتى أتاه القائد عائداً فقال له: ما حاجتك أبا أيوب؟ فقال: أما دنياك فلا حاجة لي فيها ولكن قدمني ما استطعت - وهم يتوجهون إلى القسطنطينية - في بلاد العدو، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يدفن عند سور القسطنطينية رجل صالح أرجو أن أكون هو، فلما مات وهو على مقربة من السور أمر القائد بتكفينه وحمل على سريره ثم أخرج الكتائب، فجعل قيصر يرى سريراً يحمل والناس يقتتلون، فأرسل إلى القائد ما هذا الذي أرى؟ قال: صاحب نبينا وقد سألنا أن نقدمه في بلادك ونحن منفذون وصيته أو تلحق أرواحنا بالله فأرسل إليه: العجب كل العجب ثم قال: أبوك كان أعلم بك، فوحق المسيح لأحفظنه بيدي..

وكانت عزيمة الصحابي الجليل رمزاً للبطولة النادرة، وهو يتخطى عتبات العمر المديد، ويتجاوز المراحل الطويلة، وقد آلى على نفسه عهداً، وأخذ عليها وعداً بأن يحقق أمنيته إلتزاماً بحديث الرسول الذي سمعه، وتحقيقاً لكرامته التي اقترنت بروح الجهاد والمقاومة، واندفعت بإيمان العقيدة، فكانت ألواناً زاهية في عالم الحرب، وقدرات ماثلة لكل المقاتلين الذين تحركت في قلوبهم نوازع الإستشهاد وهم يقرأون في وجه المجاهد الكبير علامة الرضا ويحققون في صلابته صدق العقيدة ويتلمسون في نبرات صوته دفقات الشعر الإنساني بخلود العمل الصالح الذي وضعه لنفسه وهو يجوب الأرض الفسيحة ويعبر المسالك الوعرة، ويشارك الرجال الأشداء أعباء القتال المشروع، وتظل الكلمات الخالدة التي عبر بها عن جوهره الأصيل هي الصورة الحية لوجوده الذاتي، وتظل نظراته التي

تعلقت بأسوار المدينة العظيمة تخترق كل المسافات والمتاهات لتستقر على جانب من جوانبها الذي لمع في ذهنه حفرة طاهرة تحف بها ملائكة الرحمن، وتنزل عليه فيها شآبيب الرحمة وتلتقي في طياتها نفسه بنفوس الطاهرين من الشهداء الذين مهدوا لرسالة الحق طريق الصواب، وفرشوا دروب التحرير بالدم الطهور، فبارك الله لهم المسعى وحقق بهم النصر وكتب لهم ولكل الشهداء الجنة والخلود.

وتمضي أخبار قتيبة بن مسلم الباهلي الذي ظلت صوره نموذجاً للمفخرة العربية وقدرة للإرادة المؤمنة التي عاشت في نفوس هؤلاء الرجال الذين عرفوا بشدة البأس ورجاحة العقل والإخلاص في المبدأ والذود عن الحمى والدراية في الحرب وتمضي معه قوافي الشعر وهي تحمل روح الإيمان، وتكتب صفحات المجد البطولي فهذا حنظلة بن عرارة التميمي يقف بين يديه بعد أن استقر في خراسان وينشد: [٧]

أتيت خراسان ابن عمرو وأهلها	حيارى ونار بينهم تتحرق
فأطفأتها والعدل منك سجية	وأنت لعمري للسداد موفق
فمرنا أبا حفص بما شئت أننا	إلى كل ما تهوى نخف ونسبق
فأنت لنا راع ونحن رعية	وكفاك بالإحسان فينا تدفق
فلا تأخذنا يا قتيب بما مضى	من الجهل أن الحر يعفو ويرفق

وفي سنة ثلاث وتسعين للهجرة تندفع الجحافل المنتصرة بقيادة قتيبة إلى مرو بعد أن يتم لها عبور نهر صيحون متظاهراً بأنه يريد السغد ولكن إرادة القائد الواعي كانت تتجه إلى هزارسب. وهنا لم يجد خوارزم شاه إلا التسليم لإرادة القائد الذي كانت جيوشه المنتصرة تنهب الأرض بسنابك خيلها، وتشق حجب الظلام بأصوات المقاتلين الأشداء ورجع خوارزم شاه إلى أصحابه ليسألهم رأيهم في المسألة وكان جوابهم نقاتله ولكنه كان يعلم النتائج المحسوبة ويقدر النهاية التي يمكن أن ينتهي إليها هو وجيشه، ويجيب دهاقينه وأحباره وملوكه: ولكني لا أرى ذلك فقد عجز عنه من هو أقوى منا وأشد شوكة ويدخل القائد

وجيشة المنتصر مدينة فيل ويجد الشاعر كعب بن معدان الفرصة مؤاتية ليقول:[1]

رمتك فيل بما فيها وما ظلمت ... ورامها قبلك الفجفاجة الصلف
لا يجزىء الثغر خوار القناة ولا ... هش المكاسر والقلب الذي يجف
إني رأيت أبا حفص تفضله ... أيامه ومساعي الناس تختلف
لو كنت طاوعت أهل العجز ما اقتسموا ... سبعين ألفاً وعز السغد مؤتنف
وفي سمرقند أخرى انت قاسمها ... لئن تأخر عن حوبائك التلف
ما قدم الناس من خير سبقت به ... ولا يفوتك مما خلفوا شرف

وتظل صورة التحرير هي الصورة المتحركة في ذهنه، وتبقى قدرة القتال هي الحد الفاصل بين قوة الإندفاع وقناعة الرضوخ، وتظل الحدود التي كانت تتحرك في خارطة التحرير هي المدى المكاني والزماني لتطلع المقاتلين الذين حملوا أمانة الإنسان المتحرر، وامتلكوا حرية التعبير عن طاقات الدفاع المتمكنة في قلوب المؤمنين، وينصرف القائد إلى نفسه ليعد العدة لتحرير أرض جديدة وإنقاذ مجموعة أخرى من البشر التي كتب عليها أن تتلوى تحت سياط الشرك، وتستعبد في ظل السيطرة الكسروية المتغطرسة، وبينما القائد المتمكن يدرس الطبيعة السوقية للمعركة القادمة، يدخل عليه المجشر بن مزاحم السلمي وهو يحمل إليه حاجة ويطلب إليه أن يكون حديثه معه منفرداً، ويخلي الآخرين الذين كانوا معه بعبارة واثقة وتمكن حصيف، وكلمة مسؤولة يباشر القائد بقوله: إن أردت السغد يوماً من الدهر فالآن، فإنهم آمنوا أن من تأتيك من عاملك هذا وإنما بينك وبينهم عشرة أيام، وتتسع نظرة القائد وهو يتطلع إلى الفارس الشامخ حياله، ويتساؤل جدي صريح يقول له: هل أشار عليك هذا أحد؟ ويحاول الفارس أن يستذكر كل الأحداث في ذهنه، ويعود إلى نفسه وهو واثق منها ليقول: لا. ثم يعود القائد ليسأل ثانية زيادة في الحيطة وتأكيداً

(١) شعراء أمويون ٢/٤١٣.

لكتمان سرية التحرك في ظل هذا الظرف فهل أعلمته أحداً؟ وبثقة أقوى وحديث أشد سرية وكتماناً يجيب الفارس لا. ويقف قتيبة وتبدو على وجهه الصرامة والحدة، وتتدفق الكلمات قوية مندفعة وهي تخاطب الفارس والله لئن تكلم به أحد لأضربن عنقك، ويخرج الفارس وهو حريص على تجميع كل الكلمات التي ترددت في غرفة القائد. وحريص على التقاط كل الأصوات التي كانت تصاحب هذا الحديث الخطير ويقوم القائد يومه ذلك حتى أصبح من الغد فدعا عبد الرحمن ومضى عبد الرحمن وقال له: سر في الفرسان والمرامية،وقدم الأثقال.إلى مرو فتوجهت الأثقال إلى مرو، ومضى عبد الرحمن يتبع الأثقال يريد مرو يومه كله فلما أمسى كتب إليه: إذا أصبحت فوجه الأثقال إلى مرو وسر في الفرسان والمرامية نحو السغد وأكتم الأخبار فإني بالأثر. وخطب قتيبة الناس فقال: أن الله فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه ممكن وهذه السغد شاغرة برجلها قد نقضوا العهد الذي كان بيننا، منعونا ما كنا صالحنا عليه طرخون وصنعوا به ما بلغكم وقال الله فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، فسيروا على بركة الله وإني أرجو أن يكون خوارزم والسغد كالنضير وقريظة وقال الله: وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها [1].

لم يكن غريباً على المقاتل العربي وهو يتوغل في بلاد ما وراء النهر ان يتحلى بمعظم الصفات القيادية التي أهلته لتسجيل النصر وتحقيق الخطط الحربية المبدعة بعد أن استجمع من الخصائص العسكرية ما جعله قادراً على التحكم في كثير من الوقائع فالبراعة العسكرية كانت صورة من صور القيادة التي استطاعت أن تحكم قبضتها وتدير دفة المعارك بإحكام وتبدي من ضروب الشجاعة والإقتدار وقوة الجلد والمصابرة وما هيأ لها من فرصة التقدم وتحقيق النصر الحاسم واستخدام كل الوسائل الممكنة من تسلل عبر الجبال واقتحام مباغت واستعمال الهجوم الليلي والتقدير السريع للمواقف وزعزعة معنويات الخصوم وتوجيه الضربات الماحقة لقوى الشرك والبغي ولم يكن القائد بعيداً عن استحضار الجانب النفسي لطبيعة

(١) الطبري. تاريخ الطبري ٦/٤٧٢.

السكان الذي يقترب منهم أو يجابهم أو يتحادث معهم، فعندما دخل قتيبة بن مسلم تلك الديار وأصبح على مقربة من الصين سنة ست وتسعين كتب إليه ملك الصين أن إبعث إلينا رجلاً من أشراف من معكم يخبرنا عنكم، ونسأله عن دينكم، فانتخب قتيبة من عسكره إثني عشر رجلاً من أفناء القبائل، لهم جمال وأجسام وألسن وشعور وبأس. وبعدما سأل عنهم فوجدهم من صالح من هم منه فكلمهم قتيبة، وفاطنهم فرأى عقولاً وجمالاً، فأمر لهم بعدة حسنة من السلاح والمتاع الجيد من الخز والوشي واللين من البياض والرقيق والنعال والعطر وحملهم على خيول مطهمة تقاد معهم، ودواب يركبونها، وكان هبيرة بن المشمرج الكلابي مفوهاً بسيط اللسان، فقال: يا هبيرة كيف أنت صانع؟ قال: أصلح الله الأمير، لقد كفيت الأدب، وقل ما شئت أقله وآخذ به، قال: سيروا على بركة الله وبالله التوفيق، لا تضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد، فإذا دخلتم عليه فأعلموه أني قد حلفت ألا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم.

قال: فساروا عليهم هبيرة بن المشمرج، فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم، فدخلوا الحمام ثم خرجوا فلبسوا ثياباً بيضاً تحتها الغلائل ثم مسسوا الغالية وتدخنوا ولبسوا النعال والأردية، ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته فجلسوا، فلم يكلمهم الملك ولا أحد من جلسائه فنهضوا، فقال الملك لمن حضره: كيف رأيتم هؤلاء؟ قالوا رأينا قوماً طابت ريحتهم.. قال: فلما كان الغد أرسل إليهم فلبسوا الوشي وعمائم الخز والمطارف وغدوا عليه، فلما دخلوا عليه قيل لهم ارجعوا. فقال لأصحابه: كيف رأيتم هذه الهيئة؟ قالوا: هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى وهم أولئك. فلما كان اليوم الثالث أرسل إليهم فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر وتقلدوا السيوف، وأخذوا الرماح، وتنكبوا القسي وركبوا خيولهم، وغدوا فنظر إليهم صاحب الصين فرأى أمثال الجبال مقبلة فلما دنوا ركزوا رماحهم، ثم أقبلوا نحوهم مشمرين فقيل لهم قبل أن يدخلوا: ارجعوا، لما دخل قلوبهم من خوفهم، فانصرفوا وركبوا خيولهم

واختلجوا رماحهم ثم دفعوا خيولهم كأنهم يتطاردون بها فقال الملك لأصحابه كيف ترونهم؟ قالوا: ما رأينا مثل هؤلاء قط. فلما أمسى أرسل إليهم الملك أن ابعثوا إلي زعيمكم وأفضلكم رجلاً فبعثوا إليه هبيرة، فقال له حين دخل عليه قد رأيتم عظيم ملكي وأنه ليس أحد يمنعكم مني، وأنتم في بلادي وإنما أنتم بمنزلة البيضة في كفي، وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقني قتلتكم قال: سل. قال: لم صنعتم من الزي في اليوم الأول والثاني والثالث؟ فقال: أما زينا الأول فلباسنا في أهالينا وريحنا عندهم، وأما يومنا الثاني فإذ أتينا أمراءنا، وأما اليوم الثالث فزينا لعدونا، فإذا هاجنا هيج وفزع كنا هكذا. قال: ما أحسن ما دبرتم دهركم، فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له: ينصرف فإني قد عرفت حرضه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه، قال له: وكيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون، وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً وغزاك وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل. فلسنا نكرهه ولا نخافه. قال: فما الذي يرضي صاحبك قال: أنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطي الجزية [1].

وبقي اسم هبيرة بن المشمرج رمزاً من رموز القدرة والجرأة، وبقيت ألفاظه الرائعة وتصرفه الشجاع صوتاً من أصوات الحق الإنساني الذي أراد لأبناء بلاد ما وراء النهر الحياة الحرة الكريمة، والسعادة التي حملتها قوافل التحرير وهي تقطع الأرض الصعبة، وتجتاز الجبال الوعرة، وتقتحم الحصون المنيعة ولكن قدرة الرجال الذين آمنوا بالحق، وترسخت أصول الإيمان في قلوبهم كانوا أقوى من كل العوائق، وأشد من كل الأعداد الكبيرة التي كانت تتوزع من الخوف، وتتبعثر من السيول الهادرة، والسيوف المصلتة، والرماح المشرعة وكان هبيرة موضع إعتزاز الشعراء الذين وجدوا فيه صورتهم الرائدة وحققوا في ذاته قدرة الإنسان المقاتل وتلمسوا في سلوكه الفذ براعة الرجل المقتدر فهذا سوادة بن عبد الله السلولي يقول في الوفد الذي قابل ملك الصين: [2]:

(١) الطبري ٧/٥٠٢.
(٢) الطبري ٦/٥٠٣.

لا عيب في الوفد الذين بعثتهم	للصين إن سلكوا طويل المنهج
كسروا الجفون على القذى خوف الر	دى حاشا الكريم هبيرة بن مشمرج
لم يرض غير الختم في أعناقهم	ورهائن دفعت بحمل سرج
أدي رسالتك التي استرعيته	وأتاك من حنث اليمين بمخرج

وعندما توفاه الله كان لوفاته رنة حزن، ومبعث أسى في نفوس الرجال الذين وجدوا في فقده خسارة، وعرفوا في بعده موقعاً لا يسد فقال فيه سوادة [1]:

لله قبر هبيرة بن مشمرج	ماذا تضمن من ندى وجمال
وبديهة يعيا بها أبناؤها	عند احتفال مشاهد الأقوال
كان الربيع إذا السنون تتابعت	الليث عند تكعكع الأبطال
بكت الجياد الصافنات لفقده	وبكاه كل مثقف عال
وبكته شعث لم يجدن مواسياً	في العام ذي السنوات والأمحال

إن قدرة القائد العربي كانت تتمثل في طريقة قتاله واستعداده وتهيئته للغزوات التي كان يعد نفسه إليها، ويهيىء الوسائل الكفيلة بالنجاح فقد كان قتيبة بن مسلم الباهلي إذا رجع من غزواته كل سنة إشترى إثني عشر فرساً من جياد الخيل، وإثني عشر هجيناً، لا يجاوز بالفرس أربعة آلاف، فيقام عليها إلى وقت الغزو، فإذا تأهب للغزو وعسكر قيدت وأضمرت، فلا يقطع نهراً بخيل حتى تخف لحومها، فيحمل عليها من يحمله من الطلائع.. وكان إذا بعث بطليعة أمر بلوح فنقش ثم يشقه شقتين فأعطاه شقة، واحتبس شقة لئلا يصنع مثلها ويأمره أن يدفنها في موضع يصفه له من مخاضة معروفة. أو تحت شجرة معلومة أو خربة ثم يبعث بعده من يستبريها ليعلم أصادق في طليعته أم لا.

وبقيت بطولة قتيبة وبطولة جنده الميامين الذين كتبوا على صفحات أرض ما وراء النهر أروع الملاحم البطولية أغنية يرددها الشعراء وأناشيد فخر ترتسم على شفاه المقاتلين كلما ذكر النصر، وتجددت أيام المجد القتالي ـ فالكميت يذكر

---

(١) الطبري ٦/٥٠٣.

غزوة السغد وخوارزم فيقول:[1]

وبعد في غزوة كانت مباركة	تردى زراعة أقوام وتحتصد
نالت غمامتها ليلاً بوابلها	والسغد حين دنا شؤبوبها البرد
إذ لا يزال له نيب ينفله	من المقاسم لا وخش ولا نكد
تلك الفتوح التي تدلي بحجتها	على الخليفة أما معشر حشد
لم تثن وجهك عن قوم غزوتهم	حتى يقال لهم بعداً وقد بعدوا
لم ترض من حصنهم إن كان ممتنعاً	حتى يكبر فيه الواحد الصمد

إن محاولة اقتحام الأرض الجديدة كانت تتطلب من القائد العربي خبرة متميزة وقدرة لها خصائصها حتى تكون قادرة على تسجيل الإنتصار في ظروف عسكرية صعبة وعوامل جغرافية وتضاريس أرضية وواقع بشري له ظروفه، وهي عوامل كانت لا تستجيب إلا للقائد المتمكن، ولا تذلل إلا للمؤمن المقاتل، فعوامل الغربة لها وجوهها، وأسباب الهيبة في هذه المجاهل لها تأثيراتها، إن هذه الأسباب كانت سبباً مباشراً من أسباب إختيار القائد الفذ الذي توفرت فيه عوامل القيادة وتمكنت في نفسه أسباب العزيمة، وترسخت في قدرته صورة الإيمان بالنصر وهو يندفع بعقيدة صادقة، ويقاتل بثقة عالية، ويحقق الظفر باعتزاز وتمكن، وهنا كانت قدرات القائد تظهر لتطوي كل الأسباب الجديدة التي واجهت القوى المؤمنة فكان إستيعابه لواقع المنطقة،وبراعته العسكرية الفذة وتحمل مسؤوليته وضبطه حركة جنده واستعانته بالوسائل التي تحفظ تحركاته واعتماده عناصر المباغتة والإقتصاد في القوة، وإضعاف معنوية الخصم وإستخدام الوسائل التي تؤكد للعدو قدرة المقاتلين واستبسالهم وثباتهم واقتدارهم.. وغيرها من العوامل التي كان القائد يراها مناسبة لإنزال الهزيمة بالعدو وإخضاعه لإرادة العدل وكان القادة ينتهزون كل فرصة يجدون فيها منفذاً ويتجنبون كل محاولة تحقق لخصومهم الظفر، وتوصلهم إلى أهدافهم، وخاصة إذا كانوا في مواقع

---

(١) الطبري ٦/٥٠٤.

الحصار أو ضاقت عليهم السبل في اقتحام مدينة.

إن الذي يتابع حركة التحرير العربية التي انتشرت في بلاد ما وراء النهر كان يرى لوناً جديداً من القتال، وصوراً جديدة من المقاومة تمثلت في طبيعة المدن وحصونها، والعوارض الطبيعية التي كانوا يتخذون منها قلاعاً وحصوناً ويجدون فيها سدوداً تقيهم صولة الرجال وتمنع عنهم قوة إندفاعهم فعند فتح جرجان كانت المدينة حصينة لا يحتاجون أهلها إلى عدة من طعام ولا شراب فلما قدم إليها يزيد بن المهلب نزل عليها وقد تحصن أهلها وكانت حولها غياض وليس يعرف لها إلا طريق واحد. فأقام بذلك سبعة أشهر بعد أن لم يستطع العثور على منفذ يمكن أن يدخل إليها منه، فالمدينة كان لها مأتى واحد كانوا يخرجون في الأيام القليلة فيقاتلون ويرجعون إلى حصنهم، وبينما هم على هذه الحالة إذ خرج رجل من عسكر يزيد وهو من طيء يريد الصيد فأبصر وعلا يرقى في الجبل فأتبعه وقال لمن معه قفوا مكانكم ووقل في الجبل يقتص الأثر فما شعر بشيء حتى هجم على عسكرهم فرجع يريد أصحابه: فخاف ألا يهتدي فجعل يخرق قباءة ويعقد على الشجر علامات حتى وصل إلى أصحابه، ثم رجع إلى العسكر، فأدخل على يزيد فأعلمه وضمن له على شيء سماه له فقال له ما عندك؟ قال: أتريد أن تدخل وجاه بغير قتال؟ قال: نعم. قال: جعالتي؟ قال: احتكم، قال: أربعة آلاف فأمر له بأربعة آلاف وندب الناس، فانتدب ألفاً وأربعمائة فقال: الطريق لا يحمل هذه الجماعة لالتفاف الغياض، فاختار منهم ثلاثمائة فوجههم واستعمل عليهم جهم بن زحر، وقال له: إن غُلبت على الحياة فلا تُغلبن على الموت، وإياك أن أراك عندي منهزماً ثم قال له: متى تصل إليهم؟ قال: غداً عند العصر فيما بين الصلاتين، قال: امضوا على بركة الله فإني سأجهد على مناهضتهم غداً عند صلاة الظهر، فساروا، فلما قارب انتصاف النهار من غد أمر يزيد الناس أن يُشعلوا النار في حطب كان جمعه في حصاره إياهم فصيره أكاماً فأضرموه ناراً فلم تزل الشمس حتى صار حول عسكره أمثال الجبال من النيران، ونظر العدو إلى النار، فهالهم ما رأوا من كثرها، فخرجوا إليهم وأمر

يزيد الناس حين زالت الشمس فصلوا فجمعو بين الصلاتين ثم زحفوا إليهم فآقتتلوا، وسار الآخرون بقية يومهم والغد، فهجموا على عسكر العدو قبيل العصر وهم آمنون من ذلك الوجه، ويزيد يقاتل من هذا الوجه فما شعروا إلا بالتكبير من ورائهم فآنقطعوا جميعاً إلى حصنهم، وركبهم المسلمون فأعطوا بأيديهم، ونزلوا على حكم يزيد[1] ، فتم لهم النصر بعد أن استطاع االقائد المقتدر أن ينتفع من براعة المحاصرة وكيفية الإقتحام وتقدير الموقف ودقة الملاحظة.

لقد كانت عقيدة المؤمنين بالنصر نابعة من إيمانهم بنصر الله وعزه مرتبطة بالثقة الأكيدة التي كان جند المؤمنين يتمتعون بها، فالقتال ليس بالكثرة. ولا بالعدة، لأن الإيمان بالله والإخلاص له، والإستشهاد من أجل الحق عامل حاسم في كثير من الأحيان، وقوة مقتدرة في كثير من المعارك الحاسمة وكثيراً ما كان القادة يؤكدون هذه الحقيقة عند بداية هجوم، أو القيام بتقدم فعندما قدم سعيد بن عمرو الحرشي خراسان والناس بإزاء العدو حثهم على الجهاد وقال: إنكم لا تقاتلون عدو الإسلام بكثرة ولا بعدة. ولن بنصر الله وعزه فقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله وقال:[2]

فلست لعامر إن لم تروني	أمام الخيل وأطعن بالعوالي
فأضرب هامة الجبار منهم	بعضب الحد حُودث بالصقال
فما أنا في الحروب بمستكين	ولا أخشى مصاولة الرجال
أبي لي والدي من كل ذم	وخالي في الحوادث خير خال
إذا خطرت أمامي حي كعب	وزافت كالجبال بنو هلال

ولم يعد الخصوم من إبتكار الأساليب التي كانوا يجدون فيها فرصة للإفلات

---

(١) الطبري ٦/٥٤٢ ـ ٥٤٣.

(٢) الطبري ٦/٦٢٠ ـ ٦٢١.

أو مجالاً للهزيمة أو محاولة للإيقاع بجند المسلمين، ولكن النتائج التي تنتهي إليها كانت وبالاً عليهم، فعندما تقدم سعيد بن عمرو الحرشي إلى جنده كان المشركون قد حفروا في ربضهم وراء الباب الخارجي خندقاً وغطوه بالقصب وعلّوه بالتراب مكيدة، وأرادوا إذا التقوا ان إنهزموا أن يكونوا قد عرفوا الطريق، ويشكل على المسلمين فيسقطوا في الخندق، ولم تكن المكيدة هذه غائبة عن أعين المؤمنين الذين كانوا يرصدون حركات العدو، ويتابعون تحركه ويقفون على كل محاولة من محاولاته، ولم تكن صورة المكيدة التي رافقت حياة أولئك المشركين بعيدة بعد أن كان جند التحرير يكتشفون في كل يوم واحدة منها، ولكن يقظة العيون الساهرة ونباهة القائد الواعي، كانت تفوت عليهم الفرص، وتسقط عليهم أركان حججهم. كان جند المؤمنين يقفون على باب المدينة وكانوا ينتظرون الإشارة التي تعلن البداية لينهوا لقيتهم وحمل رجل من العرب وكان بيده عمود كبير، فضرب باب المدينة ففتح. وخرج المشركون لمجابهة المؤمنين ولم تكن إلا لحظات حتى انهزمت فلولهم، وتبعثرت أجسادهم وتوزعوا أعداداً وكانوا يظنون أن الطريق أمامهم ممهدة، والعلامات التي وضعوها معروفة ولم يعلموا أن ساعة الحرب حرجة، وأن وقع السلاح كان يخطف الأبصار، ويفقد المشركين صوابهم، فتاهت بهم المسالك وضاعت الدروب، واخطأوهم الطريق، فسقطوا في الخندق، وتوالت عليهم الضربات وهي تتهاوى على رؤوسهم.. وهنا كان الجانب الإنساني يتحكم شأنه في كل مرة تتمكن فيه قوى الخير من الغلبة وامتدت الأيدي لتخرج الرجال من الخندق وكان على كل منهم درعان ولاذت بقيتهم تستصرخ العون، وتطلب النجدة، ولما لم يجدوا بداً من الإستسلام سألوا الأمان وطلبوا الصفاح والغفران والعودة إلى السغد وكانت شروط القائد المنتصر تتحدد في رد ما في أيديهم من نساء العرب وذراريهم. وان يؤدوا ما كسروا من الخراج وعدم التعرض لأحد وألا يتخلف منهم بخجندة أحد فأن أحدثوا حدثاً حلت دماؤهم وكان السفير فيما بينهم موسى

ابن مشكان مولى آل بسام [1] .

ولم يلتزم أهل السغد بشروطهم كعادتهم فكانت نهايتهم نهاية كل الناكثين بعهدهم، وكان موقفهم الشائن مدعاة لوقوعهم تحت طائلة النتائج التي وعدوا بها وتظل قوافل المحررين تلقن الأعداء دروساً في التربية والأخلاق، فان أدركوا جوهرها والتزموا بها كان وفاءً على المسلمين حمايتهم، وإلا فان الحق يأبى أن يظل الجناة يتمادون في غيهم.

فالشعر الذي حمل الصورة الحقيقية للناس، ومعانيه التي عبرت عن الذات بصرف النظر عن الدوافع والنوازع التي تحكمت فيها، وصوره التي استوحاها الشعراء أمام زحف الأمة وهي تضع أقدامها على أرض عاش عليها الإنسان ضائعاً واستخدم أجيراً ودُفِع إلى المهالك وهو غير قادر على تحديد مصيره.. وتواجه أقواماً قتل الشرك طموحهم. وأذل القهر إرادتهم، وكبت الجبروت نزعتهم وتتحدث مع اناس لم يسبق لها أن سمعت لغتها واستوعبت رسالتها، وأدركت سر حركتها ولا بد أن تكون هذه الطلائع قد عرفت أبعاد هذه الحالة الجديدة، وتلمست مواطن المسؤولية التي يمكن أن تقدمها وهي تتحرك بقوة الإيمان وتندفع بعقيدة التوحيد وتقاوم بصلابة الرسالة التي عرفت في رجالها الأوائل حقيقة الصوت الإلهي، وجوهر الوجود الإنساني، وعمق التوجه الذي يمسح عن وجوه البائسين كل إمارات البؤس المرير وأخاديد الإستعباد القاتل.. كان الشعر يحمل هذه المعاني وهو يندفع إلى الأرض المحررة ويتوغل إلى أعماق الإنسان ويصور نزعات الإنتصار ويحقق الهدف السامي الذي وضعه لنفسه وحددته له قيمه الرفيعة وهو يقطع الأرض الوعرة ويتجاوز المرتفعات المجهولة فتتهاوى أمام عزيمته أشد القلاع تحصناً وتندحر تحت ضربات قدرته أكبر الجيوش عدة وعتاداً وتذل لتمكن صلابته أقسى النفوس حقداً وأقواها شكيمة،

---

(١) الطبري ٨/٧ .

وأعنفها عناداً ولهذا كانت مقطعاته ألواناً معبرة، وقنوات جديدة فرضتها طبيعة الحياة العسكرية، ووجهتها المعارك الحاسمة، وطبعتها الأحداث التي كانت تواكب التحرير وتدخل أطرافاً مكملة، وحالات متداخلة، وكان الشعراء المقاتلون يحملون ألوية الإبداع الفني ليضعوا من خلال مواقفهم الألوان المناسبة، ويكتبوا بقدرة الواقعية الحقة. روائع التضحيات التي لم يجد فيها استعادة لنموذج، أو استخداماً لصورة غريبة، وكما عرفت هذه المقطعات صورة المباشرة في معالجة الحدث، والتعجيل بتقديم النماذج المتحركة لتعطي القصيدة بُعدها الحربي، واستخدام الصياغة الدلالية الحية، فقد عرفت هذه المقطعات الإبتعاد النسبي في كثير منهامن التقاليد الفنية التي كانت تلتزم بها القصيدة وهي بعيدة عن المعركة ، ويؤديها الشاعر وهو في اكتمال فكري وراحة هادئة وانبساط نفسي.

ولهذا كان الشاعر يتعامل مع الحدث من خلال القنوات التقليدية التي يجد في استثارة الطلل داعياً للحديث عن الغربة، وفي ذكر الأحبة إستجابة لمشاعر الإحساس بالعواطف، وفي أحاديث الربوع العافية والمواطن الدارسة إلتزاماً بالأرض التي تشد بينه وبين كل الذكريات العزيزة، وهنا كانت قدرته القتالية تتجسد في تعبيره الوجداني، وصموده البطولي ليتحول إلى أناشيد فخر واعتزاز يودع فيه كل الأماني الرائعة ويسرب في بطون قوافيه خوافقه الأصيلة وهي تشعر بالسعادة تغمر كل جانب من جوانب حياته الحربية، وتعطيه الدفقات الحارة التي يروي فيها ظمأ الآمال الكبيرة التي بقيت تلح عليه لإستكمال رسالته التي آمن بها وجاهد في سبيل تحقيقها.

وكانت جيوش المؤمنين التي اتجهت إلى بلاد ما وراء النهر تستمد عزيمتها من بطولات القادسية التي وضعت بداية موفقة للإنتقال إلى واقع جديد تحركت فيه عناصر الإقتدار وتوافقت في قيادته روح الإبداع وبرزت في كل مجالاته صورة التمكن الفذ والتحدي الواضح والقيادة الحكيمة، لبناء الوجه الجديد الذي

تحددت كثير من معالمه في ضوء التخطيط الفكري والإنساني، وبعد القادسية كانت المعارك الأخرى مثل نهاوند التي سجل فيها جند المؤمنين صفحات أخرى وبطولات رائعة، وإنتصاراً حاسماً ترك على وجه التاريخ أفضل المشاهد وحقق في ذات الأحداث أجل الأمجاد حتى أجمع على تسميتها بفتح الفتوح بعد أن وسعت أبواب الحدود الشرقية وتركتها مشرعة أمام قوافل المحررين الذين سالت بهم البطاح فكانوا في كل مدينة أعلام هداية، وعند كل حصن رايات مجد وعنوانات خلود، ومثل القادسية ونهاوند كانت المعارك الأخرى الحاسمة وكانت الأيام التي لم يترك الشعر فيها جانباً إلا روى أخباره، ولم يترك واقعاً إلا سجل وقائعه فكانت له مواقفه المشهورة وكانت للشعراء حالاتهم التي لم يقف تاريخ الأدب عليها حتى هذه اللحظة ليدرس الأدب من خلالها، وليقدم مواقف الشعراء من حيث مشاركتهم في أحداثها، وتضحيتهم في سبيلها، وجهادهم المستميت في كل طرف من أطرافها، ولقد كان الشعر تعبيراً صادقاً على أفواه الجند وهم ينتقلون من مكان إلى آخر ويطاردون الفرس من مدينة إلى مدينة ويقتحمون القلاع والحصون، وكان الشعر في كل صوره صوتاً من أصوات التاريخ الحقيقي، وحركة متناسقة من حركات الوجدان الأصيل الذي لم يخضع لكل هوى، ولم يتأثر بكل رواية ولم ينطلق إلا وفق المقاييس التي كانت تحددها المعارك وكثيراً ما كانت أحداثه التي تمر عبر قوافيه إلتصاقاً بنفوس المقاتلين وما يدور في علاقاتهم ونفوسهم وحياتهم اليومية ونوازعهم الذاتية وعواطفهم التي كانت تقترن بكل عمل من أعمالهم وتدخل في كل حكاية من حكاياتهم حتى في أشد اللحظات حراجة وأعنفها تأزماً، وإذا كانت قيادات سعد والقعقاع وعاصم والمثنى وأبو عبيدة والنعمان بن مقرن قد أخذت مواقعها في فتوح العراق وملأت مساحاتها في أيام الإنتصار فإن الأحنف بن قيس كان من أوائل الفاتحين الذين حرروا نيسابور ومرو الروز ومرو الشاهجان وطوس وهراة وبلخ وطاردوا فلول المنهزمين، ولم تكن هذه الأحداث الكبيرة بعيدة عن الشعر، ولم تكن دقائقها

خارجة عن إطاره وإنما كانت تعيش مع قلوب الشعراء الذين لونوا حدود التاريخ ببطولاتهم. وطرزوا صفحات المجد بدمائهم، فكان المغمورون منهم أكثر من المعروفين، وكان المبدعون من الذين كان الشعر ينساب على ألسنتهم أوسع قاعدة فهذا مقاتل عربي شارك في القتال وأبدى من البطولة ما يستحق التقدير وصاحب قوافل المحررين وهي تمر على كل المدن المحررة وقد وجد نفسه ملزماً بالوقوف عندها فقال[1] :

ونحن وردنـا مـن هـراة منـاهلاً	رواء من المروين ان كنـت جـاهلا
وبلـخ ونيسـابـور قـد شفيـت بنـا	وطـوس ومـرو قـد أزرن القنـابلا
أنختـا عليهـا كـورة بعـد كـورة	نُفضُّهـمُ حتى احتـوتنـا المنـاهلا
فللـه عينـاً مـن رأى مثلنـا معـاً	غداة أزرنا الخيـل تـركـاً وكـابلا

لقد ظل العناد الفارسي حالة تنعكس في مجال من مجالات الحياة العسكرية وبقيت صورة الأحلام بإعادة المجد الكسروي تطوف في أذهان القيادة الفارسية التي كانت تتلقى أعنف الضربات على يد الجيش الإسلامي وفي كل معركة من معارك التحرير، وكان هذا العناد يتجسد وفق حالات العناد الذي تعيشه تلك القيادة فهي تأخذ صيغة تجمع تعد له كل أسباب التجمع، أو هجوم توجه إليه أعداداً هائلة من الذين دنت آجالهم، وقربت مصائرهم، أو حصون يعتقدون أنها تحميهم أو سدود كانوا يظنون أنها تمنع عنهم سيول المجاهدين الذين استرخصوا الدماء دفاعاً عن الأرض وإيماناً بالعقيدة وحماية لكل ما يدافع عنه الإنسان. وقد تزايد بنو كنازا وهم أخوال كسرى بنيسابور وحاولوا أن يجمعوا صفوفهم ويستردوا أنفسهم بعد أن تتالت عليهم الضربات، وتجرعوا مرارة الهزيمة والخذلان ولم يكن الشعر بعيداً عن الأحاسيس التي كان الناس يستشعرون بها وهم يرون المكر الفارسي يتجمع والكيد المجوسي يعد العدة لإستعادة ما ذهب منه وما خسره.

ويبقى الشعراء الذين واكبوا حملة التحرير يحملون أرواحهم مع المجاهدين

(١) ياقوت. البلدان ٢/٤١١.

ويعيشون المعارك بكل إحساسهم، ويقرأون مفردات الحياة بكل مشاعرهم، ويقفون على دقائق الأحداث بكـل تصـوراتهم، يـرصـدون الخفقـة الهامسـة، ويلتقطون الصوت الأصيل ويتابعون روح المقاتلين وهي تواجه الأحداث بجرأة، ويتلمسون أقدامهم وهم يقتحمون المواقف الصعبة، ولم تكن سيوفهم بعيدة عن المعركة ولا خيولهم غريبة عنها فهم أبنـاء المعـارك يحرضـون الرجـال وهـم في سورتها، ويستذكرون الوقائع الخالدة، وهم في محاورها الدائرة، ولا بد أن تكون المعاني الصادقة صورة الوجدان الحي، والصور الدقيقة لوحدة الحس المقتدر، والكلمة المعبرة عن قدرة المقاتل الجريء الذي حمل النفس وهي رخيصة في سبيل المبدأ، وجاهد في سبيل الله وهو مؤمن بالقدر.. ومن هنا كانت لمسات الشعراء وهم يشاركون المقاتلين أو أنهم كانوا جزءً لا يتجزأ من وحدة المقاتلين، صادقة وقد تتجاوز في بعضها أحداث التاريخ التي قرأناها لأن المؤرخين عودونا على أن يقفوا عند الحدث الكبير. ويذكروا في بعض الأحيان خيال الحقائق لبعدهم عنها، وإعتمادهم في نقلها على وثائق ربما ظلت تتحدث عن الوجه الواحد، أو كتبت تحت تأثير عوامل معينة، أو اختارت من الأحداث ما يوافق إتجاه المؤرخ، أو عوامل أخرى لا يمكن أن تحصر في هذا الإطار، وهنا كانت تتجلى حصافة المؤرخين الذين يقدرون على استشفاف الأخبار وتحليل الوقائع، وقراءة المواقف التي يمكن أن تغير في بعض الأحيان صورة ظل الناس يرددونها، أو تقوم حجة في وجه مقولة أصبحت تشكل حقيقة في تصور الآخرين، وهنا كان الشعر أيضاً عاملاً مرجحاً أو مؤيداً لبعض ما يمكن أن يؤيد تلك الوقائع، أو مناقضاً لبعضهـا لأنـه كـان قـريبـاً مـن الحدث إلى حـد صـادقـاً في التعبير عن الموقف لأنه صورة المقاتل الذي توفرت له كـل أخبـار المعـركـة، وأدرك أبعادها بكل زواياها وألوانها، واستشعر أحاسيس الرجال الذي ظلوا يحملون الحقيقة الواحدة التي لم تتغير لأنهم كانوا يمثلون الجوهر الحاسم في تقرير المصير والقدرة الموجهة في تقدير الأحكام، والنهاية الحادة في معرفة النتائج المتوقعة، وكان الشعر في المعركة وجهاً متميزاً، وكانت دلالته التعبيرية ورموزه المتميزة

صوتاً له حجمه الواضح في صنع النصر، ومن هنا كانت قصائد الشعر التي قيلت في معارك التحرير وثائق ناطقة، ورسائل حية، وبيانات عسكرية دقيقة تتوالى فيها المواقف وفق تسلسل منطقي وتترتب الأحداث في إطارها باستيعاب شامل، وهي في كثير من الأحيان تكون خالية من التناقض، بعيدة عن الخيال، قريبة من كل حركة يمكن أن تصل إلى حس الشاعر، أو يقف عليها الشاعر نفسه وهي بذلك تكون قادرة على تصحيح بعض المقولات لأن موافقتها كانت واعية ومسؤولة، وصور أحداثها معاشة لأنها لقطات موفقة اعتمدت الحالة الحاسمة وعبرت عن الجو القتالي اللاهب، وفصلت الأجزاء التي تعطي المعركة تفاصيلها المترابطة، والشعر في هذه الحالات قدرة جديدة، وضوء لامع يعطي الباحث قدرة لتمييز الحركات التي لم تأخذ نصيبها في حديث المؤرخين، وتمكنه من التعبير عن الأحكام التي تبقى موصولة الوشيجة بروح الحدث، وفي فتح خراسان يقدم الشعر برهاناً على أن فتحها قد تم فعلاً سنة إثنتين وعشرين وأن الفتح الثاني لها لم يكن إلا إسترداداً لها وإستعادة للوجود العربي الذي حاول أهل خراسان ومن والاهم من المشركين أن يستهدفوه ويبعدوا العرب عن هذه الديار التي بدأ إنسانها يشعر بإنسانيته ويؤمن برسالة السماء الذي أنقذته من جبروت التسلط وأنهت بإزالته كل أسباب القهر التي ظلت تتوغل في أعماقه وتستعبد إنسانيته وتزرع في عقله غيبيات التخلف ونزعات الحقد.

ومثل ما كان التاريخ يقرأ معزولاً عن معايشة الحدث كان الأدب يقرأ وفق الطريقة نفسها، وفي ظل الصياغة عينها، فالشعر يحفظ من باب الإستشهاد والمثل يردد في إطار الإعتبار، والخطبة تنتقي لتدلل على أهمية الحدث ومثلها بقية فنون الأدب التي عاشت في بطون الكتب لا يرجع إليها إلا حين الشعور بالحاجة، ولا يؤخذ بأهميتها إلا بعد أن تكون الصورة داعية لاستنطاقها أو موجبة للأخذ بها، وكان الشعر بعد المعركة حالة جديدة وأصبحت القصة بعد المعركة طعماً متميزاً، وكان الرسالة التي تعطر بنقاء التضحية وتكتب بمداد الإستشهاد وتستمد عباراتها من روائع البطولة وهي تعيش في خضم كل ملحمة

يسجلها الرجال الأشداء وتبدأ زوايا حوار الشعر القديم تتقارب في المضمون، ويبدأ شعر التحرير الذي نطقت به جحافل الشعراء وهي تقتحم الحصون، وتعبر الوديان وتحقق الإنتصار يأخذ حجمه في صورة المعركة ويصبح شعر القعقاع بن عمرو أو عاصم بن عمرو، وأبي محجن، وهاشم بن عتبة، وأبي نجيد، والأسود ابن سريع، وحرقوص، ونعيم بن مقرن، والحكم بن عمرو، ومالك بن الريب، والنغيرة بن حبناء وعشرات الشعراء الذين واكبوا حملات التحرير وعاشوا لحظات الإنتصار وتذوقوا طعم الظفر وهو يكتب في أمجد حرف ويسجل في أروع تضحية يبدأ هذا الشعر يقرب المسافة ويختصر كل الشروح التي حاولت أن تعطي هذا الشعر حقه ليكون قريباً من الأذهان حقيقة واحدة كانت تبقى بعيده عن الشرح، وإحساساً خفياً يبقى غير منظور في كل المحاولات التي تبذل هذه الحقيقة هي التجاوب الذي كان يعيش في نفس المقاتل والحس الذي يتجاوب في نفس أبناء الأُمة وهم قريبون من هذا المقاتل، والحس الذي كان يشد الكلمات ويربط بين صورها وهي تقف على الحدث المنظور، وتعبر عن الساعة الحاسمة هذا الحس ربما تباعد وهجه، وتضاءل بريقه وهو يجتاز القرون الطويلة ويمر عبر نماذج متباعدة كان الإنسان العربي وفي كل عصوره يجد في ذلك الأدب لوناً يريده ويحتاجه ويجد فيه صوتاً من أصوات القدرة التي تلهمه جزءً مما كان يريد أن يراه ليقول على الزمن الذي ظل ينحت وجوده ويحاول قهره ويوغل في إيذائه، ولكن هذا الإنسان الذي امتلك كل مقومات الحياة كان يعلم بأنه قادر على أن يعيش الصورة، ومتمكن من استذكار كل الأحداث التي كان يسجل فيها تاريخه، ويحقق فيها ذاته وينشر من خلالها رسالته.. وبقي الشعر في كل معارك التاريخ يحمل المضمون الحقيقي، فعادت القصة نادرة تسجل الملحمة اليومية وعادت الرسالة واعية تحمل البطولة النقية، وعادت مع كل فنون الأدب بوارق الحقائق متصلة لتوحي لكل الدارسين بالقراءة الحقيقية للشعر، وباستذكار الحقائق المتجددة، والبطولة المعاشة، وللحدث المسجل الذي تماثل في النماذج وتواصل في العطاء، وتكشف في المعارك فكأن الزمن المحصور بين كل المعارك

هو الزمن المختصر وكانت الأحداث الطويلة في سلسلة المجد العربي إمتداداً لكل المعاني الحية، وتشق طريقها باقتدار، وتكتب صوتها بوعي وتعبر عن مجدها باعتزاز، وكأن المقاتل في الجبهة هو ابن ذلك المقاتل في كل المعارك، وكأن البطل المنتصر في المعركة هو حفيد البطل المنتصر في كل المواقف وكأن الجماهير التي تعطي الحدث كل لمساته هي الجماهير التي كانت تغذي المعركة / وترفد بعطائها كل القنوات لتبقيها معركة الخلود فقد صور الأدب حالة الأمة، وعبر عن مطامحها، ولون قسماته بأحاسيسها التي كانت تمتزج بمشاعر الأبناء، وتزدهي بقدراتهم وهم يعيشون اللحظات الدافعة بمعاني الحياة ويعانون الحالات الحادة التي تحملهم على الإلتزام بكل ما يتعلق بمصيرها. أو يواكب نهوضها، أو يحقق في ذاتها عناصر الإقتدار على تجاوز كل الأسباب التي تحاول إيقاف زحفها، أو إسكات صوتها، أو تعليق دورها الإنساني والفاعل، وكانت معانيه بما تحمله من مضامين تعبر عن الشوق الأصيل الذي يداخل نفوس الشعراء وهم يتلمسون الخوافق النابضة، ويتحرك في دائرة القيم التي تنشرها الأمة والمبادىء التي أصبحت جزءً من وجودها المتميز، وهذا ما جعل الشعر ديوان العرب فيه أخبارهم وفي قنواته تعيش مثلهم، وعند رواته تستقر كل المعاني التي تعطي الإنسان هويته المتميزة وتخطط له حدود حركته / في إطار البناء الإجتماعي والقبلي والقومي وإذا كان الرواة الأوائل قد حرصوا على نقل الشعر بأمانة وروايته بحرص والحفاظ عليه وفق القنوات المتعارف عليها فإن الأمة كانت من جانبها تعي هذه الحقيقة وتستوعب الأهداف التي كان ينقلها الشعر ويؤديها الرواة ويلتزم بها أبناء القبائل كلما جمعهم ناد، أو استدعتهم حالة، أو هزتهم أرومة كريمة وهذا ما حمل الشاعر على أن يقول:

فلأهدين مع الرياح قصيدة ... مني مغلغلة إلى القعقاع

فالشعر كان رسالة تجتاز المواقع وتعبر المسافات وتحمل المضامين فيها النفس الحي، والفكرة الخيرة، والإلتزام الهادف والتنبيه الواعي، والتجربة المعاشة وفيه الإحساس بالجو التاريخي والحالة الحافلة بالإستعداد، والموجة العارمة بالمشاعر،

وفيه إلى جانب ذلك المسؤولية القبلية المرتبطة بالتوجه القومي، وفيه كل الإيحاءات التي تختزنها الذات لتتحول إلى موجة من القدرات التي تجد في كل حالة رافداً يروي نسغها ويغذي حياتها.

وهنا كانت تتحول عناصر الإبداع إلى تطلعات إنسانية، تتحقق فيها المطامح وتتمثل في طواياها حالات النزوع الدافقة، ويأخذ الشعر دوره في العطاء، وقدرته في الحركة/ ليحقق لكل الرؤى الصادقة التي دارت في أذهان الشعراء وهم يحملون رسالة الأداء ويعبرون عن خوافق النزوع القومي، والإحساس الشامل الذي كان يعطي الحياة دورها الفاعل.

ان محاولة دراسة الشعر في ضوء الحقائق التي لازمته فترة طويلة كانت تبقيه في إطارات محددة وتترك معانيه التي كانت تتجاوز في حدودها أبعاد الواقع لأنها ترسم تطلعات المستقبل حبيسة الأسباب التي كانت تحيط بالنص أو تحاول دراسته في واقع المرحلة الزمنية التي كانت تجد نفسها معزولة عن أحداث النص وبعيدة عن الروح التي كانت تملأ كل كلمة، وتعبر عن كل حركة وتصاحب كل تركيب/ جملي ذوقي أو نقدي أو بلاغي، كان الشعر العربي ظلاً للإستشهاد، وخيالاً للواقع، وبعداً ثانياً من أبعاد التوافق، وكانت معه كل الأحاسيس المغمورة والطموحة والمتجاوزة تعيش تلك الحالات، وتنتهي عند حدود الأفكار التي تسقط نفسها عليه، أو تكتب تحليلها في ضوء المفردات المطروحة دون تصور، أو تتعامل مع الأفكار في دائرة التصور الذي يحمله الدارس أو يريد فرضه وهنا كانت الأحكام تأتي بعيدة والمقولات غريبة، والنظريات التي يسفر في ضوئها الحدث مجانبة لكل الحقائق الجوهرية التي تحملها النصوص، وبقي الشعر وخلال كل المراحل الزمنية التي أعقبت مراحله الحية، يعيش العزلة ولا يحس التوافق ولا يوضع في المواضع التي يريدها لنفسه، ولا تستخدم أفكاره في المجالات التي اريد لها أن تستخدم. وهنا كانت عملية الإنفصام والإنقطاع وإذا كان الشعر خلال مراحله قد وجد بعض اللمسات الحية التي أعادت له بعض طراوته، وإذا كانت خفقاته التي بقيت تستذكر المطامح الكبيرة تدرك دورها

الأساسي فإن الأكداس الكبيرة من المشاعر والمجاميع الغنية من الأحاسيس ظلت غير منظورة وبقيت غير معاشة، لأنها تفتقد إلى التواصل وتشعر بالإنقطاع، فمعاني الشجاعة والمروءة والإنسانية والفخر كانت تقال والأمة تلوك معاني المرارة، وتتذوق ألوان التعسف، وتعيش أيام النكوص والتراجع والخذلان وهنا كانت الصورة تبتعد والحقيقة تضيع والمعاني تتبدد في خضم الهوة السحيقة التي تفصل بين الواقع والصورة...

وهنا كانت تظهر أكثر من مقولة تحاول أن تبرر عدم التوازن، وتفسر أسباب الإنقطاع وكلها كانت تهوي في دائرة التناقض والتضاد لأن العناصر الأساسية في هذا الإنقطاع كانت بعيدة عن تصور الدارسين بسبب حالة التخدير التي عاشتها الأمة، وحالة الإنفصام التي اكتنفت كثيراً من مظاهرها، وحالة التخاذل التي ظلت تنحت في كل قدرة من قدراتها، وهنا كان الصوت الحي لا يخرج عن إرادة الإنسان، التي أحاطت به كل عناصر الإخفاق وبددت عزيمته كل أسباب الإنكسار، ومن الطبيعي أيضاً أن تفقد الدلالات اللغوية كل الدفقات النابضة التي عاشت تجربة المشاعر، وتذهب عن وجه المعاني كل الإضاءات المشرقة التي اكتسبتها من جراء الألق الصادق، واللمعان الصافي الذي كان يلوح عليها، وتبقى كل الفنون التي حاول الدارسون أن يخضعوها لمعايير الموازنة غير قادرة على التعبير عن نفسها، لأن حالة الإغتراب التي كانت تغلف لغة التحليل لا تنسجم مع لغة المعاني التي توحي بها النصوص ولأن صورة الأحداث التي تعبر عنها اللفظة لا تتماثل مع صورة الأحداث التي حاول الدارسون أن يستعيروها لها. وهنا يظهر الزمن المقتدر على استيعاب الدلالة، والجو الذي يعبر به عنه، والحالة النفسية التي تعيش في محيطها اللفظة وهذا ما تفسره حالات الإستشهاد التي تكتفي من القصيدة بأبيات ومن الدواوين بقصائد ومن الفترة لشعراء لأن الزمن المحصور في مرحلة الإستشهاد لا يستوعب الزمن المرافق لتلك النصوص، ولأن الإنسان الذي أخذ على نفسه إستكمال الحلقات المترابطة في متابعة المعاني ودلالاتها في النص هو غير الإنسان الذي ابتعد بنفسه وواقعه

وحالاته الإجتماعية عن تلك الوشائج المتصلة. وهي حالة في كل مظاهرها تدعو إلى إعادة النظر، وظاهرة في كل أحوالها تدفع الباحثين إلى أن يقولوا فيها ما يقال لتأخذ التقويم ومعايير الضبط النقدي.

إن هذه الأحكام يمكن أن تشكل الجسر الحقيقي لمعركة الحياة، وصور التعبير التي نراها في أدب الفترة بكل أشكاله، وحالات الإحساس النفسي والإجتماعي التي يمكن أن تعلل كل المظاهر القتالية الصعبة والحقيقية على ساحة الإستشهاد وفي ميادين الإقتدار. وهنا أصبحت الكلمة المعبرة تحمل الدلالة الحسية الحية والصورة المستمدة من القدرة لتعطي البعد الحاسم في اكتمال التواصل وان كل هذه الأجزاء التي تلتحم في قصيدة أو واقعة أو خاطرة أو مقالة تحدد المجال الكبير الذي بدأت فيه كل الأشكال تتفق موحدة، وتتناسق مؤمنقة لتعبر عن حالة جديدة، عرفها الإنسان بكل أصنافه، وشاهدها بمختلف الصورة وعاشها مع كل حالة، وبدأت في نفسه تبرز عوامل تختلف من حيث الإحساس عن كل العوامل التي كانت تغذي وجوده وتأتلف مع كل النوازع التي كانت غير مؤتلفة في نطاق التجربة ولكنها تتحقق في خلال الومضات التي يدفعها بيت إستشهاد أو حالة مقتدرة أو بطولة تاريخية مفردة.

وحالة الأدب هذه هي التي تعطي الباحثين والدارسين صورة الإختزال الزمني البعيد الذي ظل مخزوناً في ذات الأمة، وعاشت مفرداته الواعية متألقة في وجوده المتحرك، وبرزت ومضاته المشرقة إباءً متميزاً احتفظت به العصور الواعية وطرحته حالات التحدي الصامد، فالأمة التي بقيت فيها هذه الملامح مشعة ولامعة كانت تعلم أن هذه الملامح تمثل الخطوط الزاهية في مسيرتها وتضع الأجيال على الطريق السوي الذي تبقى معالمه أعلام هداية، وشواخصه علامات إضاءة لتظل الراية عالية وليبقى مجد الأمة هو الغاية المنشودة في سطور الأدب واختيار الشواهد واعتماد الفنون الأدبية...

لا بد أن تكون ظاهرة الشعر وهو يعبر عن مآثر المقاتلين قد تأثرت بحركة

التاريخ السريعة وهي تتجاوز الزمن، وتتعامل مع الحياة تعاملاً جديداً يختلف من حيث الأساس مع المقولات التي كانت تسود المنطق الطبيعي، وتتحكم في النتائج المترتبة على تلك المقولات، ولا بد أن تكون لغة الشعر قد اكتسبت رداءً جديداً وانسابت عبر قنوات لها رونقها، وأوعية لها ألقها الزاهي وهي تتلون بألوان التكوين الجديد، وتنحدر من قمم وجدانية غاية في الحس وتتسرب في أخاديد ذاتية واعية لكل انعطاف من انعطافاتها، ولكل خفقة تمتلىء بها حيوية التفاعل الوجداني الحي. ولا بد أيضاً أن تتأثر الأغراض التي ولدتها عوامل التحرير هذه بالقيم الجديدة التي عاشت في أذهان الشعراء وهم يدخلون حياة تختلف عن حياتهم ويتعاملون مع أحداث لم يسبق لهم أن تعاملوا معها، ويستلهمون موضوعات استغرقتها دواعي المسؤولية الملتزمة وأوجبتها طبيعة الظروف المستحدثة، وهذه العوامل كلها تأتي في إطار الحركة التحريرية التي شهدها العالم وهو يتطلع إلى أولئك الرجال الذين دخلوا التاريخ وفي قلوبهم حب الإنسان، وفي نفوسهم روح المساواة، وفي حركتهم أسباب التقدم والحرية، فكانوا صوتاً من أصوات الوحي الإلهي المؤمن، وبريقاً من بوارق الصفاء الذي وجد نقاؤه إمتداداً غير متناهي في العيون المتطلعة نحو الغد المشرق والمستقبل الموعود..

إن هذا الإحساس الوجداني كان يتوافق مع الغايات الخيرة التي تشبعت بها نفوس الداعين، واتصلت بها خوافق المؤمنين الذين اختيروا لأداء المهمة الخيرة وتحملوا أمانة الرسالة التي وجدت فيهم خير أُمة، وتلمست في نهوضهم خير وعاء لتسلم المبادىء الإنسانية، ومن الطبيعي أن يعبر الشعر عن كل هذه الإتجاهات التي تجاوزت حالات الواقع إلى التعبير عن حالات الحياة الجديدة التي وجدت في نضال العرب صوتاً أقوى من أصوات العصبية، وفي جهاد المسلمين اعتصاماً أشد من اعتصام الإقليمية، وفي الوفاء إلى الجماعة التي تدخل في إطار هذين الإتجاهين وفاءً أخلص من الوفاء للقيم المحددة التي كانت تفرضها بعض الظروف الإجتماعية وهنا أيضاً كانت تتجلى قدرة هذه الإنسان على تجاوز مرحلته والتكيف للظروف الجديدة التي استبدلت أسباب الحياة بما يجعلها أكثر قدرة على

الإنسجام وأشد التصاقاً بحالة الإنسان العربي وهو يضطلع بمهامه الجديدة ويختار لأداء الواجب الذي أهلته إليه كل الأوضاع. كان الشعر في كل هذه الأحوال يقدم أغراضاً متداخلة، ومعانياً متجددة، لونتها صورة الوقائع وتعاونت على إخراجها أوجه التوافق التي تستمد من الأسباب جوهر الحقائق ومن العناصر مكونات الإرتكاز. فكانت أغراضه تطوراً واضحاً، وأساليبه قنوات حية، ومعانيه قيماً خيرة، فالمديح الذي كانت تتجسد فيه ذاتية الشاعر، وتتحرك في نوازعه تأثيرات السلوك المحدود أصبح يعالج نموذجاً أكثر اتساعاً وحالة أكثر شمولاً وأخذت ألفاظه وصيغه تمتد إلى مسافات أبعد في تناولها، وتدخل فيها حالات لا تعتمد الواجهة المنظورة والمحصورة في إطار الحدث وإنما تستمر لإحاطة الأوضاع المتحركة براية الحقائق التي تؤديها خصائص الممدوح، فالتضحية أصبحت لها مقاييس في حركة التحرير أوسع في الدلالة لأنها خرجت على نطاق القبيلة، واتسعت لتستوعب المعاني الإنسانية التي أصبح هذا الإنسان واعياً في تحمل النتائج المترتبة على هذه التضحية وأصبح من مجال الإفتخار أن يقف على أبعاد لم تكن منظورة في الحسابات القديمة بعد أن أصبح يقاتل على أرض جديدة، ويقاوم إتجاهات غريبة، ويبني إنساناً له مواصفات قد تكون المواصفات الأولى أساساً من اسسها ولكن التركيب المتكامل أصبح يخضع لاعتبارات كان وجه الممدوح فيها أكثر اتساعاً وأشد التزاماً وأبعد في التعبير عن المعطيات. فالمدح أصبح يقترن في القدرة على الثبات في المعركة والمواجهة والمصاولة ومناهضة الخصوم واختراق قلاعهم ودحرهم في مدنهم واجتياح جحافلهم والمهارة في إدارة دفة المعركة وحسن القيادة، وسلامة الموقف، فيزيد ابن المهلب الذي فتحت باذغيس على يده كان ممدوحاً لكثير من الشعراء الذين وجدوا في هذا الإنتصار آفاقاً للمدح وأدركوا أن دخول القوات العربية إلى هذه القلعة الحصينة كان يدل على كلمة القيادة وبراعة القائد، وإستبسال الجنود الذين كان بلاؤهم حسناً وكانت بطولاتهم فريدة فيقول:[1]

---

(١) شعراء امويون ٢/٤١٦.

وباذغيس التي من حل ذروتها ... إلا إذا واجهت جيشاً له وجما
منيعة لم يكدها قبله ملك ... عز الملوك فأن شاجار أو ظلما
تخال نيرانها من بعد منظرها ... بعض النجوم إذا ما ليلها عتما
لما أطاف بها ضاقت صدورهم ... حتى أقروا له بالحكم فأحتكما
فذل ساكنها من بعد عزته ... يعطي الجزي عارفاً بالذل مهتضما
أعطاك ذاك ولي الرزق يقسمه ... بين الخلائق والمحروم من حرما
يداك إحداهما تسقي العدو بها ... سما وأخرى نداها لم يزل ديما

ويقول في أبيات أخرى [(١)] :

والترك تعلم إذا لاقى جموعهم ... ان قد لقوه شهاباً يفرج الظلما
بفتية كأسود الغاب لم يجدوا ... غير التآسي وغير الصبر معتصما
وتحتهم قرح يركبن ما ركبوا ... من الكريهة حتى ينتلعن دما

وبقيت هذه المعاني التي استأثرت بمعاني الشعراء وهم يعالجون أحوالاً جديدة ويمرون بتجارب قتالية تختلف من حيث الأسلوب والمصاولة والطريقة والسلاح وطبيعة الأرض مع الفنون القتالية التي شهدوها في حياتهم السابقة ولا بد أن تترك بصماتها على شعرهم، وتتجه بدلالته التي تجعله أكثر ملاءمة للواقع الجديد وأوضح تعبيراً عن الحالة المستحدثة وأدق اختياراً للمعاني التي توافق هذه المستجدات. وهي حالة كان الشعر يمر بها وتطورت في ظل هذا التناول أساليب الشعراء لتكون معايشة للجو المناسب والخصائص التي فرضتها أحداث التحرير وأملتها ساحات المعارك واعتادت عليها حياة المقاتلين بعد أن وجدوا نموذج الممدوح إنساناً تتلاءم نزعاته وتطلعاته مع الظروف التي خلفتها المعركة وقررتها حركة التاريخ وارتبطت بها أحداث الحرب وهي أحداث تستمد توجيهاتها من الرسالة السماوية وتعاليم الدين وتوجب القيادة الحكيمة التي أخذت على عاتقها تحقيق المبادىء الخيرة في ظل الجهاد المقدس، والشعور بالإلتزام الإنساني لحمل

---

(١) شعراء امويون ٢/٤١٧.

الإنسان على أن يكون حراً في فكره، ساسياً في إنسانيته، له دوره في البناء والتكوين وله عقله الذي يحقق له الحياة الكريمة.

وتتوالى قوافل التحرير إلى بلاد ما وراء النهر وتتدفق معها موجات المجاهدين الذين وجدوا في الجهاد حقاً مشروعاً وتضحية مقبولة وطريقاً لتأكيد الإيمان الصادق ومع هذه القوافل تتعالى أصوات الشعراء الذين استطابوا الحياة في ظل السيوف المشهورة واستطعموا الراحة في رفقة المقاتلين الذين يكتبون الحياة بأروع مداد ويحققون الإنتصار بقدرات الرجال الأشداء، وكان مالك بن الريب واحداً من أولئك الشعراء الذين اختاروا طريق الجهاد بعد أن جرب الحياة وخبر أساليبها بعد أن تمكن في نفسه داعي الهدى، وترسخت في وجوده دعوة الحق فكان صوته الواضح:

ألم ترني بعت الضلالة بالهدى   وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا

فمالك كان فارساً تمثلت فيه خلق الفرسان، وتجلت في ذاته نزعة المروءة وكانت الرغبة في نفسه ملحة لهذا الخلق، بعد أن استبدل الذي هو خير بما هو أدنى، واتجه في طريق الهداية الواعية، والإيمان الموجه الذي اقتنع به وآمن بكل قيمه، وكانت قصيدته اليائية لوناً من ألوان البطولة فقد تحدث فيها عن الجوانب التي برز فيها وهو يحرر أرضاً وينشر مع رفاقه رسالة ويكتب في صفحات المجد قدرة الأمة التي استطاعت أن تتحرك من الجزيرة لتقهر قوى البغي في خراسان وكل البلدان الواقعة في بلاد ما وراء النهر فكانت وثبة من وثبات حسه المرهف وهو يقف بصمود في كل معركة، ويستجيب للداعي إذا عز النصير، وهو لم يتخلى عن قيمه الأخلاقية التي ظلت تكمل الجانب البطولي من حياته فهو يطعم إذا أصبح الطعام محموداً، ويصبر على القرن في الوغى، بعد أن تخرق الرماح ثيابه فيقول:[1]

وقد كنت عطافاً إذا الخيل أدبرت   سريعاً لدى الهيجا إلى من دعانيا

(١) شعراء امويون ١/٤٥.



وقد كنت صباراً على القرن في الوغى — وعن شتمي ابـن العـم والجار دانيـا
فطـوراً تـراني في ظلال ونعمـة — وطـوراً تـراني والعتـاق ركـابيـا
ويومـاً تـراني في رحـى مستـديـرة — تخرق أطـراف الرمـاح ثيـابيـا

ولم ينس الشاعر ـ وهو في أعنف لحظات الموت ـ فروسيته وفتوته لأنه بطل عاشت في نفسه أمثولة البطل، فأدرك حقيقتها، وتلمس أبعادها وتحسس الدور الذي ألقته عليه تبعات الحياة الجديدة ومستلزمات المرحلة التي وضع نفسه فيها، كانت صورة البطل بكل مفاهيمها القتالية والأخلاقية التاريخية والإنفعالية تتحرك في داخله وهو يجود بنفسه، ويتمثل صورة الفناء بعد أن استرخص نفسه دفاعاً عن الدين وحماية للهداية التي أشرقت في نفسه والعقيدة التي ملأت حياته فعاشت المثل الكريمة فروسية، وأطلقت الكوامن الذاتية وجوداً عزيزاً، وإباءً كريماً ووعياً صادقاً لقد تجسدت هذه الصورة أمامه وهو يؤدي أمانة الجهاد، ويخوض معركة الشرف بعد أن قاتل بكل ما يملك، وجاهد بالنفس دفاعاً عن المبدأ الذي عاش معه حياته. كان الشعر هنا صوتاً من أصوات التعبير المليئة بالمفاخرة وكانت أغانيه لوناً آخر من ألوان الوجدان المتدفقة، بمعاني المقاومة. وكان الشاعر في لحظات الاشتياق وهو يشعر بطعم الإستشهاد يمد نظره بين المتاهات المقفرة ويكتب ملحمته فوق الأرض المحررة، وتخترق مطامحه كل المرتفعات التي أحاطت به لتكتحل عينه بمرابع الصبا، وتنتزع أيامه لحظات التجاوب في ثنايا الرمل المتعرج لتقتطع أرضاً تذكر فوقها كل الخفقات السعيدة، وعرف في جوارها كل معاني الحب الأصيل، وقد انتصب أمامه فرسه الأشقر وامتد في هدوء إلى جواره سيفه الصارم ورمحه الذي كان له من أفضل الأعوان فكان فيها عبق الأرض، وفي لمساتها قدرة التصميم، وفي صورتها شهامة الأمة.

فكان استشهاده استشهاد الأبطال، وكان موقفه موقف الرجال الذين استوعبوا كل دلائل الفروسية:[1]

---

(١) شعراء أمويون /٤٣ ـ ٤٤.

تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد سوى السيف والرمح الرديني باكيا
وأشقرَ محبوكاً يجر عنانه إلى الماء لم يترك له الدهر ساقيا

فالسيف في تصور الشاعر هو الذي يناجيه، والرمح الرديني الذي تعود على الطعن به هو الذي سيطلبه، والفرس المحبوك الذي شهد المعارك وأبلى فيها البلاء الحسن هو الذي سيعرفه، وهي دلالات تعطي المقاتل حالة التواصل لتبقى في وجدانه قدرة الإندفاع بعد أن تصبح حياته جزءً من هذه الملحمة المتكاملة، ولوناً من ألوان هذه الإستعداد ووجهاً من وجوه هذه التربية التي مكنت الرجال من خوض أعنف المعارك، وهيأت لهم اللوازم المقتدرة ليكتبوا في ديوان الحياة أناشيد النصر وليغنوا التاريخ بأسخى التضحيات فيكونون أمة خير وعطاء ورجال مكارم واقتدار.

فللبطولة في الأدب العربي مظاهر متعددة، تأخذ أبعادها عند تحديد المجال الذي يتحرك فيه البطل، وتتوضح قدرتها عندما تتعالى أعماله مجداً وانتصاراً وتضحية، وهو في كل مجال من هذه المجالات تبرز طاقة وجدانية فريدة أو قدرة إنسانية نادرة، أو تحدياً أخلاقياً ملتزماً. والبطل في أدبنا يختلف عن البطل في الآداب الأخرى. لأن البطل في الأدب العربي نموذج حي يتفاعل مع الأحداث ويعبر عن طموح الأمة. ويرسم آمال أبنائها بما يتفق مع ميولهم،ويرضي قيمهم ويحقق أهدافهم، ولأنه لم ينحدر من سلالة الآلهة، ولم تكن بطولته غيبية كما عودتنا الأساطير اليونانية والرومانية. ومن هنا كان أبطالنا نماذج متميزة تساهم في كثير من المقاييس الأخلاقية، لارتباط المعنى البطولي بالمعنى الأخلاقي وقد يتغلب الجانب الأخلاقي في تحديد الإطار العام لمعنى البطل، لأنها بطولة لإنسانية واضحة، تمثلها جوانب المجتمع العربي وتحسسها لوجدانه الحي وإدراكها لفاعليته في استثارة الإعجاب والدهشة.

ومن الطبيعي أن تساهم البيئة العربية الخالصة في توثيق هذا المفهوم وتعميق

وجوده في النفس، وتأكيد رؤيته من خلال الأحداث المتطورة في هذه البيئة، ولهذا كانت حدود الرؤية في تصور هذه النماذج واضحة المعالم وأبعاد الإستيعاب محددة التصور. لأنهم طليعة متقدمة وفضيلة مدركة وقدرات واعية، ووجود قادر على اختزال الهيكل الشكلي المتعارف عليه، وربما كانت هذه القدرة هي العلامة الكبيرة التي أصبح أصحابها قادرين على التميز بها، والإنفراد بأبعادها ولعلها أيضاً تكون السبب في تمكين البطل من ناحية الموقع المحدد الذي استطاع الوصول إليه دون غيره من الناس لأنه رمز تجسدت فيه الآمال، وتحققت في نهجه الرغبات، وتمثلت في أعماله مظاهر البطولة المحببة فأصبح صورة متمكنة في كل نفس، ورمزاً يتوق إليه الآخرون فكنا نجد أصداء سلوكهم يأخذ الجبهة الواسعة في حديث التاريخ، والميدان الفسيح في مطامح الأدب. والمجال الرحب في التكوين النفسي والإجتماعي لسلوك الجماعة وعلاقاتهم حتى أصبحت أعمالهم فريدة على الرغم من كونها أعمالاً متعارفاً عليها، ولكنها أخذت الصورة الكبيرة والحكم المناسب في ميدان التطبيق لوقوعها في الزاوية المنظورة.

والشعراء الذين واكبوا حركة التحرير، وعبروا عن ذات المقاتلين كانوا يستشفون المعاني الحقيقية التي تؤهل المقاتلين لمراكز البطولة ويدركون الأعمال الجليلة من خلال الوقوف على كل الأطراف التي ترقى إلى المواقع الرفيعة لتضعهم في المنزلة المحققة لهذا المفهوم، بعد أن تتضح ملامح الشخصيات بكل وضوح، وتتجسد نوازع القدرة الخلاقة بجلاء شامل وترتسم أنماط السلوك بلا زيادة. وهي حدود تمنح البطل من القابليات ما يمكنه من الوصول إلى ما هو أقدر على استيعابه لأنه مؤمن بكل القيم السامية التي تجعله قادراً على تحمل الأعباء التي تضيفها عليه المهمات الموكولة ولهذا كانت أناشيد البطل الخالدة في معارك النصر سواء كانت مرددة على لسانه أو على لسان الشعراء الذين كانوا يجسدون في أعماله صوت الأمة أو مطامح الجماهير هي النداء الذي يبعث في نفوس المقاتلين نوازع الإندفاع ليكونوا في الدائرة ذاتها وليصبحوا في مجال المفاهيم التي تحقق لهم المواقع الخالدة، وهذا ما كان يعطي الأمة إستمرارية الحفاظ على

المفاهيم هذه عن طريق النموذج المتقدم، أو التربية الدائبة، أو القيم النبيلة التي تنطلق من خلال الشعر أو الأدب بكل فنونه أو الأعمال المجسدة في ميادين المعارك وكانت أحاديث البطولة التي تدور في كل مجلس أو تروى في كل خبر أو تنقل عن كل يوم من أيام العرب تمثل الصورة الجليلة التي يبقى الأبناء متعلقين بها ومشدودين إلى كل حالة من حالاتها لأنها تبقى رفيعة في تصور الأجيال، مقروءة في أدبيات الأمة خالدة في المدى الزمني الطويل.

إن دوافع البطولة التي تميز بها البطل في المجتمع العربي كانت نابعة من إيمانه بالقدر وإيمانه بالخلود واعتقاده بالقضية الحية التي يطيب من أجلها الإستشهاد، ويحمد فيها الخلود، ويستطاب بذكرها الحديث الدائم وقد دفعه هذا الإيمان إلى أن يخوض الحرب بلا خوف ويصارع الطغيان بلا هوادة وينشد الحرية بلا تردد، وكان إطار فلسفة البطولة الحربية يتحقق في ذات البطل من خلال إيمانه بأن اقتحام الحرب لا يقرب الأمل، وخوض المنايا مجال يمكن أن يبدي فيه الإنسان من ضروب البسالة والشجاعة ما يرفعه إلى مصاف الأبطال ويحفظ له الذكر الحميد، ومن خلال اعتقاده بأن الموت نهاية محسومة، فلم لم تكن المفاخر هي الطريق إلى هذه النهاية، ولم لم تكن الأعمال الخالدة لتسجيل المآثر هي الزاد الذي يحمله الإنسان في الدارين الباقية والفانية وهي معتقدات تتصل بالإيمان النابع من العقيدة، وحالات تتصل بالحقيقة التي صاحبت حياة المؤمن فكانت جزءً من التكوين النفسي والإجتماعي والإنساني، وهنا كانت تتحقق البداية الأولى لقطع الدرب الطويل، وتبدأ الخطوة الرائدة في مسالك الوفاء لكل القيم الخيرة، وتتحقق معها الصورة الراسخة في أسفار التاريخ باعتبارها حالة متقدمة ولكونها ريادة خالدة تتناهى في سطورها كل الأمجاد التي يطمح إليها الإنسان ونموذجاً إنسانياً تعبر في سياقه كل المحاولات الجادة التي تنهض في ضمير الأمة لتأخذ قدرتها، ولتتمثل دورها البطولي وهي تجابه كل قوى الردة وتقاوم كل أشكال التحديات، وتنتزع لنفسها الموقع المناسب.

والبطل في كل أحواله كان صوتاً من الأصوات المسموعة في عالم الوفاء

للمبادىء، وحقيقة من الحقائق الناضجة في توافق الوجود الإنساني لأنها حالة التجاوز القادرة على استيعاب الواقع واستشفاف المستقبل، ولأنها قدرة الإنتقال من حالة الركود إلى حالة التقدم، وفي هذه الحالة تتجلى رؤية الإنسان التي تخترق كل الحجب المستورة، وتسقط كل الإعتبارات التي تحول الإنسان من حالة إلى حالة وتحيل وجوده الثر إلى وجود معتم، وتقتل في تصوره كل المحاولات التي تعطيه حالة التقدم والإعتزاز.

إن التحول الجديد الذي تعرضت له قصيدة الحرب عند الشعراء الفرسان يمثل إتجاهاً شعرياً متميزاً لأنهم إستطاعوا إكساء القصيدة أثواباً جديدة كما استطاعوا أن يملأوا الفجوات التي كانت تتباعد فيها بعض المسافات بسبب الموضوعات الجديدة التي فرضتها المرحلة بسيولة عاطفية ثرة أظهرت نوازعهم الأصيلة وحنينهم الشديد، وشعورهم العميق بحالة الإحساس المباشر بعد أن بدأوا يعيشون تجربة الحرب، ويعرفون الدقائق الحادة في المواقف ويتلمسون الجوانب الحاسمة، لقد تحقق لهذا التحول إستدامة شعرية ناجحة، وجعلهم أكثر قدرة على التعبير عن كثير من الجوانب النفسية التي ضاقت بها حياتهم فجاءت أشعارهم شديدة الصلة بواقعهم، قريبة إلى كل نفس تتحسس الأعماق الإنسانية الواعية، بعبارة سهلة، وتركيب لفظي قريب، وتناول سليم لكل معنى من المعاني التي وجدوا فيها مجالاً للتعبير بعد أن اختاروا لقصائدهم أو مقطعاتهم الأوزان الشعرية المناسبة، والقوافي التي تعطي المعاني دلالتها وتترك لها الصوت الممتد والحرف المناسب والإطلاق الحر، فجاءت قصائدهم متوافقة من حيث المعنى والدلالة والشكل وكانت نبذة القصيدة بجانبيها واضحة القسمات مترابطة الأجزاء، حية التعبير. فمالك بن الريب الذي عرفه الأدب العربي من خلال قصيدته اليائية كانت له مواقف في (يوم طاسي) وكان له فيها بلاء حسن كما كان له نفس الموقف في يوم النهر في بلاد خراسان وقد أشار إلى ذلك في شعره حيث قال:

لا تحسبنا نسينا من تقادمه ... يوماً بطاسي ويوم النهر ذي الطين

ومثل مالك بن الريب مجاميع أخرى من الشعراء الفرسان الذين استشهدوا في معارك الشرف وحملوا رسالة الجهاد دفاعاً عن العقيدة وحماية لشرف الأمة فكان أعشى همدان وكعب الأشقري ونهار بن توسعه والمغيرة بن حبناء وثابت قطنة والكميت بن زيد وعشرات الشعراء الذين حفلت بهم أخبار التاريخ وشهدت لهم المواقع بالبطولة الفريدة والشجاعة النادرة والتضحية الجريئة. فقد جاهد ثابت قطنة جهاداً مشهوداً وكان حسه القومي والإنساني صورة معروفة، شارك في حروب ما وراء النهر، وتولى أعمال الثغور، وأبلى في كل المعارك بلاءً حسناً فحمدت سيرته، وعرفت مكانته وتجلت شجاعته وبقيت قصائده التي قالها في بلاد خراسان حديثاً معبراً عن المسيرة الخالدة التي قادتها قوافل المحررين وحملتها عقيدة الإسلام وهي تطوي أسفار الشرك، وتطمس معالم المجوسية المقيتة وتسكت أصوات العبودية الرهيبة..

وشارك نهار بن توسعة في تحرير بلاد ما وراء النهر فكان في عداد جيش يزيد بن المهلب وساهم في معظم غزواته، فكان مع الجند في فتح بخارى وطخارستان وسمرقند واقتحام قلعة باذغيس ويبقى شعره وجهاً لحقائق المعارك، ولساناً عن حال المقاتلين، وصوتاً من أصوات المؤمنين الذين قاوموا كل الأسباب وعبر عن ضمائرهم وهي تتشوق للجهاد، وتبدي من ضروب البطولة ما جعلهم في مصاف الرجال الأشداء وحقق بهم النصر المبين.

ومثلهما في الجهاد المغيرة بن حبناء الذي كان صورة حية ونابضة وقد كانت حياته الحافلة بكل ضرب من ضروب الشجاعة نموذجاً من نماذج التضحية كما كانت نهايته مشرفة وخالدة يمكن أن تضع الخطوط الحقيقية التي كانت تفرض على حياته مسيرتها، وتلزمه باتخاذ المسلك السليم الذي حدده لنفسه وترسم له طريق الحياة الصائب الذي دافع عنه في حياته وشعره، حتى كانت وفاته بعد أن قاتل مع المهلب قتال الأبطال، وشهد معاركه الحاسمة فكان أحد الفرسان في بلاد خراسان، كما كان فارس الشعر في الدولة العربية في العصر الأموي. إن اشتراك المغيرة في الحرب وبشكل متقدم أعطاه فرصة الإستبسال وحقق به قدرة

التجاوز فكان شهيداً مع بقية الشهداء الذي خلدت أسماؤهم وكأنه أراد أن يظل خالداً حتى في طريقة إستشهاده فالروايات تجمع على أن الشاعر عندما أصيب وأثخنت جراحه غمس أصبعه في دمه، وخط على صدره بدمه الطاهر (أنا المغيرة بن حبناء) فكان بطلاً حتى في حالة الإستشهاد وإنساناً حتى في طريقة التضحية، وخالداً حتى في حالات الموت، وبعد أن استقر في ميتته الحرة، سلم روحه إلى الخالق الكريم فكان بطلاً خالداً وتضحية نادرة ونموذجاً رائداً، فسجل لنفسه لقب الشاعر البطل والفارس الجريء الذي وسد جسده تراب الأرض في (نسف) سنة إحدى وتسعين للهجرة وظل قبره في هذه المدينة شاهداً حياً من شواهد البطولة، ورمزاً من رموز الإقتدار العربي الذي آلى على نفسه أن يعيش حراً ويقاتل جريئاً ويستشهد مقاتلاً بطلاً.

وتنطلق جحافل الشعراء مع مواكب التحرير لتشارك في الجهاد الإنساني وتحمل القيم النبيلة، وتضع نفسها في إطار الدعوة التي حملت الخير لكل البشرية التي أثقلتها أصفاد العبودية، وأحاطت بها أستار الظلم، وأحدقت بها نفوس الطغاة، وقد أخذت هذه الجحافل على نفسها أن تكون وفية في عطائها مخلصة في التزامها، رائدة في كل عمل من أعمالها، بعد أن وضعت الشعر وكل مقوماته ومعانيه، ودلالاته في طريق التحرير ووصف دقائق الأحداث، أو جليل الأعمال الخالدة التي تركت بصماتها واضحة فوق جبين الأيام. فهذا مالك بن الريب الشاعر يختار طريق الجهاد والفتح بعد أن جرب الحياة، وخبر أساليب الفتك ويصحب القائد العربي سعيد بن عثمان بن عفان لما ولاه معاوية خراسان سنة ست وخمسين، وتعد صحبته لسعيد تحولاً كبيراً أصاب حياته، واتجاهاً مغايراً لما ألفت نفسه، لأنه تحول من الضلالة إلى الهدى، وتغير من اللهو العابث والتشرد السائب إلى الهداية الواعية، والإيمان الموجه الذي اقتنع به.

ويذكر ياقوت أن للمالك بن الريب المازني في يوم (طاسي) و (النهر) بلاءً حسناً معتمداً على ما قاله السكري في شرح قوله:[1]

---

(١) شعراء أمويون ١/٤١.

يـا قــل-خير أمير كنــت أتبعــه | أليس يرهبني أم ليس يـــرجــوني
أم ليس يرجو إذا ما الخيل شمصهـا | وقع الأسنـة عطفـي حين يـدعـوني
لا تحسبنـا نسينـا مــن تقــادمــه | يوماً بطـاسي ويـوم النهـر ذا الطين

لقد حدد مالك لنفسه المسيرة بعد أن باع ما كان فيه من الفتك والضلالة وسار في جيش المسلمين وتعد قصيدته اليائية المشهورة:

ألا ليـت شعـري هـل أبيتن ليلــة | بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيـا

من القصائد التي أشار فيها إلى خط السير الذي سلكته قوافل الفاتحين وهي تطوي أرض الأعادي، وتحدد الأماكن التي اجتازتها فالطبسين موضع وطأته أقدام الفاتحين، تذكر فيه الشاعر أهله وأصحابه وهواه، فآستجاب له بزفرة ترقرقت فيها دموعه، وتعالت ألوان عواطفه، ولكن قرى بلاد فارس (الكرد) كما يقول الشاعر كانت تحول بينه وبين تلك العواطف، وتقف بوجه نزعات شوقه أن تجاوز المدى المكاني الذي وصل إليه، وتبقى خراسان وأبوابها وكل المواقف التي وقـف عندها أو اجتاز دروبها مليئة بأحاسيسه الإنسانية التي كانت تراق على جبالها ووديانها فتنساب قصائد أو مقطوعات تحمل الصوت الإنساني لهؤلاء الشعراء، ولم ينس مالك ـ وهو في أعنف لحظات الموت ـ فروسيته وفتوته لأنه بطل عاشت في نفســه أمثـولـة البطـل فـأدرك حقيقتهـا، وتلمس أبعادها، وتحسس الدور الخطير الذي ألقته عليه أعباء الحياة الجديدة وهي تحمل فتاها المرتقب مسؤولية التحرير. لقد تجسدت هذه الصورة أمامه، وهو يسقط (كما تقول بعض الروايات) أثر طعنة في غزوة من غزواته، وكان يرقب شبح الموت، ويتمثل صورة الفناء فعزت عليه الحياة، وارتفعت في نفسه فداحة المنظر المرتقب، فكانت قصيدته الخالدة، وكانت عواطفه الإنسانية الرائعة التي ظلت أصداؤها تخترق كل زمان وتتجاوز كل مسافة، وتطرق كل سمع، وهي جديدة في اللون والطعم، حية في المعاني والدلالة، نقية في الوفاء والسماحة وحب الأرض الذي أعطاه الشاعر أكثر من صفة وغناه في أكثر من حكاية، وردده في أكثر من

موقع، ألا أن الأرض الغريبة لم ترحم وحدته، والمهابط الوعرة لم تلتفت إلى صيحاته. ولم تكرم وفاته فاستقرت في سيفه التضحية الكريمة، وفي رمحه المضاجعة الآمنة، وفي فرسه الوفاء النبيل الذي لم يترك له الموت ساقياً، أما أحنين فقد تعالت أنفاسه في نفسه الوالهة، وتشامخت أشكاله فيّ حبه العميق الذي اقترن بالمباهاة والمصابرة والصمود، وتسرب في زوايا النفس وطوايا الضلوع وحنايا الخوافق اللافحة فكان صورة اخرى من صور الإعتزاز، ولوناً فذاً من الوان الكرم الإنساني الذي عاش في ضمير هذا البطل وهو يجاهد في سبيل الله ويسعى من أجل تحرير الأرض وينشد العدل بعد أن عرف قيمته، ويدعو إلى الحق الذي أدرك أن ضياعه لا يمكن أن يعوض وأن الوقوف عليه أو الشعور بالتمتع به يمثل أرفع صورة وأعز ذكرى، وأفضل نتيجة.

لقد شهدت (مرو) منيته، وحل بها جسمه بعد أن حانت وفاته وهي آخر موقع شهده هذا الفارس البطل، وقد استطاع من خلال هذه القصيدة أن يروي لنا إحساسه وإحساس أصحابه وهم يرقبون لحظاته الأخيرة بعد أن دنا الموت وقد طلب منهم الإقامة عليه ويومه وبعض ليلة ثم يفصل بقية الصورة البطولية التي كانت تثير في نفسه نوازع الفروسية والميتة التي كان يريدها أو يرضاها وموقعه الذي مات فيه قفرة تثير الريح فيها السوافي.

وكعب بن معدان الأشقري الشاعر يمثل جزءً من حركة الفتح، وصورةً من صور التاريخ الذي واكب فيه الشعر كل واقعة، وأدى واجبه في كل حدث، فقد صاحب هذا الشاعر المهلب بن أبي صفرة، والمهلب من القواد الذين نهضوا لمقاومة العناصر التي حاولت الخروج على الدولة، وإلى جانب مشاركته في فتح سمرقند وكرمان وغيرها من المدن، وكعب كان يشهد المعركة بوقائعها ويتلمس الصلابة بحقيقتها ويجد ضروب البسالة وهي تتحدث، وأنواع الصمود وهو يقاوم وأشكال التضحيات وهي تقف بكل شموخ في ميادين الجهاد مخلصة لعقيدتها، مؤمنة بسلامة مسيرتها، ويراقب الشاعر مواقف الرجال الذين أبلوا في المعارك البلاء الحسن وقد تسمرت سنابك خيولهم في المعارك، وتوقدت ومضات

عزائمهم في خوضها، ولمعت خوافق قدراتهم في المقارعة، وهي تسجل أروع الصفحات وتعطي فضل النماذج في الثبات على المبدأ حتى جاءت قصائده أناشيد بطولة تفخر بالقوة وتشيد بصلابة الإيمان، وتمدح بالثبات على القدرة وتسجل حركة جيش التحرير وهو يناهض المشركين ، ويقاوم القساة الظالمين، وقوافل الفتح وهي تخترق تخوم الأعداء، وتجتاز حدود المناهضين لحركة الدعوة حتى أصبح بإمكاننا أن نقرأ حركة الفتح من خلال قصائده، ونتصور قدرة المقاتلين من ثنايا أبياته، وإمتداد الدعوة من خلال صوره المتناثرة في كل مقطع من مقاطعه، وفي الوقوف عند كل معركة من المعارك التي ذكر أحداثها، وفصل دقائقها وأشار إلى كل عنصر من عناصرها.

لقد اصطبغ شعر هذا الشاعر بلون المعارك وما يثار فيها من صور ما يصاحبها من نيرات حتى أوشكنا أن نرى أشكال النيران الملتهبة في عتمة الليل واصطباغ الظلام بوشاح اللهب الذابل وصلابة الذين يثبتون في اشتداد الضراوة وفلول المنهزمين الذين تتناهبهم الفلوات أو تطفوا عليهم شعاب الوديات الغارقة في دخان المعركة المتصاعد. إلى جانب تحديد المواضع التي تم فتحها بشكل دقيق، واعداد المقاتلين وما اعتراهم في كل مصر من الأمصار، ومن اشترك معهم أو تخلى عنهم، أو انضم إليهم، وهي مصادر مهمة في دراسة التاريخ، وتثبيت الوقائع والإنتفاع من الإشارات المتناثرة للتوفيق بين الخير والشر، والتأكيد بين المقولة والرؤية الحقيقية وتحديد الملامح التي خفتت بعض أضوائها عن المؤرخين وتكثيف الأخبار التي تلتقي مع الرواية الشعرية لتعطي مدلولها، وتحدد موقعها وتترك بين أيدي الدارسين المقولة الصحيحة التي تعتمد في إعطاء الفكرة أو ترسيخ الفعل أو تسند الحديث.

إن قدرة الشعراء المبنية على المعايشة الثابتة، وحرصهم على الكشف عن العوامل الحقيقية التي حددت الإنتصار أو التقهقر تشكل المبدأ الثابت إلى جانب المقولات التاريخية التي يمكن أن تلتقي هذه الأدلة التي عاصرها الحدث وعاشت مع الواقع، وفصلت كل طرف من أطرافه بدقة متناهية، وحددت كل عنصر

من عناصره بقدرة واعية ورؤية ثاقبة. لقد دأب الشعراء في أغلب الأحيان على تصور الجوانب المحسوسة والومضات الإنسانية التي لم يلتفت إليها المؤرخين في بعض الأحيان، وتكثيف التصور عند النقاط التي كانت تأخذ أبعادها في تحليل الهدف أو تعليل الغاية أو الكشف عن النقاط الحادة التي كانت في كثير من الأحيان تحدد حركة الموقف الحربي، أو تغيير خطة المعركة ومن الطبيعي أن يكون هؤلاء الشعراء من المصاحبين والمرافقين للقادة، والمشاركين فعلاً في تسيير دفة المعركة، والوقوف على العوامل الفاعلة في توجيه دفتها وفي إشارات كعب تتضح بعض هذه اللمحات وهو يشير إلى فتح سمرقند وفيل وهي أحصن مدائن خوارزم[1] :

رمتك فيل بما فيها وما ظَلَمت	ورامَها قبلك الفجفاجة الصّلف
لا يُجزي الثغر خوّار القناة ولا	هشٌّ المكاسر والقلب الذي يجف
وفي سمرقند اخرى أنت قاسمها	لئن تأخر عن حوبائك التلف
وما قدّم الناسُ من خير سبُقتَ به	ولا يفوتُك مما خَلّفوا شرفُ

وهي أشكال لم يقف عندها المؤرخون ولم يحللوا معانيها أو يقفوا عند الأعداد التي وردت في الشعر من المقاتلين، ولم نجد في أقوالهم ما تذهب إليه الأشعار من أخبار ولكن بعضهم عرض لها، ووقف عندها، واستشهد بأبياتها في الشكل العام، والمعنى الشامل، والصورة المطلقة، وبقيت دقائق المعاني، ودلالات الأغراض، وإشارات الوقوف كافية في ثنايا القصائد، وماثلة من نماذج الأحداث المروية، ومطوية في أشكال الحس الشعري الذي لا يخلو من التحليل، ولا يبتعد عن المعالجة..

ان الإكتفاء بالإستشهاد لا يعطي الشعر حقه، ولا يحدد له الغاية المرجوة وإنما هو بحاجة إلى استدال منطقي، واستبطان نفسي وإجتماعي، وعسكري للوقوف على المعاني التي حاول الشعراء أن يقفوا عندها، ودراسة الجو الذي أحاط بها

(١) كعب بن معدان ـ شعره في (شعراء امويون) ٢/٤١٣.

ليكشف عن الحقائق التي صاحبتها، والمواقف التي رافقتها والنتائج التي ترتبت عليها لتكون الأشعار أمينة في الأداء، سليمة في المواقف رائدة في الدلالة...

إن أحاسيس الشعراء لم تنته عند الجانب الوصفي لأحوال المقاتلين واشتداد ضراوة الحرب، واشتعال أوار القتال، وإنما تجاوزتها إلى العوائق التي كانت تحول دون تحقيق أغراض المحاربين، فالقلاع المنيعة، والحصون الشامخة والعوائق الطبيعية والأسوار التي كانت تحاط بها المدن كانت تأخذ وجها آخر من وجوه المعالجة، وصورة من صور الوصف الدقيق الذي كان الشعراء يجدون فيها حائلاً دون التجاوز، وجداراً يحجب مهمة الجند. وهذا ما كانت ملامحه واضحة في صور شعر كعب وفي صور غيره من الشعراء الذين رافقوا الجند، وواكبوا جحافل الأبطال وهم يقهرون تلك الحصون ويذلون أسوارها الشامخة، ويعبرون حدودها المنيعة وخاصة في الجبهة الشرقية التي توجهت إليها قوافل الفتح، لأنها كانت على جانب كبير من المنعة والتحصين، ومن الطبيعي أن تأخذ هذه الأشكال بعدها في حديث الشعراء لأنها كانت مبعثاً لحديثهم، وهم يصورون هذه المنعة وقدرتها على الصمود ويتحدثون عن المقاتلين وهم يقدمون النماذج الفريدة في القدرة على اقتحامها والصبر على محاصرتها وتعد الأبيات التي قيلت في اقتحام قلعة نيزك بباذغيس من الأبيات المشهورة في وصف القلاع. فقد ذكرها كعب بن معدان أكثر من مرة فقد وقف عندها عندما صالحه نيزك على أن يدفع إليه ما في القلعة ويرتحل عنها.

ومثل ما وقف كعب الأشقري وهو يتحدث عن بطولة يزيد بن المهلب ويمدحه وفق المعايير التي أوجدتها ظروف الحرب، وفرضت خصائصها الممارسة القتالية المتميزة، والقيادة الناجحة، وقف حاجب بن ذبيان المازني (وهو صاحب الفيل) يمدح القائد نفسه ويضفي عليه من أوصاف الشدة والبأس والتمرس في القتال والقيادة والإندفاع والصبر في الحرب ويذكر قدرته في دحر خصومه وقهره لأعدائه [1] فيقول:

(١) ابو الفرج ـ الاغاني ـ دار الثقافة ١٤/٢٥٠.

كم مـن كمـي في الهيـاج تـركتـه   يهوي لفيـه مُجـدّلاً مقتـولا
جَلّلـت مفـرق رأسـه ذا رونـق   عضـب المهـزة صـارمـاً مصقـولا
قـدت الجيـاد وأنـت غـر يـافـع   حتى اكتهلـت ولم تـزل مـأمـولاً
كم قد حربت وقـد جبرت معـاشراً   وكم امتننـت وكم شفيـت غليلا

وتظل شخصية قتيبة بن مسلم الباهلي في هذه المرحلة هي الصورة المتقدمة والنموذج الفريد الذي يقف إلى جانب الرجال الأشداء الذين عاشوا البطولة بكل أبعادها، وقدموا من ضروب التضحيات ما جعلته في عداد القادة المشهورين جرأة وإقداماً، حكمة واقتداراً، قيادة وتدبيراً.

وتبقى أعماله في أحاديث الشعراء مثار اعتزاز، وموضع تقدير وهو يمتلك زمام القيادة ابن سبعة عشر، ويحافظ عليه قرابة ثلاثين عاماً، وفي كل مرحلة يؤدي دوره المطلوب برجاحة عقل وشدة بأس وإخلاص في الوفاء للعروبة، وإيمان بعقيدة الإسلام واقتداء بالرسول الكريم والصحابة الأخيار والقادة الأبرار بعد أن اكتسح بجنده أقطاراً شاسعة وعبر جبالاً شاهقة، واجتاز أودية وأنهاراً حتى أشرفت طلائع جنده على منطقة خوارزم وأفغانستان ثم تدفقت سرايا مجاهديه شرقاً لتعتلي الأسوار والتخوم فتستقر في مدينة كاشغر...

ان مسيرة القائد المظفر وهو يحقق النصر في كل المعارك، ويقف على أوضاع جنده، وهم يقتحمون أصعب الممرات، ويتسلقون القمم الشاهقة في ظروف بيئية لا ترحم ومسالك طبيعية ليس من السهل ارتيادها كانت تدفع الشعراء إلى أن يقولوا فيه ما يقال بشأن النماذج المتميزة في البطولة والمتفردة في الخصائص فقال نهار بن توسعة [1]:

أصبت ووفقت ابن عمرو ولم تـزل   على كل حال قـد تـوفـق للـرشـد
قتلـت عـدو الله نيـزك بعـد مـا   أتـى وجنـود المسلمين على حقـد

(١) ابن اعثم الكوفي ـ الفتوح ٧/٢٣١ واخل بها شعره المنشور في المورد بتحقيق الدكتور خليل ابراهيم العطية.

فكم ثم كم مـن غمـرة قـد عقـرتها	وكم عاند في القوم قدمت للقصـد
وكم مقتر أنعشتـه يـا ابـن مسلم	وأعطيته الآمـال في طلـب الحمـد
وكم من عظيم البال يحتـال في الوغـى	نـزلـت صريعـاً للـدريـن وللحـد
وكم بـائس أغنيتـه بعـد عيلـةٍ	فـأصبـح ذا مـال كثير وذو لبـد
ومن متلد دغدغت بالسيف مـالـه	وقدما قديماً كان يـأوي إلى صفـد

إن مفاهيم المديح في الشعر العربي تحمل دلالات جديدة وخاصة ما يتعلق بخصائص القادة الذين تميزوا بسعة الإطلاع، وقدرة قيادة التشكيلات والإلمام بالأمور الإدارية وتحليل الطبائع البشرية ومعرفة الجانب النفسي للمقاتلين وقد اكتسبوا هذه الصفات بعد أن مكثوا هناك مدة طويلة اكتسبوا خلالها خبرتهم وعرفوا أموراً أغنت تجاربهم، وقدوجدت هذه الخصائص في الشعر مجالها، ووجد فيها الشعراء ميدانهم لينطلقوا منه لتقويم الرجال وهم يخوضون معارك الشرف ويبدون ضروب البسالة، ويرسمون المنهج الحربي في القتال ويخططون لبناء الأصول العسكرية في القيادة بعد أن أحسنوا تقدير المواقف، وعرفوا تنظيم الجيش، وحققوا النتائج الباهرة في ظل أصعب الظروف، وأشد الحالات مجابهة وأقساها مطاوعة.

ومن الطبيعي أن تنموا في دائرة المعارك معاني الفخر، وتزهو أصالة الإعتزاز بالقيم الخيرة، وتتعالى أصوات الإباء وهي تحقق في الذات نزعة البناء الجديد للإنسان الذي حقق في نفسه روح الإنتصار، وأكد في وجوده قدرة التواصل بعد أن بدأ الإنسان العربي يشعر بأن التكريم قد تجاوز حدود المآثر وحدها على الرغم من كونها ينابيع غنية تمد هذا الإنسان بالعطاء، وتزيد في اندفاعه لتحقيق الأهداف الكبيرة التي بدأت تتجسد في نطاق الحركة الجديدة التي بدأت الأمة تسجلها في الميدان الحضاري والثقافي، وأن التمجيد قد تحول إلى الفخر بالمواقف الكبيرة التي كانت تسجل، والتطورات العظيمة التي كانت تأخذ دورها في بناء الأمة وتؤثر في تحديد مسارها، وتتحرك في إطار مستقبلها ومصيرها وهنا كانت معاني الفخر تتغير من حيث الأداء الفني والأسلوب التعبيري والصور التركيبية

لأن النضال اليومي أصبح هو القاعدة لمنطلقات الفخر والإشادة بالجهد المخلص كان الأساس في تحفيز المشاعر وتوثيب النزعات واستثارة الموحيات الكفيلة باستمرار حالة النهوض والإستعداد لتبقى معاني الفخر موافقة لامتداد الزمن ومتواصلة في حدود المفاهيم الجديدة، ومستساغة في ظل المعطيات الموجهة التي أوجدها هذا الفن الشعري..

إن وجود الإنسان العربي مهما اختلف نسبه في جبهة القتال كان يدفعه إلى التفكير بأن أسباب النصر كانت تعني حمايته والحفاظ عليه والدفاع عن حقيقته وذماره لأن الإحساس بالرابطة القومية والدينية كان يمتد في نفوس المقاتلين بمساحات أوسع ويحقق في ذاتهم دوافع إنسانية أشد التصاقاً بوجودهم، وأن التغير في طبيعة التفكير كانت تفرض عليهم أن يغيروا أساليب التعبير لتتحول المشاعر الذاتية إلى مشاعر جماعية، ولتصب في قناة الوحدة العسكرية والقيادة الموحدة التي حددت أهدافها في نطاق التوجه الواحد وهو تحرير الإنسان ووضعه في حدود الرسالة السماوية وإنقاذه من كل أسباب القهر التي كان يتعرض لها وفي حدود هذا التوجه كان الجانب النفسي يتركز على دواعي الفخر من خلال الشعور الجماعي أكثر من الشعور الفردي وإستيعاب وحدة المصير الذي يفرض وحدة التماسك ويحقق أسباب الإنشداد في معركة تفرض على المقاتلين الذين تجمعهم وحدة الهدف إلى التلاحم والوقوف جبهة واحدة في وجه الأعداء الذين كانت تجمعهم حالة واحدة ويتحركون في دائرة الدفاع عن حياتهم وحياة النظام الكسروي الذي أجبرهم على خوض الحرب دفاعاً عنه، وهنا كانت مظاهر الإنفصام تتضح في ذات المقاتل المشرك الذي تتبدد جموعه عندما يجد صيحة المقاتل العربي ترتفع وهي مؤمنة وهيمنته تبرز في ساحة المعركة وهو يشحذ معنويته التي تبهر الخصوم، ويبدي من ضروب الشجاعة والإندفاع ما يجعل خصومه يتراجعون ذعراً ويفرون فزعاً ويلوذون بكل مكمن يجدون فيه ملاذاً. كل هذه الصور كانت تعطي معاني الفخر دلالة جديدة وتولد في أساليب الشعراء دواعي حية تغني المعاني بصورها وتحرك في مجال التغيير قيم الحياة بروافد

تجعلها أسباباً لمنطلقات لم يعهدها الشعر في حياته، ولم تألفها المعاني في حدودها...

فالتضحية في نشر الرسالة كانت فخراً جديداً، والثبات في ميدان المعارك مع الأعداء كانت مادة غنية والنصر الذي يحققه المقاتل في ظل المجموعة التي تضم كل القبائل أصبح نصراً لكل المقاتلين دون استثناء، والجهاد من أجل رسالة الأمة صار حقيقة متميزة، والحرص على نفوس الآخرين ممن كانوا يقفون معه في خندق واحد، ويبذلون من ضروب البسالة والشجاعة ما يطفىء جذوة الحقد في قلوب المشركين كان غاية من غايات الأبطال الذين صنعتهم معارك التحرير وكونتهم ممارسة القتال اليومي المستمر. والدفاع عن حقيقة الأمة ووجودها المتمثل في شخصية هؤلاء الفرسان الذي حملوا مسؤولية الشرف وإلتزموا بأمانة المبادىء، فالفرزدق الذي كان بعيداً عن المعركة كانت معانيه تأخذ هذا الجانب وكانت أغراضه تتأثر باتجاه المعركة التي كان يخوضها الجيش المؤمن في بلاد ما وراء النهر وهو يبدي من البسالة ما يجعله موضع تقدير فيقول[٢٢]:

ومنا الذي سلّ السيوف وشاحها	عشية باب القصر من فرغان
عشية لم تمنع بنيها قبيلة	بعز عراقي ولا بيماني
عشية ما ود ابن غراء انه	له من سوانا إذ دعا أبوان
عشية ودّ الناس أنهم لنا	عبيد إذ الجمعان يضطربان
رأوا جبلاً يعلو الجبال إذا التقت	رؤوس كبيريهن ينتطحان
رجال على الإسلام إذ ما تجالدوا	على الدين حتى شاع كل مكان
وحتى دعا في سور كل مدينة	مناد ينادي فوقها بأذان

وفي اتجاه الفرزدق يتحرك الأصم بن الحجاج ليجد في اجتياح المحررين لبلاد ما وراء النهر مجالاً للحديث، وفي اختراق القلاع الحصينة التي كانت تعترض تقدمهم قوة تدعو إلى الفخر، وفي خضوع الأرض لإرادة المجاهدين

---

(١) الفرزدق ديوانه ٢/٣٣١ صادر.

بكل أشكالها إقتحاماً لمعاقل الشّرك وقهراً لدعوة الوثنية المتهرئة، فكانت قصيدته وجهاً من وجوه البناء الجديد لقيم الفخر الإنسانية التي أصبحت أسلوباً متميزاً من أساليب الفن الشعري فيقول: (١)

فكم من حصون قد أبحنا منيعة ... ومن بلد سهل ومن جبل وعر
ومن بلدة لم يغزها الناس قبلنا ... غزونا نقود الخيل شهراً إلى شهر
مرن على الغزو الجرور ووُقّرتْ ... على النَّفْر حتى ما تهال من النَّفْز
وحتى لو أن النار شبت وأكرهت ... على النار خاضت في الوغى لَهَبَ الجمر
تلاعب أطراف الأسنة والقنا ... بلباتها والموت في لجج خضر
بهن ابحنا أهل كل مدينة ... من الشرك حتى جاوزت مطلع الفخر
ولم لم تعجلنا المنايا لجاوزت ... بناردم ذي القرنين ذا الصخر والقطر
ولكن آجالا قضين ومده ... تناهى إليها الطيّبون بنو عمرو

فالفخر بقدرة الرجال، والإقدام في الحرب والدفاع عن الحقيقة والذود عن الديار والتداعي لنصرة الأمة ومجدها، والسبق في معارك المصير، والمبادرة إلى نيل الشرف في ميادين القتال والجهاد في سبيل المبادىء السماوية. كلها كانت عناصر تجديد في رافد الفخر الذي ظل يغذي مسيرة الحياة، وقنوات عطاء ثر تملأ سواقي البناء الفني بمعطيات أغنت المعاني ومدت الشعراء بتراكيب حية.

ولم يكن قتيبة بن مسلم الباهلي هو القائد الذي عرفت شهرته في تحرير أرض ما وراء النهر، ولم تنته قيادة الجيش العربي بانتهائه وإنما كان القادة الأوائل يتتابعون في تسجيل الإنتصارات ويتعاقبون على بناء المفاخر والمآثر، لأنهم أبناء أمة واحدة هيأتهم الحياة لتسلم أدوارهم وأحكمتهم التجارب ليأخذوا طريقاً واضحاً ويسلكوا درباً كان الجهاد أوضح علاماته، والإستشهاد أروع صفحاته والبسالة أبرز مظاهره، وفي هذا الإتجاه كانت بطولات القادة تتعاقب لتكمل المسيرة، وكانت براعاتهم القيادية تشق دروب التاريخ لتسجل لنفسها ولجندها

---

(١) الطبري ٦/٥٢١.

الأشداء الأيام الخوالد.. ونصر بن سيار الكناني كان واحداً من أولئك الذين حملوا راية التحرير واندفع بقوة ليكتب على روابي حدودنا الشرقية ملاحم جديدة وهو يخرج من بلخ ويتجه إلى أقليم ما وراء النهر ليواصل مسيرة القائد العربي أسد بن عبد الله القسري، ويبدأ تاريخ حافل للنضال العربي، ومحاولة أخرى من محاولات صيانة التراث العربي وليتمكن هذا القائد المظفر وبمعاونة الرجال المجاهدين من إيقاع الهزائم بالفرس وتفريق جموعهم.. وقد وجدوا في القبائل العربية التي عاشت في الجانب الشرقي من حدود الوطن العربي قوة تجابه حركات الإرتداد التي كانت تعصف بالأمة كل ما وجدت الظروف مواتية، أو وجدت لها من الأنصار والأحلاف ما يعينها على تنفيذ مخططاتها أو تجميع حقدها، ولم يكن أبو مسلم الخراساني الذي رفع الراية لمقاومة حركة التحرير تحت شعارات مضللة إلا صورة من صور الردة أو حالة من حالات الإلتفاف لتطويق المبادىء التي حملها أولئك الرجال المؤمنين فقد استغل هذا الدعي السذاجة السياسية وبعد أن رفع الشعار الذي انطوت تحته كل الحركات المناوئة، وهو شعار الدين لتختفي في طواياه كل النفوس الشريرة، وتتستر بردائه كل التكتلات التي وجدت في الرسالة الإسلامية إنهاء لوجودها المزعزع، وإسقاطاً لادعاءاتها الفارغة فكان الموالي من أوائل الذين طوتهم راية أبي مسلم ليكونوا من أوائل الذين سددوا حرابهم إلى الدولة العربية، وشهروا حقدهم بوجه الدعاة الأوائل الذين بشروا بالرسالة ونشروا المبادىء الإنسانية الخيرة. لقد وهب نصر ابن سيار قدرة شعرية استطاع من خلالها أن يؤرخ للأحداث الخطيرة التي مرت بها الدولة العربية في التخوم الشرقية بعد أن استطاع أن يقدم النموذج الواعي الذي حمل المشاعر الأصيلة ولكن الحقد الدفين الذي أكل قلوب المارقين من أولئك الذين أرعبتهم الرسالة الإسلامية حاولوا وبكل الوسائل أن يوقفوا زحف الأمة التي حمل أبناؤها أمانة السماء ولكن مطامح الأبناء البررة والعقيدة الأصيلة والتضحية الفريدة كانت تعيش في نفوسهم حية لم تستطع أن تحجبها نزعة الطيش الباهتة، ولم تثن عزيمتها وقفة البائسين من أبناء الفلول المنهزمة.

ومن الطبيعي أن تتغير صور الرثاء التي عاشت في الشعر العربي، بعد أن صوره المرثي لوحة مكرمة واستشهادهم نموذجاً متقدماً وتضحيتهم مفخرة نبيلة فهم رجال قدموا نفوسهم رخيصة، وحملوا مناياهم إلى ديار بعيدة يؤدون واجباً إنسانياً، ويدافعون عن قيم أصيلة، ويخلصون لعقيدة سامية وكثيراً ما يقترن هذا الواجب والإخلاص للعقيدة بصور فريدة في التضحية كانت تغني الشاعر بمفردات أوسع في الدلالة، وأكبر في المعالجة، وأقرب إلى استثارة دواعي الرثاء لما تثيره من اعجاب وتخلقه من حالات، وتحمله من قيم نبيلة. وتتصدر مجاميع القادة الذين استأثروا بالرثاء أسماء قتيبة بن مسلم الباهلي ويزيد بن المهلب ونصر ابن سيار وغيرهم ممن كان فقدهم يثير لوعة، ويترك حسرة، فعبد الرحمن بن جمانة الباهلي يستثيره استشهاد قتيبة بن مسلم فتنطلق آهاتة حزينة، وتمتلكه حيرة مذهلة فيقول: [1]

كأنّ ابا حفص قتيبة لم يَسرْ ... بجيش الى جيش ولم يَعلُ منبرا

ولم تُخفِق الرايات والقوم حوله ... وقوف ولم يشهد له الناس عسكرا

دعته المنايا فاستجاب لربّه ... وراح الى الجنّات عَفًّا مُطهرا

فما رُزِىء الإسلام بعدَ محمد ... بمثل أبي حفص فبكّيهِ عبهرا [2]

ويجد ابن ثابت قطنه في قتل يزيد من المهلب مصيبة لا تعوض، فيطول عليه الليل بهمومه، ويستعير لها من الصور القديمة التي تذكرنا بمراثي المهلهل وغيره من الشعراء الذين أثار سواد الليل في قلوبهم هموم المآسي ومخاوف الأحداث فيقول: [3]

ألا يا هندُ طال عليّ ليلي ... وعاد قصيرهُ ليلا تماما

كأني حين حَلّقتْ الثريا ... سقيت لعُابَ أسودَ أو سَماما

---

(١) الطبري ـ تاريخ الطبري ٦/٥٢١.

(٢) عبهرا ـ ام ولد له.

(٣) ثابت قطنة ـ الديوان/٦٠.

أمــرّ عليّ حلــو العيش يــوم ... مــن الأيــام شيبنــي غلامــا
مصاب بني أبيك وغبت عنهم ... فلم أشهدُهم ومضــوا كــرامــا
فلا والله لا أنســى يــزيــداً ... ولا القتلى التي قُتلــت حــرامــا

وله في قصيدة أخرى يقول فيها :[1]

أبي طول هذا الليل أن يتصرما ... وهــاج لــك الهمّ الفــؤاد المتّيما
أرقت ولم تـأرق معي أمّ خالد ... وقد أرقتْ عيناي حولا مُجرّما
على هالك هـد العشيرة فقدُهُ ... دعته المنايا فاستجاب وسلّما

وهو يسلك فيها المسلك نفسه بعد أن يبدي من الآلام ما يمض، ومن الأوجاع ما يؤلم ومن المشاعر ما يكشف عن التأثر الحاد الذي اعترى الشاعر وهو يرى الموت يطوي حياة القائد المظفر، ومثل هذين القائدين تبرز شخصية القائد نصر بن سيار الذي كانت له مواقفه المشهورة خلال أربعة عشر عاماً وهو يحاول ترسيخ قواعد الدولة العربية في بيئة كانت نوازع الشر تتطاير فيها من كل جانب ومعاول الحاقدين ترفع لتهدم كل مكرمة رعتها عناية الدين وغذتها سماحة القادة المشهورين، فكان وجوده وجهاده وجوداً وجهاداً متميزاً، أخذ موقعه في حركة التحرير العربية وكان لموته وهو يحمل الغصص أثر في قلوب الشعراء الذي وجدوا في نهايته إنعطافاً حاداً في الحس القومي المتصاعد في الجبهة الشرقية في الوطن العربي وقد قيلت فيه مراث تستمد روحها من الروح التي كانت تدور في نفوس الشعراء وهم يستذكرون القادة المتميزين في سوح المعارك. وإذا حاولنا تجاوز هذا الضرب من فن الرثاء فإننا نجد رثاء لمقاتلين أحسنوا البلاء وأبدوا من ضروب البسالة ما يدعو للفخر ويمكن اعتبار الشمرول اليربوعي الذي استشهد أخوته الثلاثة وهم يؤدون مهمتهم في صفوف جيش التجرير واحداً من الشعراء المبرزين في هذا المجال الشعري فقد استشهد وائل وهو يقاتل الفرس، وقدامه في بلاد فارس وحكم في سجستان وقد أفرغ في

(١) ثابت قطنة ـ الديوان /٥٧.

رثائهم شعره حتى أصبح الرثاء هو الطابع المميز لهذا الشاعر.

فقد اعتبر أبو الفرج وهو يقدم لواحدة من قصائده أنها من مختار المراثي وجيد الشعر [١]، وقال الخالديان بأنها من مراثي العرب الصادرة عن قلوب فرحة فجادت ألفاظها وحسنت معانيها [٢]، وتأثر البحتري ببعض معانيه [٣]، ويبدو أن هذه الخصائص كانت دليلاً من أدلة رقة العواطف التي بكى فيها أخوته ونعاهم بأصدق ما ينعى بها إنسان، لما أظهره من الجزع، وأبداه من العواطف الواضحة، فالصبر لا يطاوعه والعين يخالط جفنها القذي، والشحوب قد علا لونه، وأن الحرب مهما أبدت له من أنيابها فإنه يظل حاملاً سيفه القطاع يجالد أيامها ويناهض خطوبها فيقول [٤]:

فإن يك لوني قد علاه الشحوب	فـإن اخـا الهم مـن يشحـب
وقـد عجمتني شـداد الامـور	فلا استكيـن إذا انكـب
لئـن أبـدت الحرب أنيـابها	وقـام لها ذائـد مـرهـب
ومـا زال عنـدي ذو هيئـة	حسـام أصـول بـه مقضـب
مـن القلعيـات لا محـدث	كليـل ولا طبـع أجـرب
تلـذ اليميـن إنتضـاء بـه	إذا الغمـد عـن متنـه يسلـب

والشمرول لم يقف على رثاء اخوته من الذين استشهدوا وهم يقاتلون في خراسان وإنما كان في شعره رثاء لأصدقائه الذين كان يأتي نعيهم وهم في ساحات القتال، فهذا عمر بن يزيد الأسدي كان من أصدقائه الذين ألمه استشهادهم فقال يرثيه [٥]:

---

(١) أبو الفرج ـ الاغاني ١٣/٥٣.

(٢) الخالديان ـ الاشباه والنظائر ٢/٣٢١.

(٣) نفس المصدر.

(٤) ينظر الجزء الثاني من (شعراء امويون) ٥٢١ ـ ٥٢٢.
وتنظر الصفحات ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٣٦، ٥٤٢، ٥٤٤، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٥٤.

(٥) شعراء امويون ٢/٥٢٣.

وحليلة رزئت واخت وابنة ... كالبدر تنظره عيون لُمّحُ

لا يبعد ابن يزيد سيد قومه ... عند الحفاظ وحاجة تستنبح

حامي الحقيقة لا تزال جيادة ... تغدو مسومة به وتروّح

للحرب محتسب القتال مشمرّ ... بالدرع مصطمرُ الحوامل سُرّح

ساد العراق وكان اول وافد ... تأتي الملوك به المهارى الطُّلّح

ويبقى الشعر الملتزم الذي كان صوتاً للمعركة بكل أشكالها مهيئاً بكل أغراضه لمعالجة أحداثها، وواضعاً كل قدراته لمتابعة الذين لم يحالفهم الحظ في النصر لسوء تقدير أو الفشل في اتخاذ موقف، أو تردد في موقف يقتضي الإقدام، وخاصة عندما تكون الظروف مواتية لتحقيق النصر، والأسباب موجبة لارتداء إكليل الإباء والإعتزاز، وكانت معاني الهجاء تدخل في إطار توثيب العزائم وإستثارة الهمم، وشحذ القدرات لإعادة الكرة، ومضاعفة الإستعداد وكان الشعراء يتحركون من مواقعهم عندما يجدون بعض القادة ـ لقناعاتهم ـ يهادنون الخصوم، أو يجنحون إلى مفاوضاتهم، في الوقت الذي كانت دواعي الحرب تفرض عليهم الهجوم والحصار لخنق أنفاسهم، والتمكن منهم والسيطرة عليهم لأن المهادنة في مثل هذه المواقف كانت تعطيهم فرصة التهيؤ، وتترك لهم مجال الإستعداد ليعيدوا تنظيم أنفسهم، وينتفعوا من الفرص المتاحة، وتتحقق الأفكار التي وقف عندها الشعراء وتتضح توقعاتهم التي وضعوها وهم يراقبون المعركة .

فمالك بن الريب ـ الشاعر المجاهد ـ يخاطب سعيد بن عثمان بعد أن قطع النهر إلى سمرقند، وبعد أن خرج إليه أهل الصغد فتواقعوا يوماً إلى الليل ثم انصرفوا من غير قتال، ويرى في مهادنتهم سبباً إلى الهجاء، ومدعاة إلى الذم (١) كما كانوا يجدون في السكون على تهديد الخصوم، والرضوخ لاستخفافهم داعياً ملحاً من دواعي الهجاء لأنه دلالة من دلالات الخنوع، وبداية لتحرك طامع

---

(١) شعراء امويون ٢٩/١.

لا تحمد عواقبه، وإشارة لاكتساح لا تقبل نتائجه، وهي إيماضات كان الشعراء يجدون فيها علامات لتفكك وربما كانت بعض قصائد الهجاء تأخذ جانب التقريع واللوم عندما يجد الشاعر العواقب الموضحة تنتظر اللحظة الحاسمة فعندما وجد نصر بن سيار النزاع المستحكم بين مضر واليمن كان صوته إنذاراً لإيقاف التطاحن وإعلاناً لسد كل الثغرات التي ينتظر الأعداء الدخول منها فيقول: (١)

ابلــغ ربيعــة في مــرو واخــوتها	أن يغضبوا قبل ان لا ينفع الغضب
ولينصبوا الحرب ان القوم قد نصبوا	حربا يُحــرّق في حـافـاتها الحطـب
ما بـالكـم تلقحـون الحرب بينكـم	كأن اهل الحجا عن معلكـم غَيَـبُ
وتتركــون عــدوا قــد اظلكــم	فمن تـأشـب لا ديـن ولا حسـب
ليسـوا الى عـرب منـا فنعـرفهـم	ولا صميم الموالي ان هـم نُسبـوا
قوما يدينون دينـا مـا سمعـت بـه	عن الرسول ولا جاءت بـه الكتـب
فمن يكن سائلا عـن اصـل دينهـم	فـإن دينهـم ان تُقتَـل العــرب

ولما أعيت نصر بن سيار الحيل في أمر الكرماني وهو يرى نذر الشر تتطاير والسيوف الشعوبية ترتفع، ووجه أبي مسلم الكالح يقطر حقداً، كتب إلى مروان يحذره من الفتنة فيقول (٢):

يـا أيها الملــك الواني بنُصرتــه	قد آن للأمر أن يأتيك مـن كتـب
أضحت خراسان قد باضت صقورتها	وفرخت من نـواصيهـا بلا رهَـب
فـإن يطـرن ولم يحتــل لهن بها	يُلهبن نيران حــــرب إيماهب

وتبقى دراسة النصوص الجديدة التي حفل بها الشعر العربي وهو يعبر عن حالات المجتمع الجديد والبناء الإنساني لهذه الأمة بحاجة الى محاولات جادة للكشف عن الجوانب النفسية التي كانـت تتمثـل في أحـاديـث الشعـراء وهـم يتحركون في اتجاه التحرير. ويضعون اللبنـات الأولى لبنـاء الدولـة العـربيـة،

---

(١) نصر بن سيار ـ الديوان /٢٨.
(٢) نصر بن سيار ـ الديوان /٣١.

ويحددون الثغرات التي كانت تحاول أن تتوسع في ذلك البناء لتدخل منها كل العناصر النخرة، وتلج تحت أغطية كثير من الدعوات الباطلة، فالشعر قد وضع لها خطوطاً متميزة، ووقف على أسباب معقولة، وعالج حالات عاشها المجتمع بشكل واضح وان هذه الإتجاهات التي أشير لها في هذه الدراسة هي بداية لتناول جديد، ومحاولة لتحليل العناصر غير المنظورة في الدراسات الأدبية التي ظلت محصورة في إطار التقليد وبقيت أحكامها غير الدقيقة غايات جاهرة لكثير من الكتاب والدارسين.

إن الأمة التي تستمد عناصر وجودها من أصول عريقة لا تقهر، والأمة التي عاشت التاريخ بكل جوانبه، وتفاعلت معه بكل أحداثه أمة لها حضورها المتميز ولها تكوينها الحضاري والثقافي المقتدر على المواجهة، وأمة العرب التي اختيرت لتكون صاحبة الرسالة، وحاملة مشاعل التقدم، ورائدة في التضحية من أجل إنقاذ البشرية من أوهام التخلف، وعبودية الأساطير، ووثنية العبادة فقدمت كواكب خيرة من أبنائها نجوم هداية، وطلائع تثقيف، ورواد أفكار إنسانية خيرة، فعرفهم العالم القديم بما قدموه من أعمال جليلة وإصلاحات جذرية حاسمة، وأسقطت كل الهياكل التي أوقفت حركة الزحف الإنساني وأزالت كل الكيانات المهترئة التي وجدت لنفسها حضوراً في تلك المجتمعات وبقيت هذه الأمة تعاني من أولئك الذين وجدوا في وجودها عاملاً من عوامل إنهائهم، وفي اقتدارها إضعافا لأسباب استمرارهم، وفي حضارتها الإنسانية إزاحة لما حاولوا نشره في صفوف الجماهير التي شلوا إرادتها وقهروا وجودها وقتلوا في نفوسها كل المطامح المشروعة.

مُحتويات الكِتاب

الموضوع | **الصفحة**

